

الشَّخْصِيَّةُ الْمُتَحَوِّلَةُ

حِينَ لَا يَكُونُ الْإِنْسَانُ أَسِيرَ خَطِيئَتِهِ الْأُولَى



تَأْلِيفُ: رَدَّادِ السَّلَامِيِّ

الشخصية المتحوّلة

حين لا يكون الإنسان أسيرَ خطيئته الأولى

رَدَادُ السَّلَامِيّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الشخصية المتحوّلة: حين لا يكون الإنسان أسير خطيئته الأولى

ليس الإنسان هو أسوأ ما فعله في حياته.

هذه حقيقة تبدو بسيطة حتى نختبرها في الواقع؛ حين نعرف إنساناً بخطيئته، فنضع تلك الخطيئة مكان اسمه، ونستدعيها كلها ذُكر، ونقرأ حاضره كلّ من خلالها، كأن الزمن توقف عند اللحظة التي سقط فيها، وكأن الإنسان الذي نهض بعد ذلك، وتألّم، وفكر، وندم، وتغيّر، لم يوجد قط.

لكن القرآن لا يروي الإنسان بهذه الطريقة.

إنه لا يأخذ لقطةً مظلمة من حياة أحد ثم يجعلها الصورة النهائية له، بل يعرض الشخصية وهي تسير في الزمن، تتشكل وتنكشف وتراجع وتقدم؛ لأن الإنسان في الرؤية القرآنية ليس حجراً أخلاقياً مصمتاً، وإنما كائن مكلف، ومن معنى التكليف أنه قادر على أن يختار، ومن معنى الاختيار أنه قادر على أن يخطئ، ومن معنى الهداية أن انخطأ ذاته لا يلغي إمكانية الرجوع.

ولعل قصة يوسف من أبداع المواضع التي يتجلى فيها هذا المعنى.

إننا نلتقي إخوة يوسف أول مرة وهم يقفون على حافة واحدة من أشجع الأفكار التي يمكن أن نتولد داخل بيت: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

إنها ليست هفوة عابرة. إنها فكرة إقصاء كاملة، نشأت من الغيرة، ثم تحولت إلى تبرير، ثم إلى خطة، ثم إلى فعل، ثم غُطيت بالكذب.

وكان يمكن لأي سرد بسيط أن ينتهي هنا فيحكم عليهم: هؤلاء أشرار القصة. لكن القرآن لم يفعل.

تركهم يسرون.

مرت الأعوام.

كبر يوسف بعيداً عنهم، وكبر شيء ما في داخلهم أيضاً. دخلت المحنة البيت الذي أخرجوه منه صغيراً، وجاء الجوع، ثم الرحلة، ثم الوقوف أمام الرجل الذي لم يعرفوا أنه أخوهم، ثم توالى المواقف حتى انكسر ذلك البناء القديم الذي أقاموه حول أنفسهم.

وفي آخر الطريق لم يعودوا يقولون إن أباهم في ضلال مبين، ولم يعودوا يرون يوسف سبب اضطراب البيت، ولم يعودوا يبررون فعلتهم.

قالوا:

﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

بين ﴿اَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ و﴿وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ تقع قصة أخرى داخل قصة يوسف؛ قصة تحوّل الإنسان من العمى عن نفسه إلى رؤيتها.

ولعل هذه واحدة من أعمق وظائف الزمن في القصص القرآني: أنه لا ينقل الشخصيات من مكان إلى مكان فقط، بل ينقلها أحياناً من صورة لنفسها إلى صورة أخرى.

فالإِنسان قد يرتكب الخطيئة وهو يظن أن غيره هو المشكلة، ثم يمضي به الطريق حتى يكتشف أن المعركة الحقيقية كانت في داخله.

وهذا التحول ليس إلغاءً للماضي.

القرآن لم يقل إن إخوة يوسف لم يلقوه في الحب، ولم يمحُ آثار ما فعلوا، ولم يجعل التوبة حيلةً لغوية لإلغاء المسؤولية. لكنه في الوقت نفسه لم يجعل الذنب قدراً سرمدياً عليهم. وهنا تتجلى دقة الرؤية القرآنية: لا إنكار للجريمة، ولا تأييد للمجرم داخل جريمته.

المسؤولية محفوظة، وإمكان التحول محفوظ كذلك.

وحين وقف يوسف قادراً عليهم، كانت أمامه ذاكرة طفل أخذ من حضن أبيه، وألقي في ظلمة الحب، وبيع بثن بخس، وانتقلت به الأيام من رقّ إلى فتنة إلى سجن. وكان يستطيع أن يجعل الماضي محكمةً لا تنتهي.

لكنه قال:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وهذه الجملة ليست مجرد عفو أُنح عن إخوته؛ إنها إعلان مذهب عن حق الإنسان في ألا يبقى أسير اللحظة التي تجاوزها حقاً.

ولهذا فإن هذا الكتاب لا يتحدث عن التوبة بوصفها باباً فقهياً مجرداً، ولا عن التسامح بوصفه فضيلة أخلاقية منفصلة، وإنما يحاول أن يقرأ سؤالاً أعمق:

كيف يتغير الإنسان؟

ما الذي يحدث داخل النفس بين الخطيئة والاعتراف؟

لماذا يتغير بعض الناس حين تكشف لهم الحياة حقيقتهم، بينما يزداد آخرون تصلباً؟

كيف يعمل الزمن، والألم، وفقدان القوة، وانكشاف الحقيقة، والرحمة، في إعادة بناء الشخصية؟

ومتى يكون العفو إكراماً لإنسان تغير، ومتى يكون مجرد تجاهل لخطيئة لم يتب صاحبها منها أصلاً؟

ثم هناك سؤال أشد التصاقاً بنا:

هل نسمح للناس فعلاً أن يتغيروا؟

أم أننا نؤمن بالتوبة نظرياً، ثم نبقي التائب في وعينا محكوماً بالنسخة القديمة منه؟
ربما كانت إحدى قسوات الإنسان على الإنسان أنه يرفض أحياناً أن يسمح له بأن يصبح شخصاً جديداً.

نغفر لأنفسنا تطورها، ولا نغفر للآخرين ماضيهم.

نتذكر ما كانوا، ولا نريد أن نرى ما صاروا إليه.

أما القرآن فيعلّمنا أن نراقب المسافة كلها.

فليس إخوة يوسف عند نهاية السورة هم إخوة يوسف عند أولها، ولا السحرة بعد السجود هم السحرة قبل أن تُلقي العصي، ولا بلقيس بعد قولها ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ **لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** هي المرأة ذاتها التي كانت قبل ذلك تنظر إلى الأمر من وراء عرش الملك.

إن الإنسان يتحرك.

وفي هذه الحركة تكمن مأساته، كما يكمن رجاؤه.

فكما يستطيع أن ينحدر من فكرة صغيرة إلى خطيئة عظيمة، يستطيع أن يصعد من لحظة
صدق واحدة إلى حياة جديدة.

ولهذا لن يكون السؤال في صفحات هذا الكتاب: ماذا فعل الإنسان؟
فحسب.

بل سيكون السؤال الأصعب:

ماذا صار الإنسان بعد الذي فعل؟

الفصل الأول

الإنسان أكبر من لحظته

ثمة ظلم خفيّ يمارسه الإنسان على الإنسان حين يختصره في لحظة.

لحظة غضب.

لحظة ضعف.

لحظة شهوة.

لحظة خوف.

لحظة حسد.

لحظة انهيار فيها أمام نفسه، ففعل ما لم يكن يظن أنه سيفعله، أو قال ما كان يتمنى بعد ساعات لو أنه لم يقله.

وقد تكون اللحظة فادحة، لا يصح تهوينها، ولا يجوز مسح آثارها بكلمات العاطفة. لكن الخطأ يبدأ حين تتحول تلك اللحظة من فعل ارتكبه الإنسان إلى تعريف نهائي للإنسان نفسه.

هنا ينغلق باب الزمن.

وهنا نقول له، من حيث لا نشعر: أنت ما فعلته، ولن تكون بعد اليوم إلا ما فعلته. لكن القرآن لا يبني نظرتة إلى الإنسان بهذه الطريقة؛ لأنه لا ينظر إليه بوصفه كلمة أخلاقية ساكنة، بل بوصفه مخلوقاً يتحرك تحت ضغط الاختيار، ويتأثر بالمعرفة، وتغيره التجربة، وتتكشف له نفسه في الطريق، وقد يسقط في موضع ثم ينهض في موضع آخر.

إن الله سبحانه خلق الإنسان مكلفًا، والتكليف لا معنى له إلا مع إمكان الحركة: من الطاعة إلى المعصية، ومن المعصية إلى التوبة، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن التردد إلى اليقين، ومن الجبن إلى الشجاعة، ومن الاستكبار إلى الانكسار.

فالإنسان ليس صورة واحدة.

إنه تاريخ من الاختيارات.

ولهذا كان القرآن شديد الدقة حين تحدث عن الخطيئة؛ فلا يهون منها حتى تذوب المسؤولية، ولا يضخمها حتى يستحيل صاحبها إلى قدر مغلق.

فآية التي تقول:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾

لا تعني أن النفس لا تعرف إلا السوء؛ وإلا لما كان معنى للمجاهدة، ولا للتزكية، ولا للتحول.

والآية التي تقول:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾

تضع أمام الإنسان احتمالين، وترد مصيره الأخلاقي إلى حركة يجريها في باطنه: تزكية أو تدسية، ارتقاء أو دفن، إخراج للنفس إلى نور حقيقتها أو إغراق لها تحت ركام الهوى.

فالإنسان - في المنظور القرآني - قابل لأن يصنع نفسه بما يختار، وقابل كذلك لأن يعيد صنعها بعد أن يفسد جزءًا منها.

وهذا هو أحد المعاني العميقة في التوبة.

فالتوبة ليست مجرد أن يُحى ذنب من صحيفة، مع جلالة هذا المعنى، بل هي كذلك إعلان أن الإنسان ليس محكوماً بالنسخة التي كان عليها ساعة الخطيئة. إنه يستطيع أن يعود.

وهذا الفعل: يعود، من أكثر الأفعال امتلاءً بالرجاء.

لأن العودة تعني أن ثمة مسافة قطعها بعيداً، لكنها لا تعني أن الطريق قد اختفى. وكلما قرأنا القصص القرآني بهذا المفتاح ظهرت لنا الشخصيات على نحو مختلف.

لم يعد السؤال فقط: من أخطأ؟

بل: ماذا فعل به الخطأ؟

هل جعله أصلب؟

أم جعله أكثر تواضعاً؟

هل تعلم؟

هل راجع نفسه؟

هل أصر؟

هل اخترع لتبرير سقوطه فلسفة كاملة؟

أم امتلك شجاعة الاعتراف؟

وهنا تبدأ الفروق الحقيقية بين الناس.

فليس الجميع سواء لأنهم أخطؤوا، كما أنهم ليسوا سواء لأنهم أحسنوا.

قد يرتكب رجلان الخطيئة نفسها، ثم يفترقان بعدها اقترافاً شاسعاً.

أحدهما يجعلها بداية هبوط طويل؛ يبررها، ثم يكررها، ثم يدافع عنها، ثم يحتاج لكي يحيي صورته أمام نفسه إلى إنكار الحق كله.

والآخر ترتج عليه روحه من الداخل؛ يرى نفسه على نحو لم يره من قبل، ويتألم لا لأن صورته أمام الناس انكسرت، بل لأن شيئاً بينه وبين الله قد انكسر، فيبدأ من ذلك الموضوع رحلة الرجوع.

الفعل واحد في الظاهر.

لكن الإنسانين بعد الفعل ليسا واحداً.

ولهذا فإن السؤال عن الإنسان لا يُستوفى بسؤال: ماذا فعل؟

بل يحتاج إلى سؤال ثان:

ماذا فعل به ما فعل؟

وهذا سؤال بالغ الأهمية؛ لأن بعض الخطايا تتحول في حياة أصحابها - بعد توبة صادقة - إلى موضع وعي عميق بضعف النفس، وإلى باب خشية، وإلى تواضع يحول بينهم وبين احتقار الناس.

وليس معنى هذا أن الخطيئة خير.

فالشر لا يصير خيراً بمجرد أن الله استخرج منه بعد ذلك خيراً.

لكن من رحمة الله بالإنسان أنه لا يجعل كل سقوط نهاية.

وقد يفهم المرء نفسه بعد السقوط أكثر مما فهمها في زمن الطمأنينة.

فقد يعيش سنوات وهو يظن أنه أقوى مما هو عليه، وأن بعض الذنوب بعيدة عنه، وأن الذين يقعون فيها صنف آخر من البشر؛ حتى تأتي لحظة تكشف له هشاشته.

وحيثُ قد يولد في داخله إنسان أكثر معرفة بنفسه، وأقل غروراً، وأشد افتقاراً إلى ربه.

وهذا من أسرار قوله تعالى في قصة آدم:

﴿فَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾.

إن أول قصة بشرية في القرآن لا تبدأ بإنسان لم يخطئ قط، بل بإنسان أخطأ ثم عرف طريق الرجوع.

وكان الوجود الإنساني منذ بدايته يعلن حقيقة كبرى:

كمال الإنسان ليس في أن يكون غير قابل للسقوط؛ بل في أن يظل قادراً على الرجوع إلى الله بعد السقوط.

وهذا فارق جوهري بين الإنسان والملائكة.

فالملائكة:

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾.

أما الإنسان فقد خلق في ميدان آخر؛ ميدان الإرادة، والصراع، والشهوة، والنسيان، والتذكر، والاستجابة، والعناد، والندم.

ومن هنا يصبح تاريخ الإنسان الأخلاقي أكثر تعقيداً من أن تختصره لحظة واحدة.

وهم «الإنسان الثابت»

نحن نحب التصنيفات السريعة.

إنها توفر علينا مشقة الفهم.

نقول: هذا صالح.

وهذا فاسد.

وهذا كريم.

وهذا بخيل.

وهذا خائن.

وهذا وفيّ.

وقد تصدق الصفة في وقت، لكنها تتحول أحياناً في وعينا إلى سجن.

ننسى أن الإنسان قد يتحرك.

وأن الذي عُرف بالبخل قد تهزه تجربة فيصبح من أكرم الناس.

وأن الذي عرفته في سن العشرين ليس بالضرورة الرجل نفسه في الأربعين.

وأن الذي أخطأ فيك قبل عشر سنوات قد يكون حمل خطأه طوال تلك السنوات حتى أعاد بناء شيء عميق في داخله.

ومشكلة النظرة الجامدة أنها لا تمنع الإنسان من أن يتغير فقط، بل قد ترفض الاعتراف بتغيره بعدما يحدث.

وهذا لون من القسوة.

لأن الإنسان الذي جاهد سنوات للخروج من ماضيه قد يجد أن المجتمع ما يزال يعيده إليه في كل مرة.

كأن الناس يقولون له:

نحن لا نعترف إلا بنسختك التي أساءت.

أما النسخة التي تألمت، وندمت، وتعلبت، وأصلحت، فلا تهمننا.

وهنا تتحول الذاكرة من وسيلة للاعتبار إلى أداة للعقاب.

لكن القرآن يقدم صورة أرحب.

ففيه أناس كانوا على طرف، ثم انتقلوا إلى الطرف الآخر.

وسخرة فرعون مثال صارخ.

دخلوا المشهد بوصفهم أدوات في مشروع فرعون.

قالوا:

﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾.

إنهم يفكرون بمنطق الأجر والقرب من السلطة.

وبعد لحظات يقولون:

﴿أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

أي تحول هذا؟

ليس مجرد تبدل موقف سياسي.

إنه انقلاب في مركز الوجود كله.

كانوا قبل قليل يرجون جائزة فرعون، ثم صار تهديده لهم لا يساوي شيئاً أمام ما

انكشف لهم من الحقيقة.

قالوا:

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

في ساعات قليلة انتقلوا من طلب رضا فرعون إلى الاستهانة بسلطانه.

وإذا أخذنا بلحظة البداية وحدها قلنا: سخرة في خدمة الطاغية.

وإذا أخذنا بلحظة النهاية وحدها قلنا: شهداء إيمان.

لكن القرآن يعرض الطريق بين الصورتين.

وهذا هو موطن العبرة.

فالإنسان ليس فقط ما كان، ولا فقط ما صار، بل الرحلة التي نقلته من هناك إلى هنا.

بين المسؤولية والرحمة

لكن هذا المعنى يحتاج إلى احتراز دقيق.

ففكرة «الإنسان أكبر من خطيئته» يمكن أن تُساء قراءتها إذا تحولت إلى تبرير للخطايا أو

إهدار لحقوق المتضررين.

ليس المقصود أن نقول لمن ظلم الناس: لا بأس، أنت أكبر من ظلمك.

ولا أن نقول لمن خان: المهم أنك لست خيانتك.

ولا أن نستخدم لغة التحول للهروب من تبعات الأفعال.

فالقرآن الذي فتح أبواب التوبة هو نفسه الذي قرر المسؤولية.

وقال:

﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾.

وقال:

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾.

فالتحول الأخلاقي الحقيقي لا يبدأ بإنكار الماضي، بل يبدأ بالوقوف أمامه.

إن الإنسان لا يتحرر من خطيئته بأن يقول إنها لم تكن شيئاً.
بل يتحرر منها حين يعرف أنها كانت شيئاً، ويعرف أنه كان مسؤولاً عنها، ثم يختار ألا
يبقى ذلك الإنسان.

وهذا هو الفرق بين التوبة والتبرير.

التوبة تقول:

لقد فعلت.

التبرير يقول:

لم يكن بيدي.

التوبة تقول:

أخطأت.

التبرير يقول:

أنتم دفعتموني.

التوبة تحمل الإنسان إلى الداخل.

والتبرير يدفع الذنب كله إلى الخارج.

ولهذا كانت لحظة اعتراف إخوة يوسف شديدة الجمال:

﴿وَإِنْ كُنَّا نَخَاطَبُكِ﴾

لم يقولوا: كنا صغاراً.

ولم يقولوا: أبونا فضلك علينا.

ولم يقولوا: الظروف دفعتنا.

مع أن القصة سجلت دوافعهم كلها.

لكن الدافع شيء، والمسؤولية شيء آخر.

ومعرفة السبب لا تعني إسقاط المسؤولية.

وهذه قاعدة شديدة الأهمية في فهم النفس:

أن تفسر الخطأ لا يعني أن تبرره.

قد نفهم لماذا حسد إخوة يوسف أخاهم، لكن فهم الحسد لا يجعل إلقاءه في الحب مقبولاً.

وقد نفهم كيف ضغطت البيئة على إنسان حتى أخطأ، لكن ضغط البيئة لا يحو اختياره.

الفهم يفتح باب الإصلاح.

أما التبرير فيغلقه.

لأن الإنسان لا يستطيع أن يتغير من شيء لا يعترف أصلاً بأنه مسؤوليته.

الخطأ الذي يتحول إلى هوية

من أخطر ما يحدث للإنسان بعد الذنب أن ينتقل من قوله:

«لقد أخطأت»

إلى قوله في أعماقه:

«أنا هكذا».

هذه العبارة تبدو استسلاماً، لكنها قد تكون وسيلة مراوغة من وسائل النفس.

فإذا أقنعت نفسك بأنك «هكذا»، لم يعد مطلوباً منك أن تتغير.

يصير الطبع حجة.

ويصير الماضي قدراً.

ويتحول التكرار إلى تعريف.

لكن القرآن يرفض هذه الحتمية الأخلاقية.

إنه ينادي الإنسان إلى فعل:

﴿تُوبُوا﴾.

والتوبة في أصلها حركة.

رجوع.

تغيير اتجاه.

اعتراف بأن الطريق الذي أسير فيه ليس هو الطريق الذي ينبغي أن أكمّله.

ولهذا لا تكون أخطر الخطايا هي التي تجعل الإنسان يبكي، بل قد تكون الأخطر تلك

التي يكف بعدها عن الإحساس بأنه يستطيع أن يكون شيئاً آخر.

فالبأس من التغير قد يصبح شريكاً في استمرار الخطيئة.

ومن هنا يأتي قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

لاحظ التعبير:

﴿أَسْرِفُوا﴾.

ليس خطأ عابراً فحسب.

إنه إسراف.

تجاوز.

تكرار.

امتداد في الذنب.

ومع ذلك لم يقل: يا من لم يخطئوا.

بل ناداهم وهم محملون بتاريخ كامل:

﴿يَا عِبَادِي﴾.

يا لها من نسبة.

لم تطردهم الخطيئة من معنى العبودية، ولم تجعل الطريق إليهم مغلقاً.

ثم جاء النهي:

﴿لَا تَقْنَطُوا﴾.

لأن القنوط قد يكون هو السجن الأخير الذي تبنيه الخطيئة حول صاحبها.

من أنت بعد أن عرفت الحقيقة؟

ربما لا تكشف المواقف الإنسان فقط، بل تصنعه كذلك.

فالخنة التي تكشف الجبن قد تصبح فرصة لصناعة الشجاعة.

والخطيئة التي تكشف موضع الضعف قد تصبح بداية حراسة ذلك الموضع.

والخسارة التي تكشف تعلق القلب قد تبدأ منها رحلة التحرر.
ولهذا فإن الإنسان بعد المعرفة ليس معذوراً بالقدر نفسه الذي كان عليه قبلها.
حين ترى نفسك مرةً بوضوح، يتغير كل شيء..
وحين تعرف الباب الذي يدخل منه عليك الهوى، لا تعود بريئاً من مسؤوليّة حراسته.
وهكذا يتحول الوعي إلى تكليف جديد.
وقد يكون هذا أحد أسرار التحولات الكبرى في القصص القرآني: أن الشخصية تُوضَع
خِفاءً أمام الحقيقة.
السحرة أمام آية موسى.
بلقيس أمام صرح سليمان.
إخوة يوسف أمام أخيم الذي صار عزيز مصر.
امرأة العزيز أمام اللحظة التي لم يعد فيها للكذب مكان.
وفي كل مرة يظهر السؤال ذاته:
ماذا يفعل الإنسان حين تسقط الرواية التي كان يحتتمي بها؟
هنا يولد الإنسان الجديد، أو يموت إمكان ولادته.
فبعض الناس حين تنكشف لهم الحقيقة يعودون إليها.
وبعضهم يضاعفون الكذب حتى يحموا صورتهم القديمة.
والفرق بين الاثنين ليس في قوة الدليل وحدها.
بل في استعداد النفس لأن تخسر وهما كي تريح الحقيقة.

إن الإنسان أكبر من لحظة.

لكنه لا يصير أكبر منها تلقائياً.

يصير أكبر منها حين يفهمها، ويتحمل مسؤوليتها، ويتجاوزها، ويغير الطريق الذي أنتجها.

أما من يكرر خطيئته، ويبررها، ويغذي أسبابها، ثم يطلب أن ننظر إليه بمعزل عنها، فإنه لم يتحول بعد.

فالتحول ليس أمنية.

إنه انتقال.

وليس كلاً ما عن الماضي.

إنه بناء جديد للحاضر.

ومن هنا يبدأ سؤال الكتاب كله:

إذا كان الإنسان قادراً على التحول، فكيف تبدأ الخطيئة أصلاً؟

كيف ينتقل شعور صغير خفي في القلب إلى قرار؟

وكيف تتحول الغيرة مثلاً إلى فكرة، ثم تتحول الفكرة إلى خطوة، ثم تستحيل الخطوة إلى

فعل يستطيع الإنسان بعده أن يعود إلى بيته وكأن شيئاً لم يحدث؟

هذا ما ستراه في إخوة يوسف.

فالجريمة التي انتهت عند الجب لم تبدأ عند الجب.

لقد بدأت قبل ذلك بكثير، في موضع لا يراه أحد:

داخل القلب.

الفصل الثاني

الخطيئة الأولى: كيف يبدأ الانحراف صغيراً؟

لا تبدأ أكثر الخطايا الكبرى في صورتها الكبرى. نادراً ما ينهض الإنسان صباحاً وقد اتخذ قراراً نهائياً بأن يصير ظالماً أو خائناً أو حسوداً أو قاسياً. غالباً ما يبدأ الأمر بإحساس صغير يمر في القلب، ثم يُترك بلا مراجعة، ثم يجد لنفسه تفسيراً، ثم يبحث عن مبرر، ثم يصنع حول نفسه رواية كاملة تمنحه شيئاً من الراحة الأخلاقية، حتى يصبح ما كان يستبجه في البداية ممكناً، ثم مقبولاً، ثم - أحياناً - ضرورياً في نظر صاحبه. ولهذا فإن أخطر لحظات الخطيئة ليست لحظة تنفيذها دائماً، بل اللحظة التي استطاع فيها الإنسان أول مرة أن يعيد تسمية الشر باسم آخر يخفف وطأته على ضميره.

في قصة يوسف لا تبدأ المأساة عند الحب، بل قبل ذلك بكثير، حين قال إخوة يوسف: ﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. هذه الجملة هي المنبع النفسي لكل ما سيأتي بعدها؛ لأنها تكشف أولاً شعوراً بالمقارنة، ثم حكماً على توزيع المحبة، ثم انتقالاً من وصف إحساسهم إلى إدانة أبيهم نفسه. لم يقولوا: نحن نتألم من قرب يوسف من أبنائنا. ولو قالوها لكان ذلك بداية وعي ربما أنقذهم من النهاية التي وصلوا إليها. لكنهم قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. وهنا تتحول المشكلة من داخل النفس إلى خارجها، ويبدأ الإنسان في صناعة خصم كي لا يضطر إلى مواجهة اضطرابه الداخلي.

من طبيعة النفس حين نتألم من المقارنة أن تبحث عن تفسير يحفظ صورتها أمام نفسها. قليل من الناس يستطيعون أن يقولوا بصدق: أنا أغار. أنا أحسد. أنا أتألم لأن غيري محبوب أكثر مني. هذه العبارات ثقيلة على النفس؛ لأنها تكشف ضعفاً لا تحب الاعتراف به. ولهذا يكون أسهل عليها أن تقول: الآخر لا يستحق ما ناله، أو إن الذي

فضّله مخطئ، أو إن النظام نفسه غير عادل، أو إن هناك خللاً ينبغي إصلاحه. وهكذا ينتقل الشعور من كونه أزمة داخلية إلى كونه - في تصور صاحبه - قضية عدالة تحتاج إلى معالجة. وفي اللحظة التي ينجح الإنسان فيها في تحويل حسده إلى قضية أخلاقية، يصبح قادراً على ممارسة الظلم وهو يظن أنه يعيد التوازن.

وهذا بالضبط ما نراه في إخوة يوسف. لم تكن الكارثة في أنهم شعروا بالغيرة وحدها؛ فالغيرة شعور بشري قد يرد القلب ثم يرده صاحبه. الكارثة أن الغيرة لم تُراجع، بل نُظمت فكرياً، ثم بنى حولها تفسير متماسك في نظرهم: نحن عصابة، ونحن الأكثر عدداً والأقدر على خدمة أبيهم، ومع ذلك يوسف وأخوه أحب إليه منا، إذن ثمة خلل في تقدير الأب، وإذن يوسف هو محور هذا الخلل، فإذا أُزيل يوسف عاد وجه الأب إلينا. ومن هنا قالوا: ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾.

تأمل العبارة: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾. إنها تكشف أن الجريمة نفسها قد قُدمت في داخلهم بوصفها وسيلة لاستعادة شيء يشعرون أنه حُرِموا منه. لم تعد المسألة عندهم: لنظلم يوسف، بل: لنستعيد أبانا. وهذا التحول في اللغة الداخلية بالغ الخطورة؛ لأن الإنسان حين يغيّر اسم الفعل يتغير شعوره نحوه. القتل يصبح «إزالة عائق»، والخيانة تصبح «حماية مصلحة»، والافتراء يصبح «دفاعاً عن النفس»، والانتقام يصبح «استرداد حق»، والظلم يصبح «تصحيحاً للميزان». وهكذا لا يحتاج الشر دائماً إلى ضمير ميت، بل قد يحتاج فقط إلى قاموس جديد.

ومن هنا نفهم أن السقوط الأخلاقي لا يبدأ حين يضعف الضمير، بل حين يُستدرج الضمير نفسه ليصبح شريكاً في التبرير. فالإنسان لا يحتمل طويلاً أن يرى نفسه شريراً، ولهذا تعمل النفس على إنتاج تفسير يخفف التناقض بينها وبين ما تريد أن تفعله. وكلما كان الإنسان أذكى في صناعة الحجج كان خطره على نفسه أشد؛ لأنه قد يمنح هواه بنية

فكرية تبدو في ظاهرها معقولة. لهذا قد يكون الجهل بالذات أخطر من الجهل بالأشياء، لأن الإنسان قد يعرف كثيراً من الحقائق، لكنه يبقى عاجزاً عن رؤية الحيلة التي يمارسها قلبه حين يشتبي شيئاً ثم يبحث لعشقه عن برهان.

والقرآن هنا لا يكتفي بأن يخبرنا أنهم حسدوا يوسف، بل يكشف آلية بناء الخطيئة نفسها. تبدأ بالمقارنة: يوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا. ثم تأتي المبالغة في توصيف الذات: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾. وكأن الكثرة ينبغي أن تنتج بالضرورة مزيداً من الحب، وكأن القيمة العاطفية تقاس بالعدد والقوة والمنفعة. ثم يأتي الحكم على الأب: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ثم يأتي تحديد سبب المشكلة: وجود يوسف. ثم يأتي اقتراح الحل: قتله أو إبعاده. ثم يأتي الهدف المعلن: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾. ثم - وهذه من أكثر اللحظات دلالة - يأتي ترميم الصورة الأخلاقية بعد الجريمة: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

هنا تبلغ النفس ذروة المراوغة مع نفسها. إنها لا تقول: سنختار الشر ونرضى بأن نكون أشراً. بل تقول: سنرتكب هذه الخطيئة أولاً، ثم نصير بعدها صالحين. كأن الصلاح موعد مؤجل إلى ما بعد تحقيق الرغبة. وهذه واحدة من أخطر الحيل النفسية: أن يعطي الإنسان نفسه رخصة مؤقتة للانحراف باسم مستقبل أخلاقي يعد به نفسه. يقول: هذه المرة فقط، ثم أتوقف. أحقق ما أريد، ثم أعود. أنتقم، ثم أصفو. أتنازل عن المبدأ في هذه المرحلة، ثم أستعيده حين تستقر الأمور. والحقيقة أن الإنسان لا يضمن أبداً أن يعود بعد أن يدرّب نفسه على تجاوز الخط الأحرر. فالخطيئة التي نقول إنها استثناء قد تعيد تشكيلنا حتى يصبح الاستثناء قاعدة.

وتكشف عبارة ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ عن مفارقة شديدة العمق؛ فالإنسان يستطيع أن يعرف الصلاح، ويحب صورته، ويرغب في أن ينتمي إليه، ثم يخطط في

الوقت نفسه لفعل يناقضه. ليست المشكلة دائماً في غياب المعرفة، بل في ترتيب الأولويات داخل النفس. قد يعرف الإنسان الحق، لكنه يريد شيئاً آخر أكثر. وقد لا ينكر الخير، لكنه يريد تأجيله إلى ما بعد إشباع رغبته. ومن هنا لا يكون الصراع الأخلاقي دائماً بين من يعرف ومن لا يعرف، بل بين معرفتين في داخل الإنسان: معرفة بما ينبغي أن يكون، ومعرفة بما يشتهي أن يكون.

وفي هذه المنطقة بالذات تتكون الخطيئة الكبيرة من تراكم تنازلات صغيرة. فالضمير لا يهزم عادة في معركة واحدة، بل يُستنزف شيئاً فشيئاً. في البداية يعترض، ثم يُقنع، ثم يسكت، ثم يعتاد، ثم ربما صار بعد ذلك يدافع عن الشيء الذي كان يستنكره. ولهذا فإن أول مقاومة للخطيئة لا تكون عند اليد التي تنفذ، بل عند الفكرة التي تبدأ في إعادة ترتيب المعاني داخل الرأس. لو أن إخوة يوسف توقفوا عند أول إحساس وقالوا: لماذا يؤلنا حب أينا ليوسف؟ ماذا فينا نحن؟ هل تحول احتياجنا للمحبة إلى حسد؟ هل نحمل يوسف مسؤولية شعور لم يصنعه؟ لربما أخذت القصة طريقاً آخر. لكن النفس التي لا تسأل نفسها تتحول أسئلتها كلها إلى اتهامات للآخرين.

وهنا تكمن واحدة من القواعد الكبرى في فهم الإنسان: أن أكثر الناس خطراً على نفسه هو من لا يشك أبداً في تفسيره الأول لمشاعره. قد يغضب فيقول فوراً: لقد أهانني. قد يغار فيقول: هذا الشخص يتعمد إقصائي. قد يفشل فيقول: حوربت. قد يُرفض فيقول: لم يعرفوا قيمتي. وربما كان بعض ذلك صحيحاً، لكن الخطورة في أن الإنسان حين لا يفتح احتمالاً لخطئه يغلق الباب الذي يدخل منه التصحيح. وما أجمل أن يتعلم المرء أن يسأل نفسه قبل أن يدين العالم: هل يمكن أن تكون المشكلة في طريقي في رؤية الأمر؟

إن إخوة يوسف لم يروا في البداية إلا شيئاً واحداً: يوسف أخذ مساحة من قلب أبيهم نريدها لأنفسنا. ولم يسألوا: لماذا يحب أبونا يوسف؟ هل يعني حبه له أنه لا يحبنا؟ وهل المحبة أصلاً كمية مادية إذا أخذ منها واحد نقص نصيب الآخر؟ إن كثيراً من الغيرة يولد من هذا الوهم: أن خير الآخر ينقص من خيري، وأن نجاحه يسحب من رصيدي، وأن محبته عند الناس تهدد مكاني، وأن الضوء لا يتسع لاثنتين. ومن هنا يبدأ الإنسان في التعامل مع الآخر لا باعتباره إنساناً له رزقه ومساحته، بل باعتباره مزاحماً ينبغي أن تثقلص حصته حتى تكبر حصتي.

وحيث تستقر هذه الرؤية في القلب تبدأ عملية نزع الإنسانية عن الخصم. هذه خطوة خطيرة في طريق الأذى؛ لأن الإنسان يصعب عليه أن يؤذي من يراه كامل الإنسانية في وعيه. ولذلك يحتاج إلى تقليل قيمته أولاً، أو اختزاله في صفة يكرهها، أو النظر إليه بوصفه مشكلة أكثر من كونه شخصاً. وربما حدث شيء من هذا في داخل إخوة يوسف؛ فلم يعودوا ينظرون إليه كأخ صغير، بل كمرکز للأزمة التي يعانون منها. وحيث يُختزل الإنسان إلى «عقبة»، يصبح التخلص منه أكثر سهولة في الحساب الأخلاقي.

ولذلك فإن عبارة ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ لا تظهر فجأة من فراغ، بل تأتي بعد سلسلة كاملة من إعادة توصيف الواقع. يوسف لم يعد أخاً، بل منافساً. والأب لم يعد أباً يجب أبناءه بطرائق مختلفة، بل صار - في تصورهم - واقعاً في ﴿ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وهم لم يعودوا أصحاب غيرة، بل صاروا - في روايتهم الداخلية - أصحاب حق محروم. ومن هنا يصبح العنف خاتمة منطق داخلي منحرف لا انفجاراً بلا مقدمات.

ومع ذلك يلفت النظر أن واحداً منهم قال: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾. هذه الجملة تكشف أن الجماعة نفسها لم تكن كلمة واحدة في درجة الشر، وأن بقايا من الممانعة الأخلاقية كانت لا تزال حاضرة. لكنه رفض القتل ولم يرفض أصل

الاعتداء. وهذا مهم جداً؛ لأن الضمير قد يساوم أحياناً بدل أن يمنع. يقول: لا تفعل الأسوأ، وافعل ما دونه. وهكذا يحصل الإنسان على قدر من الراحة النفسية لأنه لم يذهب إلى النهاية القصوى، مع أنه ما يزال داخل دائرة الظلم.

وهذه المنطقة الرمادية هي التي يقع فيها أكثر البشر. ليسوا شياطين يريدون أقصى الشر، ولا هم أبرار يرفضون أصل الانحراف، بل يتفاوضون مع الخطأ: إلى أين أستطيع أن أذهب من غير أن أفقد صورتني أمام نفسي؟ وهذا سؤال خطير؛ لأنه يجعل المعيار ليس الحق والباطل، بل المسافة التي يستطيع الضمير تحملها. ومن هنا تبدأ التنازلات: هذا ليس قتلاً، مجرد إبعاد. هذا ليس كذباً كاملاً، مجرد إخفاء جزء من الحقيقة. هذا ليس خيانة، مجرد تصرف اضطراري. وهكذا تتناقص حساسية الروح للأسماء الأصلية للأشياء.

ولذلك فإن من أعظم وسائل النجاة أن نحافظ على أسماء الأفعال كما هي. الظلم ظلم، ولو خرج من شخص مظلوم. والكذب كذب، ولو كان صاحبه يريد مصلحة. والخيانة خيانة، ولو ارتكبت بدعوى الانتقام من خيانة سابقة. والحق لا يتحول باطلاً لأن صاحبه ضعيف، كما أن الباطل لا يتحول حقاً لأن صاحبه يملك قضية عادلة. فإذا ضاعت الأسماء ضاع الميزان، وصار كل إنسان قادراً على صناعة قاموس يبرر به ما يشتهي.

وهذا يفتح لنا معنى آخر في قصة يوسف: أن الخطيئة ليست فقط فساد الفعل، بل فساد الإدراك الذي يسبق الفعل. قبل أن يمد الإنسان يده إلى الباطل، يكون غالباً قد أعاد ترتيب الصورة في ذهنه حتى بدا له الباطل أقل بطلاناً. ولهذا كان إصلاح البصيرة سابقاً على إصلاح السلوك؛ لأن السلوك ثمرة تصور، والفعل ابن معنى، وما لم يراجع الإنسان المعنى الذي أنتج فعله، فقد يمتنع عن الخطأ زمناً ثم يعود إليه في صورة أخرى.

والعجيب أن إخوة يوسف بعد ذلك احتاجوا إلى الكذب على أبيهم، فجاءوا أباهم عشاءً ليكون. وهذا دليل على أن النفس التي بدأت بتبرير الخطأ في داخلها تحتاج بعد ارتكابه إلى صناعة مسرح كامل في الخارج يحفظ الرواية. فالخطيئة لا تبقى وحدها؛ إنها غالباً تحتاج إلى شبكة حماية: كذب يغطيها، ومشهد يدعم الكذب، وتفاصيل تمنحه المصدقية، وربما استدراج عاطفة الضحية نفسها. وهكذا يتحول الذنب الواحد إلى منظومة من الذنوب، لأن كل خطأ يحتاج إلى خطأ آخر يحميه من الانكشاف.

وهذه سنة تكرر في حياة البشر. الكذبة الأولى تحتاج إلى كذبة ثانية لتفسيرها، ثم ثالثة لحماية الثانية. والقرار الظالم يحتاج إلى خطاب يبرره، ثم إلى اتهام من يعترض عليه، ثم إلى إعادة كتابة الوقائع حتى يبدو الاعتراض نفسه جريمة. ولذلك فإن أسهل موضع لوقف الانحدار هو بدايته. كلما تأخر الإنسان احتاج الرجوع إلى شجاعة أكبر، لأنه لا يعود حينئذ من فعل واحد، بل من بناء كامل أقامه لحماية ذلك الفعل.

لكن قصة يوسف لا تتوقف عند هذه اللحظة، وهذا هو الذي يجعلها عظيمة في موضوعنا. فلو انتهت القصة عند الحب لكنت قصة جريمة. لكنها تمتد حتى يصبح المجرمون أنفسهم قادرين في النهاية على رؤية ما عجزوا عن رؤيته في البداية. ومعنى ذلك أن البناء النفسي الذي أنتج الخطيئة قابل للتفكيك، وأن الرواية التي أقامها الإنسان حول نفسه يمكن أن تنهار، وأن الحقيقة قد تتأخر لكنها تستطيع أن تصل إلى الموضع الذي أخفاها عنه الهوى.

ولهذا ينبغي ألا ننظر إلى لحظة السقوط وحدها، بل إلى المسار كله. كيف يتحول الإنسان من قوله: أبي في ضلال مبين، إلى قوله: ﴿وَأَنَا خَاطِئُونَ﴾؟ كيف انتقل من اتهام الخارج إلى الاعتراف بالداخل؟ ما الذي فعله الزمن؟ وما الذي فعلته الحاجة؟ وما

الذي فعلته مواجهة يوسف من جديد؟ وما الذي حدث للنفس حين وجدت نفسها أمام الماضي حياً، واقفاً، قادراً عليها، لكنه لا يشبه الصورة التي حبستها فيه؟ ذلك هو التحول الحقيقي.

فالإنسان لا يتغير فقط حين يتوقف عن الخطأ، بل حين تتغير قصته التي يرويها لنفسه عن الخطأ. حين لا يعود بطل روايته القديمة، ولا يعود هو المظلوم المطلق والآخر هو المذنب المطلق، بل يصبح قادراً على أن يضع نفسه داخل المحكمة التي كان يضع فيها الآخرين وحدهم.

وهنا تبدأ التوبة الفكرية قبل أن تكتمل التوبة الأخلاقية. أن يتغير تفسيرك لنفسك.

أن تسقط المحجج التي كنت تختبئ وراءها.
أن تقول: لم تكن المشكلة كلها هناك.
كان جزء منها هنا.

في قلبي.

في غيبي.

في خوفي.

في رغبتى أن أملك وحدي ما لم يخلق لي وحدي.

وفي تلك اللحظة يبدأ الإنسان بالخروج من سجن خطيئته؛ لأن الخطأ الذي اعترف به صار أقل قدرة على حكمه من الخطأ الذي ما زال يسميه حقاً.

ولهذا فإن السؤال الحقيقي ليس: كيف وصل إخوة يوسف إلى الحب؟

بل: كيف خرج الجب أولاً من داخل نفوسهم قبل أن يلقوا فيه يوسف؟

فالجب الخارجي كان حفرة في الأرض.

أما الجب الأول فكان معنى مظلماً اتسع في القلب حتى صار قادراً على ابتلاع أخ.

ومن هنا ننتقل إلى المرحلة التالية من القصة: إلى السنوات التي لا يخبرنا القرآن بتفاصيلها كلها، لكنها تركت آثارها في النفوس؛ إلى ذلك الزمن الطويل الذي يفصل بين الجريمة والاعتراف، بين الجب ومجلس العزيز، بين إخوة قادرين على إقصاء يوسف، وإخوة يقفون أمامه منكسرين لا يعرفون بعد أنهم أمام الرجل الذي حاولوا محوه من حياتهم.

وهناك سنسأل سؤالاً مختلفاً:

ماذا يفعل الزمن بالإنسان حين يتركه طويلاً مع آثار ما فعل؟

الفصل الثالث

السنوات التي لا نراها: حين يعمل الزمن في أعماق الإنسان

ليست كل التحولات الكبرى مرئية. بعض أهم ما يحدث للإنسان يجري في المناطق التي لا تسجلها الوقائع، ولا يلتقطها السرد لحظة بلحظة، ولا يراها أحد من الخارج. يمضي الزمن هادئاً في الظاهر، لكن النفس لا تبقى ساكنة؛ تترام فيها الخسارات، وبعاد ترتيب الصور، وتضعف تفسيرات قديمة، وتظهر شقوق في يقين كان يبدو صلباً، وقد يستيقظ سؤال دفن طويلاً ثم يعود في لحظة لا يتوقعها صاحبه. ولهذا فإن الزمن في القصص القرآني ليس مجرد مسافة بين حدثين، بل قوة تعمل في الإنسان، تكشفه لنفسه، وتعيد تشكيل علاقته بما فعل، وما فقد، وما ظنه يوماً حقيقة نهائية.

في قصة يوسف ثمة مساحة واسعة من السنوات لا يفصل القرآن تفاصيلها كلها. نعرف الجب، ونعرف القافلة، ونعرف بيت العزيز، والمراودة، والسجن، والرؤيا، ثم نعرف سنوات الخصب والجذب وعودة الإخوة إلى مصر، لكننا لا نعرف ماذا كان يحدث في قلب كل أخ من إخوة يوسف خلال تلك السنين الطويلة. لا نعرف عدد المرات التي عاد فيها المشهد إلى أحدهم، ولا كم مرة التقى نظره بنظر أبيه فشعر بثقل ما أخفاه عنه، ولا كم مرة مرّ بموضع يذكره بأخيه، ولا كم مرة حاول أن يقنع نفسه أن القصة انتهت. لكننا نعرف من النهاية أن شيئاً لم يبق كما كان، وأن الرجال الذين دخلوا القصة وهم يخططون لإبعاد يوسف ليسوا تماماً الرجال الذين وقفوا في نهايتها يعترفون بخطيئتهم. وهنا تتجلى واحدة من خصائص الزمن الأخلاقية: أنه لا يحو الفعل لمجرد أن السنوات مرت. قد يبهت المشهد في الذاكرة، وقد تنشغل الحياة بأحداث جديدة، وقد يبدو للإنسان أنه تجاوز ما مضى، لكن بعض الأفعال لا تختفي لأنها غادرت سطح الوعي. إنها تنزل أعمق، وتصبح جزءاً من البنية الداخلية للنفس، تنتظر لحظة تستدعيها من

جديد. وربما كانت الأخطاء التي لم تُحلّ هي أكثر الأشياء قدرة على العودة، لأنها لا تنتهي بالسكوت عنها. وما لم يواجه الإنسان الحقيقة التي تركها وراءه، فقد يحملها معه ولو قطع آلاف الأميال وبدّل أسماء الأماكن والوجوه.

قد يظن المرء أن النسيان علاج، لكنه ليس كذلك دائماً. أحياناً يكون النسيان مجرد غطاء رقيق فوق جرح لم يلتئم. وهذا ما يجعل الزمن معقداً: فهو قد يكون طيباً إذا رافقه وعي، وقد يكون مخدراً إذا استُخدم للهروب. قد يخفف الانفعال، لكنه لا يصحح المعنى وحده. وقد يبعد الإنسان عن لحظة الخطيئة، لكنه لا يضمن أن يحرره منها. ولذلك لا يكفي أن نقول إن شخصاً أخطأ منذ زمن طويل؛ فالسؤال الأهم: ماذا صنع بذلك الزمن؟ هل استعمله في المراجعة، أم في بناء جدار أكثر سمكاً حول خطئه؟ هل صار أكثر قدرة على الاعتراف، أم أكثر مهارة في النسيان؟

في قصة يوسف يبدو أن السنوات هيأت الإخوة لشيء لم يكونوا مستعدين له في البداية. فالنفوس التي كانت محتشدة بالغيرة والاندفاع وجدت نفسها بعد أعوام أمام ظروف مختلفة كلياً. لم يعودوا شباباً يحسبون أن إزالة يوسف كافية لإعادة ترتيب البيت كما يريدون. دخلت الحياة بثقلها: الحاجة، والجدب، والمسؤولية، والخوف على الأب، والقلق على الأخ الأصغر، والارتحال، والوقوف بين يدي سلطان لا يعرفون أنه يوسف. كل هذه التحولات تنقل الإنسان من عالم الرغبات إلى عالم العواقب. فالخطيئة في لحظتها قد تبدو بسيطة في ذهن صاحبها، لأنه يرى الفعل أكثر مما يرى امتداداته، لكن الزمن يكشف له أن للأفعال ذيولاً طويلة، وأن القرار الذي ينتهي في دقائق قد يفتح مساراً يمتد سنوات.

ولعل من أعمق ما يفعله الزمن بالإنسان أنه يسحب منه وهم السيطرة. إخوة يوسف حين خططوا لإبعاده كانوا يتصرفون كما لو أنهم قادرون على ترتيب النتائج: يبعد

يوسف، يخلو لهم وجه أبيهم، ثم يكونون من بعده قوماً صالحين. كانت الصورة في أذهانهم مرتبة، محددة، سهلة. لكن الواقع لم يخضع لتصميمهم. لم يعد وجه الأب لهم كما تصوروا، ولم يُمح يوسف من الوجود، ولم تغلق الحكاية. بل صار يوسف في مكان لا يتخيلونه، وصاروا هم بعد سنوات محتاجين إلى الرجل الذي ظنوا أنهم تخلصوا منه. وهنا يظهر الفرق بين ما يخططه الإنسان وما يصنعه الله من وراء تديره.

إن الزمن يكسر غرور التخطيط؛ لأنه يري الإنسان كم كان يرى جزءاً صغيراً من الصورة، وكم كانت حساباته محدودة أمام تشابك الأسباب. وهذا الكسر قد يكون باباً للوعي. فالإنسان في لحظة القوة يميل إلى الاعتقاد أنه يعرف ماذا سيحدث، وأنه قادر على إدارة النتائج، لكنه حين يمر بتجارب لا يملك مفاتيحها تبدأ نفسه في التواضع. وربما كان بعض النضج الأخلاقي ابن هذا الإدراك: أن الحياة أكبر من خطتي، وأن نتائج أفعالي لا تخضع بالكامل لإرادتي، وأن ما أظنه نهاية قد يكون بداية لشيء آخر تماماً.

وهذا ما يجعل قصة يوسف ثرية في بنائها؛ لأن ما ظنه الإخوة نهاية ليوسف صار طريقاً إلى صعوده، وما ظنوه وسيلة لاستعادة قرب أبيهم صار سبباً في حزن طويل، وما ظنوه سرّاً دفنوه مع مرور الأيام عاد إليهم من أكثر الأبواب مفاجأة. وكأن الزمن يقول لهم: لا يمكنكم أن تتحكموا في الحقيقة فقط لأنكم أخفيتموها. فالذي يقع في العالم لا يختفي لمجرد أن الفاعلين قرروا ألا يتحدثوا عنه.

ومع مرور السنوات تبدل العلاقة بين الإنسان وفعله. في اللحظة الأولى يكون غالباً مشغولاً بما يريد تحقيقه، ثم بعد ذلك تبدأ النتائج في الكلام. يصبح الفعل الماضي قادراً على مخاطبته من خلال آثاره. فالظالم قد لا يسمع صوت ظلمه لحظة وقوعه، لكنه قد يسمعه حين يرى ما صنعه ذلك الظلم في حياة غيره. والخاص قد لا يشعر بكامل معنى خيائته ساعة ارتكابها، لكنه قد يفهمها حين يصبح هو محتاجاً إلى الثقة. والحاسد قد لا

يدرك حجم ما يفسده الحسد حتى يعيش طويلاً في عالم المقارنة. هكذا يعلم الزمن أحياناً ما عجزت النصيحة عن تعليمه.

لكن الزمن ليس معلماً مضمون النتائج. قد يعلم، وقد يقسي. قد يرقق، وقد يجمد. قد يجعل الإنسان أكثر رحمة، وقد يجعله أكثر مرارة. ولهذا لا ينبغي أن نمنح الزمن فضل التحول وحده. فالزمن يخلق المسافة، لكنه لا يضمن البصيرة. إنما تتحول النفس حين تستعمل تلك المسافة في النظر من جديد. كم من إنسان مرّ عليه عمر كامل وبقي عند فكرته الأولى، وكم من إنسان احتاج إلى لحظة واحدة ليرى نفسه كما لم يرها من قبل.

وهنا تبرز قيمة الأحداث المفصلية؛ فهي لا تصنع كل التغيير من الصفر، لكنها قد تكشف تحولاً كان يتراكم بصمت. أحياناً يعيش الإنسان سنوات لا يستطيع فيها صياغة ما يحدث داخله، ثم تأتي لحظة واحدة تجمع شتات التجربة في معنى واضح. كلمة، خسارة، لقاء، موت، نجاة، اعتراف، أو مواجهة مع الماضي. وفجأة يرى الإنسان التاريخ كله تحت ضوء جديد. وهذه اللحظة تشبه نافذة في غرفة عاش فيها طويلاً دون أن يعرف مدى عتمتها.

هذا ما سيحدث لإخوة يوسف تدريجياً. سيقفون أمامه ولا يعرفونه، بينما يعرفهم هو. وهذه المفارقة وحدها بالغة العمق؛ لأن الماضي يكون حاضراً أمامهم بشخصه، لكنهم لا يرونه. يوسف يعرف القصة كاملة، وهم لا يعرفون إلا نصف المشهد. هم يرون عزيز مصر، وهو يرى إخوة ألقوه في الجب. هم يتعاملون مع حاضره، وهو يحمل الماضي والحاضر معاً. ومن هنا يبدأ الامتحان الحقيقي: ماذا يصنع الإنسان حين يعود الماضي إليه في صورة لم يكن يتوقعها؟

قد يعيش المرء سنوات يظن أن ما مضى انتهى لأنه لم يعد يراه. لكن الماضي لا يحتاج دائماً إلى أن يعود بالشكل نفسه. قد يعود في وجه شخص، أو في موقف مشابه، أو في

شعور مفاجئ، أو في حاجة تضع الإنسان في مكان من ظلمهم سابقاً. وفي مثل هذه اللحظات تصبح الحياة مرآة. لا تعاقب دائماً، لكنها تكشف. ومن أبلغ صور الكشف أن يجد الإنسان نفسه محتاجاً إلى رحمة شخص كان هو يوماً سبباً في ألمه.

وهنا تتغير الموازين. فالذي كان يملك قرار الإقصاء يصبح محتاجاً إلى من أقصي، والذي كان يظن أنه الأقوى يقف في موقع الطلب، والذي كان محور الجريمة يصبح صاحب القدرة على العقوبة أو العفو. وهذه الانقلابات ليست مجرد عناصر تشويق قصصي، بل وسائل للكشف الأخلاقي. لأن الإنسان لا يعرف دائماً حقيقة نفسه حين يملك القوة، لكنه قد يعرفها أكثر حين يحتاج. والحاجة تسقط كثيراً من الأقنعة؛ لأنها تضع المرء أمام حجمه الحقيقي.

في هذا المعنى تصبح المجاعة في قصة يوسف أكثر من خلفية اقتصادية للحدث؛ إنها جزء من المعمل الأخلاقي الذي يعيد ترتيب الشخصيات. فالجذب يجرد الإنسان من فائض الخيارات، ويجعل الضرورة أقوى من الكبرياء، ويدفع الإخوة إلى مصر، ومن مصر إلى يوسف. وكأن الأقدار تسوقهم ببطء نحو النقطة التي هربوا منها سنين. هذه العودة ليست مصادفة سردية، بل اكتمال لمسار بدأ عند الجب ولم ينته بعد.

ولعل من أعمق دروس الحياة أن الإنسان قد يخرج من المكان، لكن المكان لا يخرج منه بسهولة. قد يهرب من خطئه جغرافياً، أو اجتماعياً، أو زمنياً، لكن بعض المسارات تعيده إليه حتى يحسمه أخلاقياً. ولذلك لا يكون الحل في قطع المسافة، بل في تغيير العلاقة مع الماضي. فن لم يصالح الحقيقة في داخله، قد يظل مطاردًا بها حتى لو لم يطارده أحد.

وهذا يعيدنا إلى سؤال التحول: ماذا يفعل الزمن بالألم الذي لم يفهم؟ قد يتحول إلى حكمة، وقد يتحول إلى عقدة. قد يصنع رحمة، وقد يصنع انتقاماً. قد يفتح الإنسان على

غيره، وقد يدفعه إلى إغلاق قلبه. الفارق ليس في الألم نفسه، بل في المعنى الذي يُمنح له. وهذا ما يجعل يوسف شخصية مدهشة في مقابل إخوته؛ فالتجارب التي مر بها كان يمكن أن تنتج إنساناً ممتلئاً بالمرارة، لكنه خرج منها قادراً على العفو. لم يمنح الألم، ولم ينكر الجب ولا السجن، لكنه لم يسمح للماضي أن يحوِّله إلى نسخة أخرى من الذين ظلوه.

وهنا نفهم أن التحول الإنساني ليس خطأ واحداً. إخوة يوسف يتحولون باتجاه الاعتراف، ويوسف يتحول باتجاه النضج والقوة دون أن يفقد صفاءه، ويعقوب يتحرك داخل الحزن دون أن يفقد رجاءه. كل شخصية تشكل بطريقة، وكل واحدة تكشف وجهاً من وجوه الإنسان حين يمر به الزمن. وهذا ما يمنح القصة صدقها الكبير: لا أحد يخرج من التجربة كما دخلها.

وقد يكون من الخطأ أن نسأل فقط: كم سنة مرت؟ السؤال الأهم: ماذا صنعت السنوات؟ بعض السنوات تمر على الجسد فقط، وبعضها تمر على البصيرة. وقد يبلغ الإنسان الستين وهو يحمل وعي العشرين، وقد يمر بسنوات قليلة تغير بناءه كله. العمر الحقيقي ليس عدد الأيام وحده، بل عدد المرات التي اضطر فيها الإنسان إلى إعادة النظر في نفسه.

ولهذا فإن النضج لا يقاس دائماً بالهدوء، ولا بكثرة التجارب، بل بقدرة الإنسان على استخراج معنى من التجربة. قد يعاني شخص طويلاً ولا يتعلم إلا الشكوى، وقد يخرج آخر من تجربة واحدة أكثر فهماً لنفسه وللناس. وقد يخسر إنسان شيئاً فيتحول فقده إلى حسد، ويخسر آخر الشيء نفسه فيتحول فقده إلى بصيرة. ليست الوقائع وحدها هي التي تصنعنا، بل الطريقة التي نفسر بها الوقائع.

وهنا يكمن خطر الرواية الداخلية التي يحملها الإنسان عن نفسه. إذا ظل يقول: أنا الضحية دائماً، فلن يرى أبداً المواضع التي كان فيها ظالماً. وإذا ظل يقول: الناس لا يفهموني، فقد لا يسأل نفسه يوماً إن كان هو الذي يفشل في الفهم. وإذا اعتاد أن ينسب كل خسارة إلى مؤامرة الخارج، فقد يمضي عمره دون أن يكتشف أخطائه الداخلية. والتحول يبدأ غالباً حين ينهار هذا السرد المريح.

إخوة يوسف بدأوا القصة برواية مريحة لهم: أبونا مخطئ، ويوسف مزاحم، ونحن أصحاب حق. لكن السنوات تقودهم تدريجياً إلى رواية أخرى: نحن أخطأنا. والمسافة بين الروائتين هي المسافة بين الطفولة الأخلاقية والنضج الأخلاقي. فالطفل الأخلاقي يرى نفسه مركزاً والآخرين أسباباً، أما الناضج فيستطيع أن يقول: كنت أنا جزءاً من المشكلة. وهذا الاعتراف ليس إذلالاً للنفس، بل تحرير لها. لأن الإنسان ما دام يحتاج إلى إثبات براءته المطلقة سيظل أسيراً للدفاع عن نفسه. أما حين يعترف، فإنه يستعيد القدرة على التغيير. ولهذا يكون الاعتراف بداية حرية لا نهاية كرامة. انجل من الخطأ قد يدفع الإنسان إلى الإنكار، لكن الاعتراف به يفتح الباب أمام تجاوز صورته القديمة.

ومن هنا فإن الزمن لا يخلص الإنسان وحده، لكنه يهيئه للحظة الحقيقة. يضعف اندفاعه، يوسع خبرته، يجعله يرى نتائج ما فعل، وربما يضعه في موقع لم يكن يتخيل يوماً أن يقف فيه. ثم تأتي لحظة المواجهة لتختبر كل ما تراكم داخله: هل ما زال الإنسان نفسه أم صار قادراً على رؤية شيء جديد؟

وهذا هو السؤال الذي يقترب في قصة يوسف. لقد عاد الإخوة إلى المشهد، وعاد الماضي إليهم في صورة رجل قوي لا يعرفون حقيقته، وسوف تتكرر الاختبارات وتندخل الذكريات حتى تظهر العلامة الأوضح على أن شيئاً تغير في داخلهم: موقفهم

من بنيامين، وخوفهم على أبيهم، واستعداد بعضهم لتحمل تبعات لم يكونوا مستعدين لها من قبل.

هناك سنرى أن التحول لا يُعرف بالكلام وحده.

فالإنسان قد يقول إنه تغير، لكن الموقف الشبيه هو الذي يكشف صدق دعواه.

وهذا هو الفصل التالي من الرحلة:

حين يعيد الله الامتحان في صورة جديدة، هل نكرر أنفسنا أم نختار هذه المرة اختياريًا آخر؟

الفصل الرابع

الامتحان المتكرر: حين تعود الخطيئة في صورة جديدة

من أصدق الطرق التي ينكشف بها تحول الإنسان أن يعود إليه الامتحان القديم في صورة جديدة. فالكلمات تستطيع أن تتغير بسهولة، والمشاعر قد تضلل صاحبها، والإنسان قد يظن أنه صار شخصاً آخر لمجرد أن الزمن ابتعد به عن لحظة خطئه، لكن الحقيقة تظهر حين يعود إلى الموقف نفسه تقريباً: هل يستجيب بالطريقة القديمة، أم أن شيئاً جوهرياً قد تغير فيه؟ ولهذا فإن إعادة الامتحان ليست تكراراً للحدث، بل كشفٌ لمقدار ما جرى داخل النفس بين المرة الأولى والثانية.

في قصة يوسف لا يكتفي القرآن بأن يخبرنا في النهاية أن الإخوة اعترفوا بخطيئتهم، بل يعرض قبل ذلك سلسلة من المواقف التي توحى بأن البناء النفسي القديم قد بدأ يتصدع. وأوضح هذه المواقف ما جرى مع بنيامين. فثمة تشابه لافت بين يوسف وبنيامين؛ كلاهما قريب من قلب يعقوب، وكلاهما أخ لأولئك الرجال الذين حملوا في شبابه شعوراً بالغيرة من خصوصية العلاقة بين الأب ويوسف وأخيه. ولو لم يتغير شيء في داخلهم، لكان من الممكن أن تتكرر القصة نفسها: أخ محبوب، وأب متعلق به، وإخوة يجدون في ذلك سبباً للضييق. لكن الذي نراه لاحقاً مختلف.

حين طلب يوسف منهم أن يأتوه بأخيهم من أبيهم، دخلوا مرة أخرى في دائرة العهد والخوف على ثقة أبيهم. وكانت ذاكرة يوسف حاضرة بقوة في جواب يعقوب: ﴿هَلْ أَمْنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾. هذه الجملة أعادت الماضي كله في لحظة. لم يمت الجرح عند الأب، ولم تمح السنوات أثر الفقد، والإخوة يقفون الآن أمام نتيجة فعلهم القديم لا باعتبارها ذكرى غسب، بل باعتبارها عاملاً حياً في الحاضر. ثقة أبيهم بهم لم تعد بريئة كما كانت، والماضي صار حاضراً في كل عهد جديد.

وهنا نرى أحد أثقل آثار الخطيئة: أن التوبة قد تُصلح الإنسان، لكن بعض آثار الفعل تحتاج زمناً أطول لكي تلتئم. فقد يندم الإنسان، ويتغير، ويصدق في رجوعه، لكن الذي آذاه لا يستطيع دائماً أن يستعيد الثقة فوراً. وهذا ينبغي أن يفهم بعمق؛ لأن التوبة لا تعني مطالبة الآخرين بنسيان آثار الجرح بالسرعة نفسها التي يريدها التائب. هناك فرق بين أن يغفر الله للإنسان وبين أن تعود العلاقات الإنسانية في اللحظة نفسها إلى صورتها الأولى. الثقة بناء، وإذا هُدم احتاج إلى إعادة بناء، لا إلى مجرد إعلان.

ومع ذلك يبدو أن الإخوة هذه المرة أكثر إدراكاً لمسؤولية العهد. لم يعودوا داخل اندفاع الشباب نفسه، بل داخل عبء التجربة. وحين وقع أمر بنيامين وأتهم بالسرقة، لم يكن المشهد تكراراً لقصة يوسف، بل اختباراً جديداً لما بقي فيهم وما تغير.

هنا تظهر آثار القديم على نحو معقد. فقد قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. وهذه العبارة تكشف أن الذاكرة القديمة لم تُشَفَ تماماً، وأن شيئاً من الفصل النفسي بين «نحن» و«يوسف وأخيه» ما زال حاضراً. فالإنسان لا يتحول دفعة واحدة دائماً. قد يتغير في اتجاه، وتبقى فيه بقايا من تكوينه السابق. وقد يصير أفضل مما كان من غير أن يصير كاملاً. وهذه نقطة بالغة الصدق في رسم الشخصية؛ لأن التحول الحقيقي في البشر لا يشبه انقلاب مفتاح كهربائي من حال إلى حال، بل هو غالباً صراع طويل بين الجديد الذي يتكون والقديم الذي لم يمت تماماً.

وهذا يجعل قصة يوسف أعمق من السرد الذي يقسم الناس إلى شخصيات تغيرت بالكامل وشخصيات لم تتغير قط. الإخوة هنا لم يصلوا بعد إلى خاتمة الرحلة. بعض الرواسب باقية، وبعض التحيزات القديمة ما تزال تنطق في لحظة الضغط، لكن شيئاً آخر يظهر في موضع أشد أهمية: أنهم لا يريدون أن يعودوا إلى أبيهم وقد فقدوا بنيامين كما فقدوا يوسف.

وهنا يبرز الأخ الأكبر، أو كبيرهم، قائلاً: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي﴾. هذه الجملة علامة مهمة في مسار التحول؛ لأنها للمرة الأولى تجعل فعلهم القديم مرجعاً أخلاقياً يحكم سلوكهم الجديد. لم يعد يوسف مجرد قصة مخفية، بل صار اسمه حاضراً في محاسبة النفس: ﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾. الماضي هنا لم يعد شيئاً يُدفن، بل شيئاً يُستدعى لمنع تكراره.

وهذه لحظة فارقة في نضج الإنسان: أن يتحول خطؤه القديم من عار يريد نسيانه إلى معرفة يستعملها حتى لا يسقط مرة أخرى. هناك فرق كبير بين من يتذكر خطيئته لكي يجلد نفسه، ومن يتذكرها لكي يحرس موضع ضعفه. الندم الذي لا ينتج وعياً قد يتحول إلى عبء عقيم، أما الندم الذي يكشف للإنسان كيف سقط في المرة الأولى فيصبح جزءاً من قوته الجديدة. عندئذ لا يعود الماضي مجرد جرح، بل يصير بصيرة.

وهنا نفهم أن التغيير الحقيقي لا يعني محو الذاكرة، بل إعادة توظيفها. فالإنسان الذي تاب من خطأ لا يحتاج أن يعيش بلا ماضٍ، بل أن يجعل ماضيه معلماً لا سيّداً. يتذكره بالقدر الذي يحبه، لا بالقدر الذي يشله. ويقرأه ليعرف من أين دخل عليه الهوى، لا ليقنع نفسه بأنه محكوم إلى الأبد بما كان.

إن أخا يوسف الذي يقول الآن: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ لا يتصرف كما تصرف الرجال الذين رجعوا يوماً إلى أبيهم عشاءً يبكون وهم يحملون قيصاً بدم كذب. هناك في المشهد القديم كانوا يعودون وفي أيديهم رواية مصنوعة للتخلص من تبعات ما فعلوا، أما هنا فواحد منهم يرفض العودة أصلاً لأنه لا يستطيع أن يواجه أباه بخسارة جديدة. وهذه المسافة ليست صغيرة.

ثمّة تحول من الهرب من المسؤولية إلى حملها.

وهذه إحدى أقوى علامات النضج الأخلاقي. الطفل فينا يريد أن ينجو من العقوبة، أما الإنسان الناضج فيريد أن يكون أهلاً للأمانة. في المرحلة الأولى نسأل: كيف أخرج من الموقف بأقل خسارة؟ وفي المرحلة الثانية نسأل: ماذا يقتضي الحق مني ولو دفعت الثمن؟ ومن هنا يتبين أن التغيير لا يقاس فقط بما ترك الإنسان من أفعال سيئة، بل بما صار مستعداً لتحمله من أجل ألا يعيد إنتاجها.

والأخ الأكبر هنا لا يستطيع تغيير القرار الذي صدر بحق بنيامين، لكنه يستطيع أن يحدد موقفه هو. وهذا أيضاً درس مهم: الإنسان لا يملك دائماً إصلاح كل ما يقع حوله، لكنه يملك تحديد موقعه الأخلاقي منه. قد تعجز عن تغيير النتيجة، لكنك لا تعجز عن رفض الهروب من مسؤوليتك.

ولعل هذا ما يفعله الوعي حين ينضح: يحوّل السؤال من «ما الذي سيحدث؟» إلى «كيف ينبغي أن أكون أنا أمام ما يحدث؟». الأول سؤال النتائج، والثاني سؤال الموقف. وليس الإنسان مسؤولاً عن كل النتائج، لكنه مسؤول عن موضعه منها.

وحين عاد الباقون إلى أبيهم، لم يستطيعوا هذه المرة أن يكتفوا بصناعة قصة كما فعلوا سابقاً. قالوا: ﴿يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾. وقد بقي في كلامهم ما يحتاج إلى تأمل، لكن الموقف مختلف عن الكذب الصريح الذي صاحب قيص يوسف. هم الآن يروون ما شهدوه، ويقرون بحدود معرفتهم: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾.

والفارق بين الإنسان القديم والجديد قد يظهر أحياناً في أمر صغير كهذا: هل ما زال مستعداً لصناعة واقع كامل من أجل حماية نفسه، أم صار قادراً على الاعتراف بما يعلم وما لا يعلم؟

إن الصدق لا يعني أن الإنسان يملك الحقيقة كلها، بل يعني أن يتوقف حيث تنتهي معرفته. وما أكثر الخطايا التي تبدأ حين يملأ الإنسان فراغ الجهل بادعاء، ثم يبني على ذلك الادعاء حكماً، ثم يبني على الحكم موقفاً، ثم يدافع عن الموقف كأنه حقيقة يقينية.

ثمة قاعدة عميقة في التحول الإنساني تقول إن الله قد يعيد الإنسان إلى الموضع الذي فشل فيه، لا لينكسر مرة أخرى، بل ليظهر له أن بإمكانه هذه المرة أن يختار على نحو مختلف. وربما لهذا تتكرر في حياة بعض الناس أنماط متشابهة: سلطة جديدة بعد أن أساءوا استعمال سلطة سابقة، علاقة جديدة بعد أن أفسدوا قديمة، ثقة جديدة بعد أن خانوا ثقة، فرصة ثانية بعد أن أضاعوا الأولى. ليست الفرصة الثانية مجرد إعادة لما مضى، بل امتحان ملدى تعلم الإنسان من نفسه.

ولهذا لا تكون الفرصة الثانية امتيازاً مجانياً، بل مسؤولية مضاعفة. فمن عرف موضع ضعفه ثم عاد إليه لم يعد يملك براءة الجهل الأولى. ولذلك فإن أجمل ما في الإنسان المتغير ليس أنه لم يعد يملك قابلية السقوط، بل أنه صار يعرف تضاريس سقوطه. يعرف الطريق الذي يبدأ منه.

يعرف العبارات التي كانت نفسه تخدعه بها.

يعرف كيف يحول الحسد إلى دعوى حق، والغضب إلى عدالة، والهوى إلى ضرورة.

وحين يعرف ذلك يصبح أكثر حذراً من نفسه.

فالتجربة الأخلاقية ليست معرفة الآخرين فقط، بل معرفة الإنسان بالحيل التي يمارسها قلبه عليه.

وهذا ما يمنح التوبة العميقة تواضعاً خاصاً. فالتغير حقاً لا يخرج من ماضيه مزهواً بطهارته الجديدة، بل أكثر خوفاً من نفسه؛ لأنه رأى منها ما لم يكن يظن أنه قادر

عليه. إنه لا يقول: أنا الآن أفضل من أولئك الذين يخطئون، بل يعرف أنه لولا لطف الله والمجاهدة واليقظة فقد يعود إلى الموضع نفسه.

وهكذا تتحول الخطيئة التي أذلته يوماً إلى معرفة تمنعه من الكبر.

وفي قصة يوسف يظهر بعد ذلك اختبار أشد: يشتد الأمر على يعقوب حتى يقول: ﴿يَا أَسْفَى عَلَى يَوْسُفَ﴾، وتبيض عيناه من الحزن، ويقف الأبناء مرة أخرى أمام ألم أبيهم. هذه المرة لا يستطيعون الادعاء بأن الحزن لم يعد يعينهم. إنهم يعيشون أمام الأثر الطويل لفعل قديم. وحين يقول يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾، فإن القصة تفتح أمامهم معنى لم يفهموه في شبابهم: أن الإنسان قد يحمل حزناً لعقود لأن فعلاً قام به آخرون في دقائق غير مجرى حياته.

وهذه من أشد الحقائق الأخلاقية التي ينبغي أن يتعلمها الإنسان: أن مدة الفعل لا تحدد مدة أثره. قد تستغرق كلمة ثواني وتبقى في نفس إنسان سنوات. وقد يقع ظلم في يوم واحد ثم يحتاج صاحبه عمراً ليتعافى منه. وقد تكون لحظة الأنانية عند شخص بداية فصل كامل من الألم عند آخر. ولهذا فإن المسؤولية لا تقاس فقط بما قصده الفاعل، بل ينبغي أن يرى أيضاً ما استطاع فعله في حياة غيره.

وربما لم ير إخوة يوسف يوم ألقوه في الجب كل هذا المستقبل. لم يروا الشيخ الذي سيبيكي حتى تبيض عيناه، ولم يروا أنفسهم بعد سنين يجوبون الأرض بحثاً عن الطعام، ولم يروا يوسف على خزائن مصر. رأوا لحظة واحدة فقط: نريد أن يخلو لنا وجه أينا. وهذه ضيقة النظر التي تصاحب الهوى؛ إنه يضغط العالم كله في الحاجة العاجلة، ويجعل المستقبل غائماً أمام الرغبة الحاضرة.

ومن علامات النضج أن تسع عدسة الإنسان.

أن يتعلم سؤال العواقب.

ليس فقط: ماذا أريد الآن؟

بل: ماذا قد يصنع هذا في نفسي؟ ماذا يصنع في غيري؟ ماذا لو امتدت النتيجة سنوات؟ ماذا لو لم أستطع إصلاح ما أكسره بسهولة؟
هذا الوعي بالعواقب لا يلغي الجراءة، لكنه يجعل الاختيار أكثر مسؤولية.

ثم يأتي المشهد الذي يقترب فيه الإخوة من الاعتراف الكامل، بعدما أعادهم يعقوب إلى مصر بقوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾. عاد اسم يوسف إلى الواجهة مرة أخرى. لم يعد ذكره مجرد ماض بعيد، بل صار موضوع بحث حي. وكأن الحقيقة التي حاولوا ذات يوم إخراجها من البيت تعود الآن لتقودهم بنفسها إلى النهاية.

وحين دخلوا على يوسف قالوا: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾.

تأمل المسافة بين أول القصة وهذا الموضع.

في البداية كانوا يقولون: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾. القوة جزء من تعريفهم لأنفسهم، وعددهم حجة في شعورهم بالاستحقاق.

أما الآن فيقولون: ﴿مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾، و﴿بِضَاعَةٍ مُرْجَاةٍ﴾، و﴿تَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾. من العصبية إلى الحاجة.

من الشعور بالاستحقاق إلى طلب الفضل.

من محاولة التحكم في وجه الأب إلى الوقوف على باب رجل مجهول يرجون إحسانه.
إن الحياة أعادت ترتيب مواقعهم بالكامل.

وقد تكون هذه واحدة من وسائل النضج التي لا نتحدث عنها كثيراً: العجز. ليست القوة وحدها التي تربي الإنسان؛ أحياناً العجز يفعل ما لا تستطيع القوة أن تفعله. حين ينفد رصيد السيطرة، ويسقط وهم الاستغناء، ويضطر الإنسان إلى الطلب، قد يعرف نفسه بطريقة لم يكن قادراً عليها وهو في موضع القدرة.

وليس كل عجز يطهر النفس، كما قلنا في المحنة، لكنه قد يكسر فيها ذلك الجزء الذي كان يرى نفسه مكثفياً بذاته. ومن هذا الانكسار قد تدخل الحقيقة.

وحينها يقول يوسف:

﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾.

وهنا نتوقف الأزمنة كلها في نقطة واحدة.

الجب.

السنوات.

السفر.

الجوع.

الأب الحزين.

الأخ المفقود.

عزيز مصر.

كل الخيوط تلتقي في سؤال واحد:

هل علمتم ما فعلتم؟

ليس: هل تذكرون؟

بل: هل علمتم؟

وهناك فرق عميق بين الذاكرة والمعرفة. قد يتذكر الإنسان ما فعل سنوات، لكنه لا يعلم حقيقته بعد. يرى الحدث، ولا يرى معناه. يتذكر كلماته، ولا يدرك ماذا صنعت. يعرف الوقائع، ولا يعرف نفسه فيها.

وقد تكون التوبة في بعض أعمق صورها انتقالاً من تذكر الخطيئة إلى معرفة الخطيئة. أن تعرف ماذا فعلت حقاً.

أن تراها من خارج رغبتك التي بررتها.

أن تراها بعين من تأذى بها.

أن تراها بعد أن تسقط الحاجة إلى الدفاع عن صورتك.

عند ذلك يصبح الماضي مختلفاً، مع أن تفاصيله لم تتغير. وهنا يتهيأ الإنسان للاعتراف.

الاعتراف الذي لا يقول فقط: وقع شيء سيئ.

بل يقول:

أنا كنت مخطئاً.

وهذه هي العتبة التالية في رحلة الشخصية المتحوّلة؛ لأن الإنسان يستطيع أن يقطع مسافات طويلة في التغيير، لكن ثمة باباً لا يكتمل التحول من دونه:

باب الاعتراف.

الفصل الخامس

الاعتراف: حين يتوقف الإنسان عن الدفاع عن نسخته القديمة

ليس الاعتراف مجرد قول الحقيقة بعد طول إخفاء، بل هو لحظة انهيار البنية التي كان الإنسان يحتج بها من نفسه. قد يعرف المرء الوقائع كاملة، ويستطيع أن يرويها بدقة، لكنه يظل بعيداً عن الاعتراف ما دام يضع بينه وبين مسؤوليته سلسلة من الأعذار والتفسيرات والتبريرات. فالاعتراف الحقيقي لا يبدأ حين يقول الإنسان: «حدث كذا»، بل حين يقول: «أنا فعلت، وأنا كنت مخطئاً، ولم يعد عندي ما أستعمله لأهرب من هذه الحقيقة».

لهذا كان اعتراف إخوة يوسف من أعمق اللحظات في القصة: ﴿تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾. لقد انقلبت الرواية التي حملوها طويلاً على نفسها. في البداية كانوا يرون أن المشكلة في يوسف، وأن أباهم هو الذي أخطأ في ميزان المحبة، وأن وجود أخيه هو الذي أربك ترتيب البيت، أما الآن فقد أصبحوا هم موضع الخطأ. لم يتغير الماضي، لكن موضع الحكم تغير. وهذه هي إحدى العلامات الكبرى على تحول الوعي: أن ينتقل الإنسان من محاكمة الآخرين إلى محاكمة نفسه.

إن الاعتراف صعب؛ لأنه يهدم شيئاً عزيزاً على النفس: الصورة التي صنعتها عن ذاتها. فكل إنسان يحمل في داخله قصة عن نفسه؛ أنه عادل، أو وفي، أو كريم، أو مظلوم، أو صادق، أو صاحب نية حسنة. وحين يأتي فعل يناقض هذه الصورة ينشأ توتر داخلي؛ وهنا أمام النفس طريقان: إما أن تعدّل صورتها عن ذاتها وتقول: نعم، لقد خالفت ما كنت أظنه عن نفسي، وإما أن تعدّل تفسير الفعل حتى يبقى منسجماً مع الصورة القديمة. والطريق الثاني أسهل في البداية، لكنه أكثر كلفة على المدى البعيد؛ لأنه يضطر الإنسان إلى صناعة شبكة كاملة من الأعذار لحماية وهمه.

ولهذا قد يكون الاعتراف مؤلماً، لكنه أقل ألماً من العيش عمراً داخل كذبة. الاعتراف يكسر الصورة، لكنه يفتح إمكان بناء صورة أصدق. أما التبرير فيحافظ على الصورة، لكنه يمنع التغيير. ومن هنا يكون الإنسان الذي يستطيع أن يقول «أخطأت» أقوى أخلاقياً من الإنسان الذي يحتاج دائماً إلى أن يبدو مصيباً. فالقوة ليست في عدم السقوط وحده، بل في القدرة على رؤية السقوط حين يحدث.

وإذا تأملنا قصة إخوة يوسف وجدنا أن اعترافهم لم يأتِ في لحظة فراغ، بل بعد أن انهارت أمامهم معظم العناصر التي كانت تدعم روايتهم القديمة. لم يعودوا العصبة القوية التي تملك القرار، بل صاروا محتاجين. لم يعد يوسف ذلك الصغير الذي يمكن إبعاده، بل صار في موقع قوة. لم يعد الأب شخصية يمكن تفسير حزنه بسهولة، بل صار حزنه الطويل شاهداً على عمق ما وقع. ولم يعد من الممكن تجاهل الماضي بعد أن وقف أمامهم حياً. عند هذه النقطة يصبح التبرير مكلفاً أكثر من الحقيقة.

وهنا تظهر وظيفة الموقف الكاشف: إنه لا يخلق الحقيقة، بل يسقط الحواجز التي كانت تمنع رؤيتها. أحياناً لا يحتاج الإنسان إلى معلومة جديدة بقدر ما يحتاج إلى ظرف يحرمه من القدرة على الكذب على نفسه. وفي تلك اللحظة قد تكون كلمة واحدة كافية لفتح التاريخ كله من جديد.

حين قال يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، لم يكن يزودهم بمعلومة لم يعرفوها، بل كان يعيد تسمية الماضي باسمه الحقيقي. ولذلك جاء سؤالهم المندهش: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾. هنا انهارت المسافة بين الماضي والحاضر، وبين الضحية التي ظنوا أنها اختفت والرجل الذي يملكون أمامه أقل مما يملك هو عليهم.

وقد يكون من أسرار الاعتراف أن الإنسان يحتاج أحياناً إلى أن يرى الفعل من موقع لم يكن قادراً عليه لحظة ارتكابه. وقت الجريمة كان إخوة يوسف داخل رغبتهم، أما الآن

فهم أمام نتيجتها. في البداية كانوا ينظرون من داخل الحسد، والآن ينظرون من داخل العجز. في البداية كانوا يظنون أنهم يملكون المستقبل، والآن يعرفون أنهم لم يكونوا يملكون حتى نهاية خطتهم.

ولهذا فإن النضج الأخلاقي يحتاج إلى مسافة من الرغبة؛ لأن الإنسان في ذروة الهوى لا يرى الأشياء بحجمها الحقيقي. حين تخف الرغبة، وتبرد الشهوة، ويزول الغضب، تظهر أشياء لم تكن مرئية. ليس لأن الحقيقة تغيرت، بل لأن الضباب انقشع.

ومن هنا نفهم لماذا لا يكفي الندم وحده. فالإنسان قد يندم لأنه خسر، أو لأنه انكشف، أو لأنه عوقب، أو لأن صورته تضررت، من غير أن يكون قد فهم خطأه أخلاقياً. قد يتنى لو أنه لم يفعل فقط لأنه لم يحتمل النتائج، لا لأنه رأى قبح الفعل نفسه. وهذا هو الفرق بين الندم على النتيجة والندم على الفعل.

قد يقول الإنسان: «ليتني لم أفعل» لأنه يريد الهروب من العاقبة، بينما يقول الاعتراف الحقيقي: «لم يكن ينبغي أن أفعل» حتى لو لم يره أحد، وحتى لو لم تقع عليه عقوبة. الأول يكره الثمن، والثاني يرفض الفعل.

وهذا فرق كبير.

فإذا كان الإنسان نادماً فقط لأن خطته فشلت، فإنه إذا ضَمِنَ النجاح في المرة القادمة قد يعيد الفعل نفسه. أما إذا تغير حكمه الأخلاقي على الفعل، فقد تغيرت البنية التي أنجبت الخطأ أصلاً. ومن هنا يبدأ التحول الحقيقي من الداخل.

ولهذا كان قول إخوة يوسف: ﴿وَإِنْ كُنَّا نَحَاطِئُكَ﴾ مهماً؛ لأنه لا يقتصر على وصف النتيجة، بل يعترف بالحكم على الفعل. لقد كانوا مخطئين، لا فقط غير موفقين. وهذا الانتقال في اللغة يعكس انتقالاً في الوعي.

غير أن الاعتراف لا ينبغي أن يتحول إلى نوع آخر من الخداع؛ فكما أن التبرير قد يمنع الإنسان من رؤية خطئه، فإن تحطيم الذات قد يمنعه من تجاوزه. ثمة فرق دقيق بين أن تقول: «أنا أخطأت»، وأن تقول: «أنا لخطأ نفسه». الجملة الأولى تفتح باب المسؤولية، والثانية تغلق باب التحول.

فالإنسان حين يحتزل نفسه في ذنبه يقع في خطأ مقابل للخطأ الذي وقع فيه حين أنكره. في الحالة الأولى يرى نفسه كلياً، وفي الثانية يدين نفسه كلياً. وكلاهما تبسيط. لأن الإنسان أوسع من فعله، مع بقاء مسؤوليته عنه.

ولهذا فإن التوبة لا تقوم على احتقار الذات، بل على تصحيحها. لا تطلب من الإنسان أن يكره وجوده، بل أن يكره ما أفسده في نفسه. ولا تطلب منه أن يحو نفسه، بل أن يعيد بناءها.

ومن هنا نفهم الفرق بين الندم الصحي والعار المدمر. الندم يقول: كان فعلي سيئاً، ويجب أن أصلحه. أما العار المدمر فيقول: أنا في جوهرى لا أصلح لشيء. الأول يدفع إلى العمل، والثاني يدفع إلى اليأس. الأول يوقظ المسؤولية، والثاني يقتل الإرادة.

والقرآن لا يفتح للإنسان باب الرجوع ليركه بعد ذلك في قاع احتقار نفسه، بل يفتح له طريقاً جديداً. ولهذا نجد في التوبة اقتراناً متكرراً بالإصلاح: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾. فالتوبة ليست فقط شعوراً بالذنب، بل فعل إعادة بناء.

وهذا المعنى بالغ الأهمية؛ لأن بعض الناس يظنون أن كثرة جلد الذات دليل على صدق التوبة، مع أن الإنسان قد يظل سنوات يكرر كلمات اللوم من غير أن يغير سلوكاً واحداً. ليس المطلوب أن تبقى عند باب الماضي، بل أن تجعل معرفتك به طريقاً إلى حاضر مختلف.

ومن هنا يمكن القول إن الاعتراف الصحيح يملك ثلاثة أبعاد: أن ترى الفعل كما هو، وأن تتحمل مسؤوليتك عنه، وأن ترفض أن تجعله نهاية تعريفك لنفسك. فإذا غاب الأول وقعنا في الإنكار، وإذا غاب الثاني وقعنا في التبرير، وإذا غاب الثالث وقعنا في اليأس.

والتوازن بين هذه الثلاثة هو أحد أجمل وجوه الرؤية القرآنية للإنسان.

ولعل من أقسى ما يمنع الاعتراف أن الإنسان يظن أن الاعتراف سيُسقط مكانته. يخاف أن يقول «أخطأت» لأن الجملة تبدو له إعلان هزيمة. لكن الواقع أن العناد هو الذي يصغر الإنسان أكثر؛ لأن من يحتاج إلى الكذب لحماية مقامه قد خسر مقامه من الداخل قبل أن يعرف الناس شيئاً عنه.

أما الاعتراف فلا يسقط الإنسان دائماً، بل قد يعيده إلى نفسه.

انظر إلى امرأة العزيز حين قالت: ﴿الآن حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾. هذه الجملة جاءت بعد زمن من التستر والالتهام والتعقيد، لكنها لحظة انهيار للجدار الذي بُني حول الحقيقة. والجميل أنها لم تقل فقط إن يوسف صادق، بل بدأت بنفسها: ﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ﴾. وهذا هو الاعتراف في جوهره: أن تعيد الفاعل إلى الفعل.

فالإنسان الذي يريد الهرب يستعمل اللغة المبينة للمجهول: حدث، وقع، حصل، التبست الأمور. أما الاعتراف فيعيد الضمير إلى الجملة: أنا فعلت.

ولذلك فإن اللغة تكشفنا. كيف نحكي أخطاءنا؟ هل نضع أنفسنا في مركز الفعل أم في هامشه؟ هل نقول «أخطأت»، أم نقول «ساءت الظروف»؟ هل نقول «ظلمته»، أم نقول «كان بيننا سوء تفاهم»؟ ليست كل الفروق في العبارة تجميلاً لغوياً بريئاً؛ أحياناً تكون محاولة لتخفيف المسؤولية في الوعي.

والنفس ماهرة في ذلك.

فهي تعرف كيف تختار الكلمات التي تجعل الفعل أقل قبحاً.

ولهذا يحتاج الإنسان إلى شجاعة في تسمية الأشياء.

أن يقول الكذب كذباً.

والظلم ظلماً.

والحسد حسداً.

والخيانة خيانة.

والتهرب تهرباً.

كلما أعاد الفعل إلى اسمه الحقيقي، اقترب من إصلاحه.

غير أن الاعتراف أمام النفس يسبق الاعتراف أمام الآخرين. قد يقول الإنسان للناس

كلمات صادقة ظاهرياً، لكنه في داخله ما يزال يبرر نفسه. وقد يصمت عن الاعتذار

وهو في أعماقه قد رأى الحقيقة كاملة. الأول لم يبدأ بعد، والثاني بدأ ولو لم يكتمل.

ولهذا فإن أول محكمة ينبغي أن يواجهها الإنسان هي المحكمة التي لا يراه فيها أحد.

في الليل.

في الوحدة.

حين تسقط الحاجة إلى الدفاع أمام الناس.

حين لا يبقى إلا هو والحقيقة.

هناك تظهر قيمة الصدق مع النفس.

وهو من أصعب أنواع الصدق؛ لأن الإنسان يستطيع أن يخدع كثيرين لبعض الوقت، لكنه يستطيع أن يخدع نفسه عمراً كاملاً إذا أراد.

وهذا الخداع أخطر؛ لأنه لا يحتاج إلى شاهد خارجي، بل يكفي أن يعيد تفسير الوقائع كل مرة بما يخدم صورته. وكلما تكرر التفسير صار أكثر رسوخاً حتى يصدق الإنسان النسخة التي اخترعها.

ولهذا كان سؤال يوسف: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ؟﴾ سؤالاً مزليلاً. لم يقل: هل تذكرون فقط، بل هل وصلتم إلى معرفة حقيقة ما فعلتم؟

قد نتذكر، ولا تعلم.

قد تعرف الوقائع، ولا تعرف نفسك فيها.

والاعتراف هو عبور هذه المسافة.

ثم تأتي لحظة أرق من كل ما سبق: ماذا يحدث بعد الاعتراف؟

هنا يدخل يوسف.

كان يستطيع أن يحول اعترافهم إلى محاكمة طويلة، وأن يستخرج من ضعفهم تعويضاً نفسياً عن ضعفه القديم، وأن يجعلهم يذوقون شيئاً من ذلك الخوف الذي ذاقه طفلاً في الجب. وكان يستطيع أن يذكرهم بتفاصيل ما صنعوا، وأن يعيد سرد التاريخ من موقع المنتصر.

لكنه قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وهذه الجملة لا تأتي قبل الاعتراف، بل بعده. وهذه دقة ينبغي ألا نفوتها. لم يبدأ يوسف بإلغاء الماضي، وإنما جاء العفو بعد أن صار الماضي مكشوفاً ومسمى ومعتزلاً به. ومن هنا فالعفو ليس إنكاراً للعدالة، بل قد يكون ثمرة اكتمال الحقيقة.

و«لا تثريب» لا تعني أن ما فعلتموه كان يسيراً، وإنما تعني أنني لن أجعل خطأكم القديم أداة إذلال دائمة بعد أن انكشفت الحقيقة.

وهنا يظهر وجه آخر من التحول: ليس تحول المذنب فقط، بل تحول المظلوم أيضاً. فالمظلوم قد يظل أسيراً للجرح كما يظل المذنب أسيراً للذنب. وقد يتحول الظلم الواقع عليه إلى مركز هويته، فلا يرى نفسه إلا بوصفه ضحية، ولا يرى الآخرين إلا من خلال ما صنعوا به. وعندئذ يبقى الماضي حياً في داخله، ولو تغير كل شيء في الخارج. لكن يوسف لم يسمح للجب أن يصير تعريفه النهائي.

لم يقل: أنا الذي ألقاه إخوته في الجب.

ولم يجعل هذا الحدث محور شخصيته.

مرّ به، وتألم، وحمله إلى الله، ثم عبره.

وهذا فارق عظيم بين من يحمل الجرح وبين من يجعل الجرح يحمله.

العفو هنا ليس نسياناً، بل سيادة على الذاكرة.

أن تستطيع أن تتذكر من غير أن تكون الذاكرة هي التي تقودك.

أن تعرف ما وقع، لكنك لا تعطيه سلطة تحديد كل ما ستفعله بعد ذلك.

وهكذا يلتقي التحولان: المذنب يخرج من سجنه بالاعتراف، والمظلوم يخرج من سجنه بالعفو. الأول يتوقف عن الهرب من الماضي، والثاني يتوقف عن العيش داخله.

ولا يلتقي الطرفان إلا حين تصبح الحقيقة كاملة.

ولهذا فإن المصالحة الحقيقية ليست حذفاً للتاريخ، بل وضعه في موضعه الصحيح.

الماضي موجود، لكنه لم يعد سيد الحاضر.

والخطيئة معترف بها، لكنها لم تعد الهوية النهائية.

والجرح محفوظ في الذاكرة، لكنه لم يعد الأمر الذي يقرر المستقبل.

ومن هنا تصبح عبارة ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّوْمَ﴾ واحدة من أجمل عبارات التحرير في القرآن؛ لأنها تحرر الطرفين معاً. يوسف يتحرر من أن يكون أسيراً للانتقام، وإخوته يتحررون من أن يبقوا أسرى جريمتهم بعد أن اعترفوا بها.

وهذه هي روعة التحول: أنه لا يعيد الزمن إلى الوراء، لكنه يمنع الماضي من احتلال المستقبل.

وقد يكون أصعب ما يفعله الإنسان في حياته أن يراجع القصة التي عاش بها طويلاً. لأن بعض القصص لا تكون مجرد أفكار، بل تكون جزءاً من هويته. إذا هدمها شعر كأنه يهدم نفسه. ولهذا يتمسك الناس أحياناً بتفسيرات خاطئة لا لأنها مقنعة، بل لأن حياتهم بُنيت عليها.

قد يكتشف المرء بعد سنوات أنه ظلم شخصاً كان يراه خصماً.

وقد يكتشف أن موقفاً دافع عنه طويلاً كان مبنياً على هوى.

وقد يدرك أن ما سماه «كرامة» كان كبرياء.

وأن ما سماه «صراحة» كان قسوة.

وأن ما سماه «وفاء للمبدأ» كان عجزاً عن مراجعة الذات.

وهنا يحتاج الإنسان إلى نوع نادر من الشجاعة: أن يسمح للحقيقة بأن تنتصر عليه.

فبعض الناس يريد الحقيقة ما دامت تؤيده.

أما النضج فيبدأ حين تريدها حتى لو كشفت خطأك.

وهذه من أصعب درجات الصدق.

أن تفرح بانكشاف الحقيقة، ولو خسرت الرواية التي انتصرت بها سنوات.
أن تقول: كنت مخطئاً، خير لي من أن أبقي على خطئي كي لا أبدو متناقضاً.
فالإنسان الذي يتغير لا يخون ماضيه؛ قد يكون وفياً للحقيقة أكثر مما كان.

ولهذا فإن الشخصية المتحوّلة ليست شخصية بلا ذاكرة، ولا بلا مسؤولية، ولا بلا ألم.
إنها شخصية اكتسبت القدرة على أن تنظر إلى ماضيه من غير أن تهرب، وأن تتحمل ما
فيها من خطأ من غير أن تتحول إلى كراهية للذات، وأن تستخدم الماضي في بناء مستقبل
مختلف.

وهذا ما يجعل الاعتراف بوابة لا خاتمة.

إنه ليس المشهد الأخير، بل اللحظة التي يصبح فيها التغير ممكناً بصورة كاملة.
فبعد أن يقول الإنسان «كنت مخطئاً» يبدأ السؤال الأصعب:

ماذا ستفعل بهذه المعرفة؟

هل ستجعلها مجرد لحظة وجدانية تنتهي، أم ستعيد بها تشكيل اختياراتك؟

هل ستغير لغتك فقط، أم يتغير سلوكك؟

هل ستطلب من الناس أن يصدقوا تحولك، أم ستجعل أفعالك هي التي تقول ذلك؟

فهناك فرق بين الاعتراف الذي يريح الضمير والاعتراف الذي يعيد بناء الشخصية.

والكتاب معني بالنوع الثاني.

لأن الشخصية المتحوّلة لا تثبت تحولها بكثرة الكلام عن الماضي، بل بطريقة العيش
بعده.

ومن هنا نصل إلى سؤال أكثر دقة:

كيف نعرف أن إنساناً قد تغير حقاً؟

هل يكفي الندم؟

هل تكفي الكلمات؟

هل يكفي الاعتذار؟

أم أن للتحول علامات يمكن رؤيتها في العلاقة بالقوة، والضعف، وبالخطأ، وبالآخرين، وبالذات؟

هذا هو الباب التالي.

الفصل السادس

كيف نعرف أن الإنسان قد تغيّر حقاً؟

ليس كل من ندم قد تغيّر، وليس كل من بكى قد تاب، وليس كل من قال: أخطأت، قد خرج بالفعل من البنية التي صنعت خطأه. فالتحول الإنساني أعمق من الانفعال، وأبعد من لحظة الندم، وأشدّ تعقيداً من الاعتذار. قد يتألم الإنسان حين يواجه نتائج فعله، وقد ينهار حين يرى صورته أمام الناس لتصدع، وقد يطلب الصفح لأنه لم يعد يحتمل ثقل الذنب، لكن ذلك كله لا يثبت وحده أنه صار إنساناً آخر. التحول الحقيقي يبدأ حين تتغير الطريقة التي يرى بها نفسه، والطريقة التي يقرأ بها ماضيه، والطريقة التي يتصرف بها حين يعود إلى موقف يشبه موضع سقوطه الأول.

إن الذي يتغير حقاً لا يكتفي بأن يقول: كنت مخطئاً، بل يبدأ في فهم كيف صار مخطئاً. وهذا فارق كبير. فمعرفة الخطأ لا تكفي إذا بقيت الآلية التي صنعتها كما هي. إذا حسد الإنسان ثم ندم، لكنه ظل يعيش بالمقارنة نفسها، وبالشعور نفسه بأن خير الآخرين يهدد مكانه، فالحسد لم يمت؛ ربما هدأ فقط. وإذا ظلم في لحظة غضب ثم اعتذر، لكنه لم يتعلم كيف يرى غضبه قبل أن يتحول إلى أذى، فإن اعتذاره قد يكون صادقاً، لكنه لم يكتمل بعد إلى تحول. التغيير الحقيقي لا يعالج الثمرة وحدها، بل يذهب إلى الجذر الذي أنبتاها.

ولهذا فإن أول علامة عميقة على التحول هي أن يصبح الإنسان أكثر معرفة بنفسه، وأقل ثقة في براءتها المطلقة. كان قبل التجربة يظن أن الخطأ بعيد عنه، وأن الذين يسقطون أضعف منه، أما بعد أن يرى من نفسه ما لم يكن يتوقعه، يتعلم التواضع. لا يعود سريعاً في إدانة الآخرين، لأن ذاكرته تقول له إن النفس أعقد مما كان يظن، وإن الإنسان قد يُبتلى بموضع لم يُبتَل به غيره. ليس معنى هذا أن الحق والباطل يضيعان، بل

إن الحكم الأخلاقي يبقى واضحاً، لكن النبوة الداخلية تتغير من الاستعلاء إلى الفهم، ومن احتقار المخطئ إلى إدراك قابلية النفس نفسها للسقوط.

وهذه المعرفة بالنفس لا تجعل الإنسان ضعيفاً، بل أكثر يقظة. فالذي يعرف أنه يمكن أن يغضب لا ينتظر الانفجار حتى يراجع نفسه. والذي يعرف أن الغيرة تدخل عليه من باب المقارنة يراقب قلبه حين يرى نجاح غيره. والذي عرف أنه يستطيع أن يبرر لنفسه ما يشتهي، يتوقف طويلاً أمام عباراته الداخلية قبل أن يصدقها. وهكذا تتحول الخبرة الأخلاقية إلى نوع من الحراسة. لم تعد النفس بالنسبة إليه أرضاً مأمونة، بل أرضاً جميلة تحتاج إلى مراقبة؛ لأن فيها قابلية للنور كما فيها مداخل للهوى.

ومن هنا نفهم لماذا لا يكون المتغير حقاً متكبراً على ماضيه. بعض الناس بعد أن يتركوا خطأ قديماً يتحدثون عنه كأنه يخص شخصاً آخر لا علاقة لهم به. ينسون هشاشتهم القديمة، ثم يصيرون أشد قسوة على من ما زال عالماً في الموضوع الذي خرجوا منه. وهذا ليس من علامات النضج، بل ربما يكون طريقة جديدة لصناعة التفوق. أما من فهم تجربته بصدق فيخرج منها أكثر رفقاً، لا لأنه يهون الذنب، بل لأنه عرف الطريق الذي يقود إليه.

إن التحول الحقيقي يجعل الإنسان أشد وضوحاً في رفض الخطأ، وأقل غروراً في الحكم على المخطئ.

وهذا توازن نادر.

ومن العلامات الأخرى أن يتغير موقف الإنسان من المسؤولية. في النسخة القديمة كان السؤال غالباً: كيف أحمي نفسي؟ كيف أخرج بأقل خسائر؟ كيف أشرح ما حدث بحيث لا أبدو مذنباً؟ أما بعد التحول فيصبح السؤال: ما الذي يجب عليّ إصلاحه؟ وما الأثر الذي تركته؟ وما الذي يقتضيه الحق الآن ولو لم يكن مريحاً لي؟

هذا الانتقال من حماية الصورة إلى إصلاح الواقع من أقوى علامات التغيير. فالإنسان الذي ما زال منشغلاً قبل كل شيء بإقناع الآخرين بأنه ليس سيئاً، ربما لم يخرج بعد من مركزية الذات. إنه ما زال يرى الخطأ من خلال صورته هو، لا من خلال أثره على الآخرين. أما المتغير حقاً فيستطيع أن يحتمل شيئاً من سوء فهم الناس له إن كان ذلك جزءاً من ثمن الإصلاح، لأنه لم يعد يجعل سمعته مركز القضية.

وهنا نرى الفرق بين من يريد أن يقال عنه: لقد تاب، ومن يريد فعلاً أن يصلح ما أفسد. الأول يبحث عن شهادة اجتماعية، والثاني يبحث عن استقامة حقيقية. وقد يكون الإصلاح أحياناً بطيئاً، ثقيلًا، غير مرئي، لا تصاحبه لحظة درامية ولا تصفيق. لكنه أكثر صدقاً؛ لأن التغيير في جوهره ليس عرضاً للآخرين، بل عمل طويل في البنية الداخلية للإنسان.

ولهذا فإن الاعتذار، مع أهميته، لا يكفي وحده. قد يقول الإنسان كلمات جميلة، لكن التحول يبدأ حين تتحول الكلمات إلى سلوك. فإذا كسر ثقة، فهل يتعلم أن يكون أهلاً للثقة؟ وإذا ظلم، فهل يرد الحق أو يصلح ما يستطيع؟ وإذا آذى، فهل يفهم الطريقة التي أضر بها الآخر ويغير ما أنتج الأذى؟ وإذا كرر الخطأ نفسه كل مرة ثم اعتذر بالكلمات نفسها، فإن الاعتذار يتحول تدريجياً إلى جزء من دورة الخطأ بدل أن يكون باباً للخروج منه.

إن التغيير الحقيقي يقطع الدورة.

وهذه ربما أدق علامة يمكن أن نقيس بها التحول: هل انكسر النمط القديم أم ما زال يعيد إنتاج نفسه بأسماء مختلفة؟

وفي قصة يوسف يتجلى هذا المعنى في الفرق بين موقف الإخوة الأول من يوسف وموقفهم اللاحق من بنيامين وأبيهم. هم لم يكتبوا بياناً يقول إنهم تغيروا، ولم يقدموا

فلسفة عن الندم، لكن سلوكهم الجديد يكشف أن شيئاً تحرك في داخلهم. لم يعودوا قادرين على إعادة إنتاج المشهد القديم بسهولة. صار الماضي حاضراً في وعيمهم، وصارت المسؤولية أثقل، وصار الخوف على أيهم أكثر وضوحاً. هذه هي لغة التحول الحقيقية: الموقف.

فالإنسان يمكن أن يغير قاموسه أسرع بكثير مما يغير طبعه. قد يتعلم لغة الاعتذار، ولغة الوعي، ولغة النضج، من غير أن يتغير جوهر استجابته للمواقف. ولهذا لا ينبغي أن نخدع أنفسنا بالكلمات وحدها. الحياة تختبر ما وراءها.

إذا كان الإنسان يعلن أنه صار أكثر رحمة، فكيف يتصرف حين يملك القوة؟

إذا كان يقول إنه تعلم من الماضي، فكيف يتصرف حين يُستفز بالطريقة القديمة؟

إذا كان يقول إنه ترك الحسد، فكيف يشعر أمام نجاح من كان ينافسه؟

إذا كان يقول إنه صار صادقاً، فإذا يفعل حين يهدد الصدق مصلحته؟

هناك تظهر الحقيقة.

فالتحول لا يُختبر في الهدوء فقط، بل في الموضع الذي كانت النفس تسقط فيه.

وهذا يقود إلى علامة أخرى شديدة الأهمية: أن يتحول الإنسان في علاقته بالقوة. كثير من الأخلاق تبدو جميلة ما دام الإنسان عاجزاً عن خلافها. العفو وهو بلا قدرة ليس دائماً عفواً؛ قد يكون عجزاً. والتواضع من غير مكانة قد لا يُختبر إلا حين تأتي المكانة. والعدل لا يظهر مع الصديق وحده، بل حين يكون الإنسان قادراً على الانتقام من خصمه.

وهنا تصبح قصة يوسف من أبلغ نماذج التحول الإنساني؛ لأن يوسف لم يُختبر فقط وهو ضعيف، بل اختبر وهو قوي. الطفل الذي أُلقي في الجب صار رجلاً يملك، والسجين

صار صاحب قرار، والمظلوم صار قادراً على معاملة الذين ظلموه من موقع القوة. وهنا كان يمكن أن يظهر وجه آخر من النفس: أن تستعمل القدرة لتعويض ضعف قديم. لكن يوسف لم يفعل.

وهذا يجعل عفوه مختلفاً؛ لأنه عفو القادر، لا تسليم العاجز. لقد كان يستطيع أن يجعل ماضيه قانوناً للحاضر، لكنه لم يسمح للجرح أن يتحول إلى سلطة انتقام. وهذا من أعلى صور النضج: أن يمنحك الزمن القوة فلا تستخدمها لتصفية حساب ضعفك القديم.

كم من إنسان يبدو طيباً لأنه لم يملك فرصة الظلم، فإذا امتلكها ظهر شيء آخر. وكم من إنسان ظل يتحدث عن العدالة حتى صار صاحب قدرة، فإذا بالعدالة تضيق حين تمس مصلحته. ولهذا فإن القوة من أدق المرايا؛ إنها لا تخلق كل شيء في الإنسان، لكنها تكشف أشياء كثيرة كانت مستترة.

والشخصية المتحوّلة حقاً لا تستخدم موقعها الجديد لتثأر من الماضي، بل تسأل: ماذا ينبغي أن أفعل الآن بما يرضي الله ويقيم الحق، لا بما يشبع جرحاً قديماً؟

وهذا سؤال أصعب مما يبدو؛ لأن الجرح يستطيع أن يتنكر في ثوب العدالة. وقد يقول الإنسان: أنا لا أنتقم، أنا فقط أعيد التوازن. لكن الميزان الحقيقي يحتاج إلى نفس تعرف الفرق بين الحق وبين شهوة القصاص الشخصي.

وثمة علامة أخرى للتحويل هي تغير العلاقة مع اللوم. الإنسان غير الناضج يحتاج دائماً إلى متهم خارجي. إذا أخفق، بحث عن من يحمّله السبب. وإذا أخطأ، شرح كيف دفعه الآخرون إلى الخطأ. وإذا أساء، بدأ أولاً بتعداد إساءات غيره. أما الإنسان الذي نضج فيستطيع أن يرى خطأه من غير أن ينتظر تبرئة الآخرين أو إدانتهم.

وهذا لا يعني أن السياق لا يهم، ولا أن الآخرين بلا مسؤولية، بل يعني أن الإنسان لا يجعل أخطاءهم عذراً لإلغاء مسؤوليته. يستطيع أن يقول: نعم، ظلمني فلان، ومع ذلك أخطأت حين فعلت كذا. نعم، كانت الظروف قاسية، لكنني اخترت تصرفاً لم يكن ينبغي لي أن أختاره. هذه القدرة على الفصل بين تفسير السلوك وتبريره من أبرز علامات النضج.

فحين يكون الإنسان بحاجة دائمة إلى قصة يكون فيها بريئاً تماماً، فهو ما يزال يخاف الحقيقة. أما حين يستطيع أن يحتمل صورة أكثر تعقيداً لنفسه، فقد بدأ يقترب من الرشد الداخلي.

والرشد هو أن تعرف أنك قد تكون مظلوماً في شيء، وظالماً في شيء آخر في الوقت نفسه. قد تكون على حق في أصل القضية، ومخطئاً في وسيلة الدفاع عنها. قد يكون لك حق، ثم تفسده بطريقة طلبه. قد يكون الآخر أساء إليك، ثم تسيء أنت إليه بطريقة أخرى. والوعي الذي لا يحتمل هذه التركيبة المعقدة يعود دائماً إلى ثنائية سهلة: أنا خير، وهو شر.

لكن الحياة البشرية أعمق من ذلك.

والقرآن نفسه يعلمنا أن العدل لا يُبنى على الهوى، وأن الموقف من الناس لا ينبغي أن يعطل ميزان الحق. ومن هنا فإن الشخصية المتحوّلة لا تسأل فقط: هل أنا مظلوم؟ بل تسأل أيضاً: هل بقيت عادلاً وأنا أدافع عن نفسي؟

وهذا السؤال وحده قادر على منع كثير من الانحدار.

ومن علامات التحول كذلك أن يتغير الإنسان في علاقته بالماضي. بعض الناس يهرب منه، وبعضهم يسكنه، وكلاهما لم يتحرر منه. الهارب يرفض الحديث عنه لأنه يخشى أن

يراه، والمقيم فيه يعيد إنتاجه كل يوم حتى يصير الحاضر مجرد امتداد للجرح القديم. أما الإنسان الذي نضج فيستطيع أن يتذكر من غير أن يغرق.

لا ينكر ما حدث.

ولا يعبد ما حدث.

يضعه في موضعه.

يتعلم منه، لكنه لا يسمح له أن يعرف المستقبل كله.

وهذا بالغ الصعوبة؛ لأن الماضي يملك سحراً غريباً: إذا كان جميلاً يدعونا للعيش في الحنين، وإذا كان مؤلماً يدعونا للعيش في المرارة. وفي الحالين يمكن أن نخسر الحاضر. ولذلك فإن التحرر من الماضي لا يعني نسيانه، بل يعني أن تعود القيادة للحاضر.

وقد يكون هذا من أجمل ما نراه في يوسف. لم ينس الجب، ولم ينس إخوته، ولم ينس السجن، لكن ذاكرته لم تتحول إلى سجن جديد. وعندما جمع الله شمله بأهله قال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾.

تأمل رقة هذه العبارة: ﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾. لم يعد يوسف في مقام استدعاء التفاصيل الموجعة ليقم بها محكمة جديدة. لم يقل: بعد أن ألقوني في الجب وفعلوا بي وفعلوا. لقد صار قادراً على رواية الماضي بلغة لا تتكر الحقيقة ولا تستخدمها للإذلال.

وهذه درجة عالية من السيادة على الذاكرة.

حين يصبح الإنسان قادراً على أن يروي جرحه من غير أن يستخدمه كسلاح.

وقد يكون من أصدق علامات التحول أيضاً أن يتغير الإنسان في علاقته بمن أخطأ مثل خطئه القديم. حين يواجه شخصاً يسقط في الموضع الذي سقط فيه هو، هل يشمت؟ هل يحتقره؟ هل يستخدم تجربته القديمة ليرفع نفسه عليه؟ أم يشعر بمسؤولية الفهم والنصح؟ ليس المقصود أن يبرر له، بل أن يعرف أن طريق الرجوع ممكن لأنه قطعه بنفسه. وهنا تتحول التجربة من ندبة إلى معرفة نافعة.

قد يصبح الإنسان أقدر على إنقاذ غيره من حفرة لأنه يعرف مسالكها. وهذا من أجمل تحويلات الرحمة: أن يستخرج الله من الموضع الذي كان سبب نجل الإنسان علماً بنفسه وبغيره، فيصبح أكثر قدرة على الدلالة على طريق الخروج. لكن هذا لا يحدث إلا إذا شفي الإنسان من حاجته إلى إثبات تفوقه الأخلاقي. أما إذا ظل يحمل نجلاً داخلياً لم يتصالح معه، فقد يتحول إلى قسوة على كل من يذكره بنفسه القديمة.

ولهذا فإن بعض أحكامنا القاسية على الآخرين قد تخفي معركة لم نحسمها مع أنفسنا. وقد يكون أكثر ما يزعجنا في شخص ما هو أنه يوقظ فينا صورة نكره أن نتذكرها. ثم هناك علامة دقيقة جداً: أن يتغير الإنسان في علاقته بالمدح والاعتراف الخارجي. فن لم يشف داخلياً يحتاج إلى الناس كي يخبروه باستمرار أنه صار أفضل. يحتاج إلى شهادة، إلى ثناء، إلى إعلان بأن الماضي انتهى. أما من تغير حقاً فيكفيه أن يعرف الطريق الذي يسلكه الآن، ولو بقي بعض الناس حذرين منه.

هذا مهم؛ لأن المجتمع لا يملك دائماً القدرة على تحديث صورته عن الإنسان بالسرعة نفسها التي يتغير بها. قد تكون قد قطعت مسافة طويلة، وما زال بعض الناس يرونك

بالصورة القديمة. وهذا مؤلم، لكنه جزء من ثمن الماضي. والنضج يعني أن تتحمل هذا من غير أن تعود إلى الخطأ لمجرد أن الناس لم يصدقوا تغييرك بسرعة.

فالتحول الحقيقي لا يحتاج تصديق الجميع لكي يكون حقيقياً.

إنه يستمد قيمته من الصدق مع الله ومع النفس ومن الاستمرار.

ومع الوقت قد نتكلم الأفعال.

وقد لا يتكلم الناس أبداً.

لكن ذلك لا ينبغي أن يعيد الإنسان إلى نسخته القديمة.

وهنا نصل إلى مسألة شديدة الحساسية: هل يتغير الإنسان من داخله فقط، أم أن التحول يحتاج إلى إصلاح ما يمكن إصلاحه في الخارج؟

الجواب أن الداخل والخارج مترابطان. إذا تغير القلب ولم يظهر شيء من أثره في الفعل، بقي التحول ناقص البرهان. وإذا تغير السلوك ظاهرياً من غير تغير في البنية الداخلية، بقي معرضاً للانهار عند أول ضغط.

ولهذا كانت التوبة القرآنية مرتبطة بالإصلاح. ليس المقصود فقط ألا تعود إلى الخطأ، بل أن تدخل في الاتجاه المقابل حيث تستطيع. من أفسد يصلح، ومن ظلم يرد، ومن قطع يصل، ومن نشر باطلاً يسعى إلى تصحيحه، ومن كسر ثقة يبني ما يستطيع منها من جديد.

وهنا تتحول التوبة من انسحاب من الشر إلى مشاركة في الخير.

وهذا أعمق بكثير.

فالإنسان لا يصبح جديداً فقط لأنه توقف عما كان يفعله، بل لأنه بدأ يفعل ما لم يكن يفعله.

وهذه علامة جوهرية: أن يكون الجديد في حياتك أكثر من مجرد غياب القديم.

لهذا كله لا نستطيع قياس التحول بلحظة واحدة. إنه يتكشف في الزمن، وفي تكرار الاختيارات، وفي الطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع القوة والضعف واللوم والذاكرة والآخرين. قد يبدأ بلحظة صدق، لكنه يحتاج إلى حياة من التثبيت.

والتحول الحقيقي ليس أن يصبح الإنسان معصوماً، بل أن تتغير طريقة عودته حين يخطئ. فقد يزل بعد التوبة، لكن الفرق أن نفسه لم تعد تبني بيتاً داخل الخطأ. صار الرجوع أسرع، والتبرير أضعف، والوعي أكثر حضوراً.

وهذه من علامات النضج التي لا يراها الناس دائماً.

فالإنسان القديم إذا أخطأ صنع للخطأ فلسفة، أما الجديد إذا أخطأ عرف الطريق إلى الاعتراف.

القديم كان يحتاج إلى حماية صورته.

والجديد يحتاج إلى حماية قلبه من أن يعود إلى ما كان.

القديم كان ينظر إلى الحقيقة بوصفها تهديداً.

والجديد صار يراها نجاة، ولو آلمته.

وهذا هو الفارق.

غير أن ثمة سؤالاً أصعب ينتظرنا بعد هذا كله: إذا كان الإنسان قادراً على أن يتغير، فهل يتغير الجميع؟

لماذا يرى بعض الناس الحقيقة ثم يعودون إليها، بينما يراها آخرون فيزدادون تصلباً؟ لماذا
حوّل الألم إخوة يوسف في النهاية إلى الاعتراف، بينما يمكن للألم نفسه أن يحول إنساناً
آخر إلى مزيد من القسوة؟ لماذا سجد السحرة حين رأوا الآية، بينما رأى فرعون ما رأوا
ثم مضى في طغيانه؟ لماذا يفتح الانكشاف قلباً، ويغلق قلباً آخر؟

هنا لا نكون أمام سؤال الخطيئة فقط، بل أمام سؤال أشد عمقاً:

متى تصبح النفس قابلة للتحويل، ومتى تصبح أسيرةً لنفسها حتى وهي ترى الحقيقة؟
وهذا هو الباب التالي من رحلتنا.

الفصل السابع

حين لا يحدث التحول: لماذا يرى الإنسان الحقيقة ثم يرفض أن يتغير؟

ليس كل انكشاف للحقيقة يؤدي إلى التحول. قد يرى الإنسان البرهان، ويفهمه، ويشعر في أعماقه أنه أمام شيء لا يستطيع إنكاره بصدق، ثم يختار مع ذلك أن يبقى حيث هو. وهذه من أعقد حقائق النفس؛ لأننا نميل إلى الاعتقاد أن المشكلة الأساسية هي نقص المعرفة، وأن الإنسان لو عرف لتغير، ولو رأى الدليل لاستجاب، ولو انكشفت له الحقيقة لترك الباطل. لكن القرآن يرينا مراراً أن المعرفة وحدها لا تكفي، وأن الأزمة قد تقع بعد المعرفة لا قبلها، حين تصبح الحقيقة معلومة ولكن قبولها مكلفاً.

إن الإنسان لا يقاوم الحقيقة دائماً لأنه لا يراها، بل قد يقاومها لأنه يرى ما ستطلبه منه إذا اعترف بها. فالحقيقة ليست معلومة باردة؛ إنها كثيراً ما تأتي ومعها مطالبة بالتغير، بالتنازل، بالاعتذار، بفقدان امتياز، بالتخلي عن صورة قديمة، أو بهدم بناء أقامه الإنسان حول نفسه سنوات. ولذلك فإن مقاومة الحقيقة قد تكون في جوهرها مقاومة لما يترتب عليها.

هنا يظهر الفرق بين الجهل والاستكبار. الجاهل لا يعرف، أما المستكبر فقد يعرف ثم يرفض أن يخضع لما عرف. وهذه هي المنطقة الأخطر؛ لأن المعرفة تصبح فيها شاهداً على صاحبها بدل أن تكون طريقاً إلى نجاته.

ولهذا كان نموذج فرعون بالغ الدلالة. لم تكن مشكلته أن الآيات لم تصله، بل أن الاعتراف بها كان يعني انهيار العالم الذي بناه حول نفسه. لقد أسس سلطانه على صورة مخصوصة: هو الأعلى، وصوته هو المعيار، والناس تابعون، والحق يُصاغ من موضع القوة.

فإذا اعترف بموسى لم يكن يغير رأياً جزئياً، بل كان يهدم مركزه كله. ومن هنا تصبح الحقيقة تهديداً للهوية، لا مجرد تصحيح للمعلومة.

والإنسان حين يربط كرامته بموقف ما يصبح الرجوع عنه أشبه - في شعوره - بالموت. لا لأنه لا يرى خطأه، بل لأنه يخشى أن يسقط إذا قال: كنت مخطئاً. وهنا يتحول الخطأ من رأي إلى جزء من الذات، ومن قرار إلى هوية، ومن موقف قابل للمراجعة إلى حصن يجب الدفاع عنه مهما ارتفعت الكلفة. وكلما طال الزمن زادت صعوبة الرجوع، لا لأن الحقيقة صارت أضعف، بل لأن ما بُني فوق الخطأ صار أكبر.

وهذه واحدة من أخطر آليات التصلب: أن تتراكم على الفكرة مصالح وذكريات وعلاقات وسمعة ومكانة، حتى يصبح التخلي عنها خسارة تتجاوز الفكرة نفسها. عندئذ لا يعود الإنسان يدافع عن موقف، بل عن عالم كامل نشأ حول ذلك الموقف. ومن هنا نفهم لماذا يستطيع شخص عادي أن يراجع نفسه بسهولة في أمر، بينما يعجز صاحب النفوذ أو المكانة عن الرجوع عنه؛ لأن الاعتراف بالنسبة إلى الثاني لا يهدد فكرة فقط، بل يهدد بنية كاملة من الهوية والصورة والمصلحة.

ولذلك فإن القدرة على التغير تحتاج إلى شيء أعمق من الذكاء: تحتاج إلى تواضع. التواضع هنا ليس سلوكاً اجتماعياً رقيقاً، بل استعداد داخلي لقبول أنني قد أكون مخطئاً، وأن الحقيقة لا تفقد قيمتها إذا جاءت على يد من لا أحب، وأن اعترافي بالخطأ لا يلغي إنسانياتي ولا كرامتي، بل يعيدني إلى موضع الصدق.

وهذا هو الفارق بين من يرى الحقيقة فيسجد لها، ومن يراها فيضاعف مقاومته.

السحرة رأوا ما رأى فرعون، لكنهم لم يكونوا مرتبطين بالحقيقة المزيفة الارتباط نفسه. كان لديهم ما يخسرونه، نعم، لكنهم حين انكشف لهم ما لم يكن سحراً عرفوا حدّ حرقهم وحدّ قدرتهم، فكان اعترافهم في اللحظة نفسها تحرراً من وهم قديم. أما فرعون

فكان اعترافه يعني انهيار صورة حكم كاملة، ولهذا لم يكن الصراع عنده بين دليل ودليل، بل بين حقيقة وسلطة.

ومن هنا يمكن القول إن بعض الناس يرفض الحقيقة لا لأنها غير مقنعة، بل لأنها غير مريحة لموقعه.

وهذه آفة لا تختص بالملوك. إنها موجودة في كل نفس بدرجات مختلفة. قد يرفض الإنسان الاعتذار لأن موقعه العائلي لا يسمح له - في ظنه - أن يعترف لمن هو أصغر منه. وقد يرفض مراجعة رأيه لأن الناس عرفوه به. وقد يصبر على خصومة قديمة لأنه لا يريد أن يمنح خصمه شرف أن يكون محقاً في شيء. وقد يدافع عن قرار يعلم في داخله أنه خاطئ، فقط لأن الرجوع عنه سيجعله يبدو متناقضاً.

وهكذا يتحول الخوف من التناقض إلى تناقض أعمق: يعرف الحقيقة، ثم يعيش ضدها حتى لا يعترف بأنه تغير.

لكن التغير ليس فضيحة.

الثبات على الخطأ ليس آساقاً.

والإنسان الذي يراجع نفسه حين تظهر له حقيقة جديدة أكثر آساقاً مع الصدق من إنسان يظل مخلصاً لموقف يعلم أنه باطل.

ثمة سبب آخر يمنع التحول، هو أن بعض الناس لا يحتملون رؤية أنفسهم بصورة أقل مما تخيلوا. فالاعتراف يحتاج إلى شجاعة نفسية لا تقل عن الشجاعة الأخلاقية. قد يكون الإنسان بنى لنفسه صورة بأنه حكيم دائماً، أو عادل دائماً، أو لا يُخدع، أو لا يسيء التقدير، ثم يقع منه ما يهدم هذه الصورة. عندئذ قد يختار إنكار الواقع لا لأنه لا يفهمه، بل لأن الواقع يجرحه في موضع زنجسي عميق.

ولهذا فإن من أعظم أسباب النجاة أن يحتفظ الإنسان بصورة واقعية عن نفسه: لست معصوماً، وقد أخطئ، وقد أسيء التقدير، وقد أندفع، وقد يغرنى الثناء، وقد يحملني الغضب إلى ما لا أرضاه. هذه المعرفة لا تحط من قدر الإنسان، بل تحميه من صنم داخلي أشد خطراً من كثير من الأخطاء: صنم الصورة المثالية عن الذات. فالذي يحتاج دائماً إلى أن يكون بريئاً، سيجد دائماً من يحمله الخطأ بدلاً عنه.

والذي يحتاج دائماً إلى أن يكون الأذكي، سيصعب عليه أن يتعلم. والذي يحتاج دائماً إلى أن يكون المنتصر، سيضحي بالحقيقة من أجل أن لا يظهر خاسراً.

وهنا يتحول الدفاع عن الذات إلى عائق أمام نمو الذات. وثمة سبب ثالث للتصلب: تكرار الخطأ حتى يصير مألوفاً. فالإنسان في المرة الأولى قد يرتجف، ثم إذا كرر الفعل ضعفت حساسية القلب تجاهه. وما كان مؤلماً في البداية يصبح عادياً، وما كان يحتاج إلى تبرير طويل يصبح بعد حين عادة لا تستوقفه.

وهذا هو أحد أخطر آثار الاعتياد: أنه لا يغير السلوك فقط، بل يغير الإحساس بالسلوك. الخطيئة المتكررة لا تبقى في وعي الإنسان بالحجم نفسه؛ قد تصغر لأنها صغرت في حقيقتها، بل لأن الضمير تكيف معها.

ولهذا فإن القلب الذي لا يستجيب لأول وخزة قد يحتاج لاحقاً إلى صدمة أكبر حتى يستيقظ.

والخطر ليس في ارتكاب الخطأ وحده، بل في أن يفقد الإنسان القدرة على الشعور بأنه خطأ.

حينئذ لا تعود المسألة: هل سقط؟ بل: هل ما زال يرى السقوط سقوطاً؟

ومن هنا كانت أولى علامات التحول أن يعود الاسم الصحيح إلى الأشياء. أن يستعيد الإنسان حساسية اللغة الأخلاقية. أن يتوقف عن تسمية الكذب سياسة، والقسوة حزمًا، والحسد غيرة على الحق، والكبر كرامة، والانتقام عدلاً. لأن القلب حين يغير أسماء الأشياء يكون قد بدأ بتغيير حكمه عليها.

وقد يمنع التحول كذلك الخوف من ثمن الرجوع. فكلما امتد الخطأ صار الرجوع أغلى. قد يحتاج إلى إعادة حقوق، أو الاعتذار ممن احتقرهم، أو الاعتراف أمام من خدعهم، أو ترك مكسب حصل عليه بغير حق. وهنا يظهر صدق الإنسان: هل يريد الحقيقة ما دامت لا تكلفه شيئاً، أم يريد لها حتى إذا طلبت منه ثمناً؟

إن كثيراً من الناس يحبون الحقيقة نظرياً، لكنهم يختبرون عندما تصبح الحقيقة فاتورة. حين تقول له: نعم، كنت مخطئاً، عليك الآن أن تصلح ما تستطيع.

هنا يظهر الفرق بين الندم العاطفي والتحول الأخلاقي.

فالندم يريد الراحة.

أما التوبة فتقبل الكلفة.

وفي المقابل، قد يحدث التحول فجأة حين تنكسر هذه الموانع كلها في لحظة. وهذا ما نراه في سحرة فرعون. كانوا قبل قليل يطلبون الأجر: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، ثم لما رأوا الحقيقة قالوا: ﴿أَمَّا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾. لم يحتفظوا بمسافة تفاوضية، ولم يقولوا: نحتاج وقتاً لنوازن بين ما عرفنا وما سنخسره. لقد انتقلت الحقيقة عندهم من الإدراك إلى الخضوع.

وهذا يكشف أن التحول ليس دائماً بطيئاً. قد تعمل سنوات داخل الإنسان من غير أن نراها، وقد تأتي لحظة واحدة تعيد ترتيب وجوده كله. المهم ليس طول الزمن، بل درجة الصدق حين تنكشف الحقيقة.

وقد تكون لحظة واحدة من الصدق أثقل من عشرين سنة من العادة.

غير أن بعض الشخصيات القرآنية تقدم لنا النموذج المقابل تماماً: الإنسان الذي كلما انكشفت له الحقيقة زاد دفاعه عن نفسه. وهذا النوع يحتاج إلى الكذب الجديد كي يحمي الكذب القديم. فإذا ظهرت آية قال عنها سحر. وإذا سقط تفسير اخترع تفسيراً آخر. وإذا انكشف تناقض غطاه باتهام الخصم. وهكذا يصبح العقل نفسه أداة دفاع عن الهوى.

وهنا تتقلب وظيفة الذكاء.

فالذكاء الذي كان ينبغي أن يقود إلى الحقيقة يصير وسيلة لصناعة الحيل.

وكلما كان الإنسان أقدر على الجدل، صار أقدر - إذا فسد قصده - على إخفاء الحقيقة عن نفسه.

ولهذا لا تكفي قوة العقل وحدها؛ لأن العقل يمكن أن يصبح محامياً للرجبة بدل أن يكون قاضياً عليها.

المشكلة ليست دائماً أن الإنسان لا يعرف البرهان، بل أن قلبه قد قرر النتيجة ثم استدعى العقل ليخدمها.

وهذا من أدق مواطن الخطر في النفس البشرية.

من هنا نفهم أن التحول يحتاج إلى ثلاثة أمور متلازمة: حقيقة تنكشف، ونفس مستعدة للاعتراف، وإرادة تقبل كلفة التغيير. إذا غاب الأول عاش الإنسان في

الجهل، وإذا غاب الثاني عاش في المكابرة، وإذا غاب الثالث عاش في المعرفة العاجزة التي تعرف ولا تتحرك.

والإنسان قد يتوقف في أي مرحلة من هذه المراحل.

قد يرى ولا يقر.

وقد يقر ولا يغير.

وقد يغير مؤقتاً ثم يعود لأن الجذر لم يُمس.

ولذلك كان التحول الكامل أعمق من مجرد اقتناع عقلي.

إنه إعادة ترتيب للولاءات داخل النفس: هل ولائي للحقيقة أم لصورتي؟ هل ولائي للحق أم لمصلحتي؟ هل ولائي لما ينبغي أن أكون أم لما تعودت أن أكونه؟

وهنا تظهر قيمة التواضع مرة أخرى. المتواضع لا يخاف أن تنكسر صورته القديمة؛ لأنه لا يعبدها. يعرف أن الحقيقة أكبر منه، وأن نجاته ليست في أن ينتصر رأيه، بل في أن يصل إلى الحق ولو على حساب رأيه. وهذا ما يجعل التواضع شرطاً معرفياً، لا خلقاً اجتماعياً فقط.

فبعض الناس لا ينقصهم الدليل، بل ينقصهم التواضع الذي يسمح للدليل بأن يفعل فعله.

وبعضهم لا ينقصهم الوعي، بل تنقصهم الشجاعة التي تجعلهم يعيشون بما وعوا.

وهكذا نصل إلى حقيقة قاسية: قد يعرف الإنسان طريق النجاة ولا يسلكه.

ليست كل المسافات بين الإنسان والحقيقة مسافات في المعرفة؛ بعضها مسافات في الإرادة.

وهذا يفسر لماذا لا تصنع المحنة الجميع بالطريقة نفسها. الألم لا يضمن الحكمة. قد يدخل إنسانان التجربة نفسها فيخرج أحدهما أكثر رحمة والآخر أكثر قسوة. قد يفقد اثنان الشيء نفسه فيتعلم أحدهما الزهد ويغرق الآخر في الحسد. وقد يُظلم اثنان فيختار أحدهما العدل لأنه عرف مرارة الظلم، بينما يختار الآخر أن يصير ظالماً حين تسنح له الفرصة. المحنة تكشف المواد الموجودة في النفس، لكنها لا تفرض الشكل النهائي وحدها.

إنها تضع الإنسان أمام نفسه.

ثم يختار ماذا يفعل بما رأى.

ولهذا فقولنا إن الألم يربي ليس صحيحاً بإطلاق. الألم قد يربي من يتعلم، وقد يشوه من يترك جرحه يتحول إلى قانون للحياة.

والمظلوم لا يصبح عادلاً تلقائياً لأنه ذاق الظلم.

والفقير لا يصبح رحيماً تلقائياً لأنه ذاق الحاجة.

والسجين لا يصبح حريصاً على حرية الآخرين تلقائياً لأنه عرف السجن.

التجربة تمنح معرفة محتملة، لكن تحويلها إلى خلق يحتاج إلى اختيار.

وهذا يعيدنا إلى عنوان الكتاب كله: الشخصية المتحوّلة ليست شخصية دفعها الأحداث وحدها إلى صورة جديدة، بل شخصية استجابت لما كشفت لها الأحداث عن نفسها.

ولهذا فإن فرعون والسحرة يقدمون لنا مفارقة مدهشة: المشهد واحد، والحقيقة واحدة، والآية واحدة، لكن النتيجة متعارضة. السحرة خروا سجداً، وفرعون هدد. هم رأوا الحقيقة فحرروا من الخوف، وهو رأى الحقيقة فتشبث بالسلطة. هم فقدوا ما كانوا ينتظرونه من الدنيا وربحوا وضوحاً داخلياً، وهو تمسك بما يملك حتى صار ما يملكه هو الذي يملكه.

وهذه من أخطر صور العبودية: أن يصبح الشيء الذي نريد حمايته سبباً في عجزنا عن التغير.

قد يكون مألأ.

أو منصباً.

أو سمعة.

أو رأياً.

أو جماعة.

أو علاقة.

أو صورة عن النفس.

كل شيء لا تستطيع أن تحسره من أجل الحقيقة يمكن أن يتحول إلى قيد يحول بينك وبينها.

ومن هنا تصبح القدرة على التغير نوعاً من الحرية.

ليس الحر هو الذي يفعل ما يريد، بل الذي يستطيع أن يترك ما يريد حين يعرف أنه باطل.

ليس الحر من لا يتراجع، بل من لا يستعبده موقفه القديم.

ليس الحر من لا يخسر صورته أمام الناس، بل من لا يحتاج إلى تلك الصورة حتى يظل صادقاً مع نفسه.

وهكذا نرى أن بعض أشد السجون قسوة لا جدران لها. إنها الهوية التي بناها الإنسان ثم خاف أن يخرج منها.

ولذلك لا ينبغي أن نسأل فقط: لماذا لا يتغير بعض الناس؟ بل ينبغي أن نسأل أنفسنا: ما الشيء الذي لو انكشفت لي الحقيقة فيه، سأجد صعوبة في الاعتراف؟ أي جزء من صورتني أخاف أن يُمس؟ ما الموقف الذي ربطت به كرامتي حتى صار الرجوع عنه مهيناً في نظري؟ ما القصة التي أكررها عن نفسي لأنها تجعلني دائماً في موضع الضحية أو الصواب؟

هذه الأسئلة ليست جلدًا للذات، بل أدوات تحرير.

لأن الإنسان لا يستطيع أن يتحرر من قيد لا يراه.

وقد تكون أعظم لحظات التحول هي اللحظة التي يصبح فيها الإنسان مستعداً لأن يخسر وهمه كي لا يخسر الحقيقة.

أن يقول: نعم، كنت أرى الأمر على نحو، والآن أراه على نحو آخر.

نعم، دافعت عن شيء ثم تبين لي خطؤه.

نعم، ظلمت.

نعم، بالغت.

نعم، صنعت قصة مريحة لنفسني.

نعم، ينبغي أن أعود.

عندها يحدث شيء عميق: لا يعود الاعتراف هزيمة، بل استرداداً للذات من يد الهوى.

لكن إذا كان بعض الناس يرفضون التحول لأنهم يخافون ثمن الحقيقة، فإن هناك نوعاً آخر من التحول يحتاج إلى تأمل خاص: التحول الذي يحدث بسرعة مذهلة، حين

تنقلب حياة إنسان في لحظة واحدة لأن الحقيقة وصلت إلى مركزه الداخلي دفعة واحدة.

وهنا تبرز قصة السحرة بوصفها واحدة من أكثر قصص التحول المفاجئ كثافة في القرآن.

دخلوا ساحة المواجهة وهم يطلبون أجر فرعون.

ونخرجوا منها وهم مستعدون لمواجهة بطشه.

ما الذي يمكن أن يحدث داخل الإنسان في لحظات قليلة حتى يصبح ما كان يريده قبل دقائق تافهاً في نظره؟

كيف يعيد اليقين ترتيب الخوف والرغبة والمصلحة والزمن في قلب الإنسان؟

هذا هو سؤال الفصل القادم:

الفصل الثامن

السحرة: حين تتغير حياة كاملة في لحظة

ثمة تحولات تحتاج إلى سنوات، وثمة تحولات تقع في لحظة واحدة لأنها لا تبدل رأياً جزئياً في حياة الإنسان، بل تعيد ترتيب مركز حياته كله. قد يعيش المرء طويلاً وهو يتحرك داخل منظومة كاملة من الرغبات والمصالح والتصورات، ثم يواجه حقيقة واحدة صافية تقلب ميزانه الداخلي، فيصغر أمامها ما كان كبيراً، وتسقط منها أشياء كان يظن أنه لا يستطيع العيش من دونها. وما كان يخيفه قبل دقائق يفقد قدرته على إخافته، وما كان يطلبه بشغف يصبح قليل القيمة، لأن شيئاً أكبر دخل القلب فجأة وأعاد ترتيب الأشياء كلها.

وهذا ما نراه في سحرة فرعون.

دخلوا ساحة المواجهة بعقلية واضحة جداً؛ كانوا يريدون الانتصار، ويريدون الأجر، ويريدون القرب من فرعون. سألوا: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾، فأجابهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. كانت المعادلة مكتملة: مهارة يقدمونها للسلطة، ومقابل ينتظرونه منها. لم يدخلوا المشهد باحثين عن الحقيقة، بل مشاركين في منافسة يريدون أن يخرجوا منها رابحين.

وهذا يجعل تحولهم أكثر إدهاشاً؛ لأنهم لم يكونوا في بداية المشهد أصحاب مشروع إيماني، ولا كانوا مترددين بين موسى وفرعون، بل كانوا جزءاً من المعسكر الذي استدعاه فرعون لمواجهة موسى. ومع ذلك لم يحتج الأمر إلا إلى انكشاف الحقيقة أمامهم حتى سقطت منظومة كاملة من داخلهم.

ألقوا حبالهم وعصيهم، وعرفوا ما يستطيع السحر أن يصنعه في أعين الناس. كانوا أهل الصنعة، ولذلك كان إدراكهم للفرق بين ما فعلوه وما وقع على يد موسى أعمق من إدراك الجمهور. وهنا تظهر دلالة مهمة: قد يكون أكثر الناس قدرة على معرفة الحقيقة هو من يعرف حدود الزيف من داخله. لأن من خبر الصناعة يعرف أين تنتهي الحيلة وأين يبدأ ما لا يستطيع تفسيره بأدواته القديمة.

وحين رأوا ما رأوا، لم يدخلوا في جدل طويل، ولم يطلبوا مهلة لإعادة الحسابات، ولم يقولوا: ماذا سيقول فرعون؟ ماذا سيحدث لمكانتنا؟ ماذا عن الأجر الذي وعدنا به؟ بل قال القرآن: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

تعبير مذهش.

كأن الحقيقة لم تدع لهم وقتاً ليصنعوا موقفاً متدرجاً منها.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾.

فعل مباغت في ظاهر النص، لكنه يكشف اكتمالاً سريعاً في الباطن. لقد عبرت الحقيقة عندهم من المعرفة إلى الخضوع بلا تلك المسافة الطويلة التي يختبئ فيها الإنسان عادة خلف التبرير والمصلحة والخوف.

وهنا تتجلى واحدة من خصائص التحول العميق: أنه حين يصل إلى مركز النفس لا يغير فكرة واحدة فقط، بل يعيد ترتيب سلم القيم كله. قبل لحظات كان الأجر مهماً، والقرب من فرعون مكسباً، والانتصار غاية، وبعد انكشاف الحقيقة فقدت هذه الأشياء مكانها السابق. لم تختف من الوجود، لكنها صغرت أمام شيء صار أكبر منها.

وهذا هو الفرق بين إضافة معلومة إلى الحياة وتغيير مركز الحياة. قد يعرف الإنسان شيئاً جديداً ويبقى كما هو، لأن المعلومة لم تمس مركز اختياراته. أما إذا وصل المعنى إلى هذا المركز، أعاد توزيع كل شيء من حوله.

ولهذا لم يعد السحرة هم أنفسهم بعد السجود.

الذين كانوا قبل قليل يسألون عن الأجر صاروا مستعدين لأن يخسروا الأجر كله.

والذين كانوا يطلبون القرب من فرعون صاروا قادرين على الوقوف في وجهه.

والذين دخلوا ليصنعوا له نصراً خرجوا من المشهد وقد أسقطوا هيئته من قلوبهم.

وهنا نفهم أن التغيير الحقيقي لا يُقاس فقط بما يضيفه الإنسان إلى معتقداته، بل بما يفقد الأشياء القديمة من سلطتها عليه.

قد تقول إنك تغيرت، لكن السؤال: ما الذي لم يعد يخيفك كما كان؟ ما الذي لم يعد يغريك كما كان؟ ما الذي لم يعد يملك قرارك كما كان؟

فالتغيير العميق يغير علاقة الإنسان بالأشياء أكثر مما يغير أسماءها.

كان فرعون يظن أن السلطان الذي يملكه على الأجساد يكفي للسيطرة على القلوب. لذلك جاء تهديده سريعاً وقاسياً: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. إنه يستدعي أقصى ما يملك: الألم، والتشويه، والموت العلني. فهو يفكر بمنطق السلطة القديمة: إذا كان الإنسان يخاف الحياة على نفسه، فأنت تملكه حين تملك تهديد حياته.

لكن شيئاً تغير في السحرة جعل هذا المنطق يفقد فاعليته.

قالوا: ﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

هذه الجملة تكشف مقدار التحول أكثر من مجرد إعلان الإيمان. لقد تغير مقياس الخوف نفسه. قبل قليل كان فرعون هو الذي يملك الأجر والمنزلة، والآن أصبح ما يملكه محدوداً في نظرهم بحدود الدنيا: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

لم ينقص سلطان فرعون خارجياً في اللحظة نفسها، لكن سلطانه انهار داخلهم. وهذا أحد أعمق وجوه الحرية: أن يفقد الشيء الذي كان يخيفك القدرة على التحكم في قرارك.

فالطاغية لا يعيش بقوة السيف وحدها، بل بمقدار المكان الذي يحتله في نفوس الناس. حين يصبح التهديد أكبر من الحقيقة، ينتصر التهديد. أما حين تصبح الحقيقة أكبر من الحياة نفسها، تتغير المعادلة كلها.

وهكذا فإن التحول الذي وقع في السحرة لم يكن انتقالاً من فكرة إلى فكرة فقط، بل انتقالاً من مركز خوف إلى مركز آخر، ومن مركز رجاء إلى مركز آخر، ومن مرجعية بشرية إلى مرجعية أعلى.

لقد تغيرت خريطة القلب.

ومن أبلغ ما في المشهد أن هذا التحول حدث أمام الناس. لم يكن لديهم وقت لصناعة صورة جديدة متأنية عن أنفسهم، ولا لإعادة بناء مصالحهم، ولا لترتيب مخارج آمنة. الحقيقة وضعتهم في لحظة واحدة أمام سؤال حاسم: ماذا ستفعلون الآن؟

وفي مثل هذه اللحظات يظهر معدن الإنسان.

فبعض الناس يؤجلون الحق حتى يصبح أقل كلفة.

يقول: أعرف أنه حق، لكن الوقت غير مناسب.

أقتنع، لكن لا أستطيع أن أصرح الآن.

سأغير موقفني حين تصبح الظروف أفضل.

وقد يكون في بعض التأني حكمة أحياناً، لكن هناك مواضع يصبح فيها التأجيل نفسه نوعاً من الخيانة الداخلية؛ لأن الإنسان لا يؤجل فقط الإعلان، بل يؤجل الخضوع لما عرف.

أما السحرة فلم يفاوضوا أنفسهم طويلاً.

وحين جاءت الحقيقة كاملة، جاءت استجابتهم كاملة.

وهذا يعلمنا أن بعض أعظم لحظات الإنسان هي اللحظات التي لا يسمح فيها للحسابات الصغيرة أن تفسد وضوح الحقيقة الكبيرة.

غير أن سرعة التحول لا تعني سطحه. قد نظن أن ما يحدث بسرعة أقل رسوخاً مما يحدث ببطء، لكن هذا غير صحيح دائماً. فالزمن ليس المقياس الوحيد للعمق. قد يعيش إنسان سنوات حول الحقيقة ولا تدخل قلبه، وقد يحتاج آخر إلى لحظة واحدة يرى فيها الأمر من أصله.

فالسحرة لم يملكوا وقتاً طويلاً، لكنهم ملكوا شيئاً آخر: وضوحاً حاسماً.

والوضوح حين يدخل القلب قد يختصر سنوات من التردد.

وهذا ما يحدث أحياناً في حياة الإنسان؛ يقرأ جملة طالما مر على معناها، ثم تصيبه في يوم بطريقة مختلفة. يسمع آية يعرفها منذ سنوات، لكنها هذه المرة تدخل إلى موضع لم تصل إليه من قبل. يمر بتجربة واحدة تعيد تفسير عشرين عاماً من حياته. لا يكون الجديد دائماً في المعلومة، بل في موضع استقبالها.

والتحول الكبير يحدث حين يلتقي المعنى بالموضع المستعد له في النفس.

وثمة بعد آخر شديد الأهمية في قصة السحرة: أنهم لم يكتفوا بالتحول عن فرعون، بل أعادوا قراءة أنفسهم أيضاً. قالوا: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ السِّحْرِ﴾. لم يكن الإيمان عندهم مجرد إعلان ولاء جديد، بل أصبح مرآة يرون فيها الماضي بطريقة مختلفة.

وهذه علامة متكررة في التحول الحقيقي: حين يتغير الإنسان، يتغير تفسيره لماضيه.

أشياء كان يراها نجاحات قد يراها بعد ذلك مواضع غفلة.

وأشياء كان يفتخر بها قد ينجعل من معناها.

وأشياء كان يظنها خسائر قد يكتشف أنها كانت إنقاذاً.

ليس الماضي هو الذي تغير، بل العين التي تقرأه.

وهذا من أشد أنواع التحول عمقاً؛ لأن الإنسان لا يعيد بناء حاضره فقط، بل يعيد تنظيم ذاكرته نفسها تحت ضوء جديد.

وقد يكون السؤال الأهم هنا: كيف استطاع السحرة أن يتخلوا بهذه السرعة عن كل ما كانوا فيه؟

الجواب لا يكمن في أنهم لم يكن لديهم ما يخسرونه؛ بل كانوا يملكون ما يخسرونه فعلاً: الأجر، والقرب، والمكانة، وربما الحياة. لكن الحقيقة أعادت ترتيب قيمة هذه الأشياء. وهذا هو السر.

فالإنسان لا يترك ما يحبه دائماً لأنه كف عن محبته بالكلية، بل لأنه وجد ما هو أحب. ولا يواجه الخوف لأنه صار غير قادر على الإحساس به، بل لأنه وجد ما هو أعظم من الخوف.

ولهذا فإن التربية الأخلاقية لا تنجح فقط بكثرة التحذير من الشر، بل بصناعة معنى أكبر من إغراء الشر.

ومن هنا نفهم لماذا يكون الإيمان في صورته العميقة إعادة ترتيب للمحبة والخوف والرجاء، لا مجرد مجموعة من المعلومات. إذا بقيت الأشياء القديمة في القلب بالقيمة نفسها، فلن تغير المعرفة وحدها السلوك طويلاً.

أما حين يتغير الميزان الداخلي، فإن الاختيارات تبدأ بالتغير من تلقاء نفسها. وهذا يقودنا إلى فهم أعمق للتحويل: الإنسان لا يترك دائماً عاداته القديمة بقوة المنع، بل قد يتركها حين تصغر في عينه. وهذه قاعدة نافعة جداً في فهم النفس.

قد تحارب رغبة سنوات، ثم تدخل حياتك قيمة أكبر تجعل تلك الرغبة أقل حضوراً. قد تستغرقك المنافسة، ثم تكتشف معنى يجعل المنافسة نفسها صغيرة. قد تخشى رأي الناس طويلاً، ثم تعرف نفسك أمام الله بطريقة تجعل رضاهم أقل سلطاناً عليك.

إن بعض القيود لا تنكسر بالمواجهة المباشرة، بل حين يكبر في القلب شيء آخر حتى تضيق بها المساحة.

وهذا ما وقع للسحرة: كبر الحق حتى صغر فرعون. كبر اليقين حتى صغر التهديد.

كبر ما وراء الدنيا حتى ضاقت الدنيا عن أن تكون كل شيء.

ولهذا جاءت عبارتهم: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

كلمتان تغيران ميزان الحياة كله: خير، وأبقى.

القضية ليست فقط أن هناك شيئاً خيراً، بل أنه أبقى أيضاً. وهنا يدخل الزمن مرة أخرى في بناء الاختيار. ما يملكه فرعون مؤقت، وما عند الله أبقى. ما يخافونه في أجسادهم منته، وما يرجونه أبقى. وما كانت تملكه الدنيا من قدرة على إخافتهم كان جزء كبير منه قائماً على وهم أنها كل شيء؛ فلما انفتح أمامهم الأفق الآخر، تغيرت قيمة الدنيا من غير أن تتغير طبيعتها.

وهذه واحدة من أعظم وظائف الإيمان بالآخرة في تشكيل الإنسان: أنه يحرره من احتكار اللحظة الحاضرة لمعنى الحياة.

إذا كانت الدنيا هي كل شيء، يصبح فقدها فقداً لكل شيء.

أما إذا كانت مرحلة من وجود أطول، فإن الخوف يُعاد ترتيب حجمه.

ولذلك استطاعوا أن يقولوا: ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

لم ينكروا الألم، لكنهم حددوا مداه.

وهذه قوة هائلة.

فالشيء المخيف يصبح أكثر احتمالاً حين نعرف حدوده.

وهنا يمكن أن نقارن بين السحرة وفرعون في اللحظة نفسها. هم خسروا الدنيا في الظاهر وربحوا حريتهم من داخلها، وهو تمسك بالدنيا وظل أسيراً لها. هم كانوا تحت سلطانه خارجياً لكنهم تحرروا منه داخلياً، وهو كان صاحب السلطان الخارجي لكنه عبد لصورته ومكانته وخوفه من سقوط ملكه.

وهذه مفارقة تكشف أن الحرية ليست مرتبطة دائماً بمن يملك القرار الظاهر.

قد يكون الإنسان مقيد الدين، لكنه حر القلب.

وقد يملك الآلاف، لكنه عاجز عن مخالفة الهوى الذي يسوقه.

ومن هنا فإن التحول الحقيقي هو انتقال في السيادة الداخلية: من يحكم القرار في النهاية؟

الخوف؟

المصلحة؟

الكبرياء؟

العادة؟

أم الحقيقة؟

ولعل من أعظم ما تتعلمه من السحرة أن الماضي لا يمنع البداية الجديدة مهما كان قريباً. قبل دقائق كانوا في الجهة الأخرى، ومع ذلك لم يقل القرآن: لقد تأخرتم. لم يصبح قريهم الزمني من الباطل حجة ضد صدق انتقلهم إلى الحق.

وهذا يفتح نافذة رجاء واسعة في فهم الإنسان.

فقد يكون بين نسختين متناقضتين من الإنسان موقف واحد صادق.

ليس شرطاً أن تستغرق العودة زمناً يماثل زمن الضياع.

قد يضيع الإنسان سنوات ثم يعرف طريقه في يوم.

وقد يعيش طويلاً في معنى ثم يخرج منه حين يرى بطلانه.

العبرة ليست بطول المدة التي أقام فيها في المكان القديم، بل بصدق خروجه منه حين تتكشف له الحقيقة.

وهذا لا يجعل التحول سهلاً، لكنه يجعله ممكناً.

لكن هذا النموذج يفتح سؤالاً آخر. إذا كان الإنسان يستطيع أن يتغير في لحظة، فهل يظل التغيير ثابتاً من غير بناء بعد تلك اللحظة؟ وهل تكفي لحظة الانكشاف وحدها لبناء شخصية جديدة، أم أن كل تحول - مهما كان قوياً في بدايته - يحتاج بعد ذلك إلى تثبيت ومعنى وممارسة؟

في قصة السحرة جاءت النهاية سريعة، فلم نر تفاصيل حياة طويلة بعد التحول. لكن في نماذج أخرى من القصص القرآني نرى التحول وهو يتحول إلى مسار، ويصبح القرار الأول بداية لبناء ممتد.

وهنا تبرز شخصية بلقيس.

فهي لا تدخل القصة كمدنية في المعنى نفسه الذي دخل به إخوة يوسف، ولا كتحدٍ صريح للحقيقة مثل فرعون، بل كشخصية تراقب، وتسأل، وتختبر، وتقرأ القرائن، ثم تعيد بناء موقفها كلها ظهرت لها حقيقة جديدة. إن تحولها مختلف.

ليس انفجاراً وجدانياً مفاجئاً، بل نمو في الوعي.

وهذا نموذج آخر بالغ الثراء للشخصية المتحوّلة:

الإنسان الذي لا يخاف أن يعدّل موقفه كلها اتسعت معرفته.

وهذا هو الفصل التالي:

الفصل التاسع

بلقيس: حين يبدأ التحول من القدرة على المراجعة

ليست كل التحولات وليدة خطيئة أو انهيار. بعضها يبدأ من شيء أهدأ وأعمق: من استعداد الإنسان لأن يعيد النظر في موقفه كلما اتسعت معرفته. وهذا النوع من التحول يحتاج إلى قدر كبير من التوازن؛ لأن بعض الناس يتمسكون بآرائهم لا لقوة الحجة، بل لأنهم يرون التراجع عنها نقصاً في الهيبة. أما الشخصية الناضجة فنفهم أن تعديل الموقف حين تتغير المعطيات ليس ضعفاً، بل علامة على أن الإنسان لم يجعل رأيه القديم صنماً يدافع عنه بعد أن يتجاوزه الواقع.

وتقدم لنا بلقيس نموذجاً واضحاً لهذا النوع من التحول. فهي لا تدخل القصة في صورة امرأة ساذجة، ولا في صورة مستبدة مغلقة، بل في صورة ملكة تملك دولة ومجلساً وقوة، ومع ذلك لا تجعل سلطتها مانعاً من السؤال، ولا مكانتها سبباً في رفض ما لا تعرفه. حين وصلها كتاب سليمان لم تستجب بانفعال، ولم تتخذ القرار منفردة، بل قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾. وهذه الجملة تكشف من البداية بنية نفسية قابلة للمراجعة؛ فهي صاحبة قرار، لكنها لا ترى أن امتلاك القرار يلغي حاجتها إلى الرأي.

وهذه نقطة شديدة الأهمية في التحول الإنساني: أن بعض الناس لا يتغيرون لأنهم لا يسمحون بدخول شيء جديد إلى وعيمهم. يغلِقون الدائرة من البداية، ويجعلون كل مشورة تهديداً، وكل اعتراض انتقاصاً، وكل معلومة جديدة إرباكاً لصورتهم. أما بلقيس فتفعل العكس؛ تفتح دائرة النظر قبل أن تغلق دائرة القرار. ومن هنا يبدأ النضج.

فالإنسان الذي يريد أن يتغير لا بد أن يحتفظ في داخله بمساحة لمعلومة لم يعرفها بعد، ولرأي قد يصحح رأيه، ولواقعة قد تكشف له قصور تصوره الأول. أما الذي يقرر سلفاً أن الحقيقة لا يمكن أن تأتي من خارج ما يعتقده، فقد أغلق باب التحول قبل أن يبدأ. ثم إن بلقيس لا تقف أمام خطاب سليمان بعقلية انفعالية فقط، بل تستدعي خبرتها التاريخية والسياسية: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً﴾. إنها لا تستقبل الحدث بلا معيار، بل تقيسه على ما تعرفه من سنن القوة والملك. وهذا يكشف أن التحول الحقيقي لا يعني تعطيل الخبرة، بل استعمالها ثم تجاوز حدودها حين تظهر حقيقة أوسع منها.

فالإنسان الناضج لا يطلب منه أن يرمي كل ما تعلمه كلها واجه جديداً، وإنما أن يعرف حدود معارفه السابقة. قد تكون الخبرة صحيحة في نطاقها، لكنها لا تفسر كل شيء. والمشكلة تبدأ حين يحول الإنسان تجربته الجزئية إلى قانون مطلق، فيقيس كل مستقبل على ماضٍ محدود.

بلقيس فعلت شيئاً أكثر ذكاءً؛ استخدمت خبرتها، لكنها لم تغلق باب الاختبار. ولهذا قالت بعد ذلك إنها سترسل هدية وتنتظر بم يرجع المرسلون. لقد قررت أن تختبر طبيعة سليمان قبل أن تحدد طبيعة المواجهة. ليست مستعجلة في الحرب، ولا مستسلمة للخوف، بل تجمع بين الحذر والانفتاح.

وهذه من علامات الشخصية المتحوّلة: أنها لا تنصرف كما لو أن أول تفسير هو آخر تفسير.

الإنسان يتعرّ كثيرًا حين يقع في أسر الانطباع الأول. يرى موقفًا فيحكم، يسمع كلمة فيفسر، يلتقي شخصًا فيضعه داخل صورة، ثم يستمر بعد ذلك في حماية حكمه الأول

حتى لو ظهرت قرائن جديدة تناقضه. والسبب أن الاعتراف بأن الانطباع الأول كان ناقصاً يبدو لبعض النفوس اعترافاً بضعف الفهم.

لكن العقل الحلي لا يُججل من التحديث.

بلقيس لم تكن تعرف سليمان معرفة كاملة، ولذلك لم تتعامل مع معرفتها الناقصة كأنها يقين. وهذه خصلة معرفية بالغة القيمة: أن تعرف مقدار ما تعرف، ومقدار ما لا تعرف.

فالجعل الصريح أقل خطراً من المعرفة الناقصة حين تنكر في صورة اليقين.

وحين جاءت نتيجة الهدية، ظهر أمامها أن الرجل الذي تخاطبه لا يتحرك بمنطق الملوك الذي تعرفه. فالهدية التي يمكن أن تؤثر في ملك عادي لم تغير موقف سليمان. وهنا بدأت صورة جديدة تتشكل.

وهذا هو موضع التحول: حين تكتشف النفس أن النموذج الذي استعملته لفهم الواقع لم يعد كافياً.

يمكن للإنسان عند هذه اللحظة أن يفعل واحداً من أمرين: إما أن يزيد من تشويه الواقع حتى يظل نموذجه القديم صالحاً، وإما أن يعدل النموذج نفسه.

الأول هو طريق التصلب.

والثاني هو طريق النضج.

وبلقيس اختارت الثاني.

ومن هنا لا تبدو رحلتها إلى سليمان مجرد انتقال جغرافي، بل انتقال في الوعي. كل مرحلة تكشف لها شيئاً جديداً. وكل معلومة تزيج جزءاً من الصورة القديمة. وهذا النوع

من التحول أهدأ من تحول السحرة، لكنه لا يقل عمقاً؛ لأنه يقوم على تراكم الإدراك بدل الانفجار المفاجئ.

وهذه نقطة مهمة في فهم الناس: ليس كل تحول صادقاً يجب أن يكون درامياً. بعض أعظم التحولات لا يصاحبها بكاء ولا صدمة ولا مشهد ظاهر، بل تحدث داخل العقل بهدوء. فكرة تراجع، وأخرى نتقدم، وموقف يلين، وبقين قديم يتصدع، حتى يجد الإنسان نفسه بعد زمن في موضع لم يكن يتخيل أنه سيصل إليه. ولهذا لا ينبغي أن نستخف بالتغيرات الهادئة.

قد يكون الإنسان الذي بدأ يسأل قد بدأ بالفعل يتحول. السؤال أحياناً أول شرخ في الجدار القديم.

وحين وصلت بلقيس إلى سليمان دخلت في اختبار جديد يتعلق بعرشها. قال لها: ﴿أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ فقالت: ﴿كَانَهُ هُوَ﴾. وهذه العبارة من أجمل عبارات التوازن المعرفي. لم تقل: هو، من غير بيئة كاملة، ولم تقل: ليس هو، لأن المشهد أربك توقعاتها. اختارت صيغة تتسع لليقين الناقص: ﴿كَانَهُ هُوَ﴾. وهذه دقة عجيبة في اللغة وفي الوعي.

فالإنسان الناضج لا يضطر دائماً إلى إجابة قاطعة حين تكون معرفته غير قاطعة. يستطيع أن يبقي الاحتمال مفتوحاً. وهذا نوع من الأمانة العقلية التي نفتقدها حين يجبر الإنسان نفسه على اليقين فيما لا يملك فيه إلا ظناً.

وهنا تظهر بلقيس مرة أخرى كشخصية قابلة للتحول لأنها لا تعبد يقينها الخاص.

هي تعرف متى تجزم، ومتى تتحفظ، ومتى تنتظر.

ثم يأتي مشهد الصرح، وهو من أكثر مشاهد القصة كثافةً في التحول الإدراكي: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾. هنا تخطئ بلقيس في الإدراك الحسي نفسه، ثم يُقال لها: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾.

الآية تقدم لنا مشهداً بالغ الرمزية من جهة المعنى الإنساني: ليس كل ما تراه العين هو حقيقة الشيء، وقد يخطئ الإدراك المباشر كما يخطئ الحكم العقلي. والانسان الذي يستطيع أن يصحح فهمه في موضع صغير يصبح أكثر استعداداً لتصحيح فهمه في موضع أكبر.

وفي تلك اللحظة تقول بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

وهنا يكتمل مسار التحول.

من ملكة تتلقى كتاباً من رجل بعيد، إلى إنسانة تعترف أمام رب العالمين بأنها ظلمت نفسها.

وتعبير ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ شديد الدلالة. فهي لا تبدأ بإلقاء الخطأ على قومها، ولا على البيئة، ولا على الموروث، ولا على النظام الذي نشأت فيه، مع أن هذه العناصر كلها قد تكون جزءاً من السياق. بل تصل إلى مركز المسؤولية الشخصية.

وهذا يذكرنا بما قلناه سابقاً: التحول الحقيقي يبدأ حين يتوقف الإنسان عن استخدام السياق لإلغاء مسؤوليته. يستطيع أن يفهم كيف وصل إلى ما كان عليه، لكنه لا يجعل هذا الفهم ذريعة لعدم التغيير.

ثم تأتي العبارة: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾.

لم تقل: أسلمت لسليمان.

وهذا فارق بالغ الأهمية.

التحول هنا ليس انتقالاً من الخضوع لسلطة إلى الخضوع لسلطة بشرية أخرى، بل انتقال إلى الله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وسليمان ليس نهاية الطريق، بل دليل على الطريق.

وهذا يحرر التحول من التبعية الشخصية.

فالتحول الصحيح لا يجعل الإنسان أسير الشخص الذي هداه إلى الحقيقة، بل يجعله أكثر اتصالاً بالحقيقة نفسها.

وهذا معنى مهم في كل عملية تغيير: قد يكون شخص ما سبباً في أن ترى ما لم تره، لكن لا ينبغي أن يتحول إلى بديل عن الحقيقة التي دلك عليها. فالمعلم، والقائد، والداعية، والصديق، والكاتب، والتجربة؛ كلها أبواب. وإذا تحولت الأبواب إلى غايات، انتقل الإنسان من أسر إلى أسر.

بلقيس لم تستبدل عبادة الشمس بعبادة سليمان، بل وصلت إلى ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وهنا اكتمال التحول.

ولعل أجمل ما في هذا النموذج أنه يكسر تصوراً شائعاً عن القوة: كأن القوي هو الذي لا يراجع نفسه. والحقيقة أن بعض أقوى الشخصيات هي أقدرها على المراجعة؛ لأن التراجع عن الخطأ يحتاج إلى أمن داخلي. الضعيف قد يتشبث برأيه لأنه يخشى أن يفقد نفسه إذا تركه، أما الواثق فيستطيع أن يقول: كنت مخطئاً، ولا ينهار.

بلقيس كانت ملكة قبل أن تتغير، ولم يصبح تحولها إلغاءً لشخصيتها، بل كان ارتقاء بها. وهذا درس مهم: التغيير لا ينبغي أن يسحق ذات الإنسان، بل أن يطهرها من الوهم ويعيدها إلى موضعها الصحيح.

ومن هنا يمكن القول إن المراجعة ليست نقيض الثبات دائماً. قد تكون هي الطريق إلى الثبات الحقيقي. لأن الثبات على الحق لا يعني الثبات على كل ما ظنه الإنسان حقاً في مرحلة ما، بل أن يظل مستعداً للانتقال إلى الحق كلما تبين له.

وهذا فرق جوهري.

الثبات على المبدأ شيء.

والجمود على الفهم شيء آخر.

قد يثبت الإنسان على طلب الحقيقة، لكنه يغير فهمه كلما اتسعت معرفته. وهذا ليس تناقضاً، بل نمو.

أما الذي لا يغير شيئاً أبداً فقد لا يكون ثابتاً بقدر ما يكون خائفاً من المراجعة.

والشخصية المتحوّلة من هذا النوع تملك ثلاث خصال واضحة: أنها تستشير، وتختبر، وتراجع. لا تقفز من أول معلومة إلى آخر حكم، ولا تجعل مكانتها مانعاً من التعلم، ولا ترى التراجع عن الخطأ انتقاصاً.

وهذه الخصال ليست فكرية فقط، بل أخلاقية؛ لأن التواضع المعرفي أخلاق قبل أن يكون منهجاً.

أن تقول: لا أعلم.

أن تقول: ربما كنت مخطئاً.

أن تقول: هذا جديد عليّ.

أن تقول: يجب أن أعيد النظر.

هذه الجمل الصغيرة قد تكون في حياة الإنسان أعظم من خطابات طويلة عن الحكمة.

وإذا قارنا بلقيس بفرعون بدا الفرق واضحاً. كلاهما صاحب سلطة. وكلاهما واجه نيباً يحمل رسالة تتجاوز الملك الأرضي. لكن أحدهما جعل السلطة حاجزاً بينه وبين الحقيقة، والآخر لم يفعل.

فرعون كان يرى في كل جديد تهديداً لمركزه.

وبلقيس كانت ترى في الجديد سؤالاً يستحق الفحص.

فرعون احتاج إلى أن يبقى هو الأعلى.

وبلقيس استطاعت أن تعترف برب العالمين.

وهذا يبين أن المشكلة ليست في القوة نفسها، بل في علاقة النفس بالقوة.

قد تمنح القوة الإنسان مساحة أوسع للخير، وقد تتحول إلى جدار يمنعه من الاعتراف.

وهذا يجعل بلقيس نموذجاً مهماً جداً في كتابنا؛ لأنها تكشف أن التحول ليس دائماً رحلة خروج من فساد أخلاقي مباشر، بل قد يكون رحلة خروج من قصور الإدراك. قد يكون الإنسان حسن النية، متزناً، عاقلاً، ومع ذلك يحتاج إلى أن يرى ما هو أكبر من أفقه الحالي.

وهنا تصبح الشخصية المتحوّلة شخصية تعرف أن النضج لا ينتهي.

فالإنسان لا يحتاج إلى التوبة فقط من الشر، بل يحتاج أحياناً إلى التوبة من ضيق الرؤية.

من أن يظن أن تجربته هي العالم.

وأن فهمه هو الحقيقة كلها.

وأن ما لم يعرفه لا وجود له.

وقد يكون هذا من أجمل أنواع التواضع: أن تعرف أن العالم أوسع من تجربتك، وأن الحقيقة أوسع من تصوراتك، وأنتك مهما بلغت من عقل أو سلطة أو خبرة فلا تزال قادراً على أن تتعلم.

والإنسان الذي يحتفظ بهذه القابلية يظل حياً من الداخل.

أما الذي أغلق باب المراجعة فقد يبدأ الشيخوخة الروحية والعقلية ولو كان صغير السن.

ثم إن تحول بلقيس يثير سؤالاً جديداً: إذا كان بعض الناس يتغيرون بالحنة، وبعضهم بالصدّات، وبعضهم بالخبرة، فهل هناك نوع من التحول يحدث حين يرى الإنسان صورته في مرآة الألم نفسه؟

هنا نقترّب من نموذج آخر، أكثر مرارة وتعقيداً: الإنسان الذي يتغير لا لأنه اقتنع فقط، بل لأن الحياة أعادته إلى موضع يشبه ما صنعه بغيره، فكشفت له من الداخل ما لم يكن يراه من الخارج.

وهذا يعيدنا مرة أخرى إلى إخوة يوسف، لكن من زاوية مختلفة: من زاوية المحنة بوصفها مرآة أخلاقية.

كيف يمكن للألم أن يكشف الإنسان لنفسه؟

ومتى يصبح الألم مدرسة، ومتى يتحول إلى مجرد جرح جديد؟

هذا هو الفصل التالي:

الفصل العاشر

الحنّة بوصفها مرآة: حين يرى الإنسان نفسه من الجهة الأخرى

ليست الحنّة خيراً في ذاتها لمجرد أنها تؤلم، كما أن الألم لا يحمل في داخله ضماناً بأن يصنع إنساناً أفضل. قد يمر اثنان بالتجربة نفسها، فيخرج أحدهما منها أكثر فهماً ورحمة، بينما يخرج الآخر أكثر قسوة وريبة وانغلاقاً. ليست النار وحدها هي التي تصنع المعدن؛ بل طبيعة المعدن، وما يحدث له تحت النار، وما إذا كان قادراً على أن يعيد تشكيل نفسه بعد أن تكشف الحرارة مواضع ضعفه. ولهذا فإن الحديث عن الحنّة بوصفها مدرسة ينبغي أن يكون دقيقاً؛ لأن بعض الناس يدخلون الألم فيتعلمون، وبعضهم يدخلونه فيغرقون، وبعضهم يحول جرحه إلى بصيرة، وبعضهم يحوله إلى مبرر لجرح الآخرين.

قيمة الحنّة الأخلاقية لا تكمن إذن في مقدار الوجع، بل في مقدار ما تكشفه للإنسان عن نفسه. قد يعيش الإنسان سنوات وهو يظن أنه صبور لأنه لم يُجرح، وكريم لأنه لم يحتج، وعادل لأنه لم يملك فرصة الانتقام، ومتواضع لأنه لم يُمنح موقعاً يستثير كبرياءه، ثم تأتي التجربة فتضعه في موضع مختلف، فيكتشف أن كثيراً من الصفات التي نسبها إلى نفسه لم تكن قد اختُبرت أصلاً. وفي هذه اللحظة تصبح الحنّة مرآة: لا تخلق كل ما يظهر فيها، لكنها تكشف ما كان مستتراً.

وقد تكون أشد المرايا صدقاً تلك التي تضع الإنسان في الجهة الأخرى من التجربة. الذي كان قوياً يصير محتاجاً، والذي كان يحكم يصير محكوماً عليه، والذي كان يرفض العذر يحتاج يوماً إلى من يعذره، والذي استهان بألم غيره يذوق ألماً من جنسه، لا بالضرورة على سبيل العقوبة المباشرة، بل لأن الحياة تنقل الناس بين المواقع، وما يراه الإنسان من موضع قد يبدو مختلفاً تماماً حين يراه من الجهة المقابلة.

وهنا يصبح الألم أداة معرفة.

فمن السهل أن تتحدث عن الفقر وأنت غني، وعن المرض وأنت صحيح، وعن الوحدة وأنت محاط، وعن الخوف وأنت آمن، وعن الضعف وأنت ممسك بمقاليذ القوة. المعرفة من الخارج شيء، ومعرفة التجربة من الداخل شيء آخر. ولذلك فإن بعض الناس لا تتغير أحكامهم على الآخرين إلا حين يمرون بما مر به الآخرون. ليس لأن العقل لم يكن قادراً على الفهم، بل لأن التجربة نقلت المعرفة من الرأس إلى الوجدان. وهذه النقطة شديدة الأثر.

أن تعرف أن الإنسان يتألم شيء، وأن تعرف من داخلك كيف يبدو الألم شيء آخر. أن تعرف أن فقد صعب شيء، وأن تستيقظ يوماً فلا تجد من كنت تظنه جزءاً ثابتاً من حياتك شيء آخر. أن تعرف أن الظلم قاسٍ شيء، وأن ترى أبوابك تضيق لأن قراراً ظالماً صدر بحقك شيء آخر.

التجربة تمنح المعنى مكافئة لم تكن موجودة من قبل.

لكن السؤال يبقى: ماذا نفعل بهذه المكافئة؟

يمكن للمحنة أن تجعل الإنسان أكثر رحمة إذا سمح لها بأن توسع خياله الأخلاقي. فالذي تألم يستطيع أن يتخيل ألم غيره بدرجة أعمق، والذي احتاج يعرف معنى اليد الممتدة، والذي عاش الخوف يعرف كم يكون الأمان نعمة. هنا تتحول المعاناة إلى نافذة على الآخرين، ولا تعود القصة: «أنا تألمت»، بل تصبح: «الآن أفهم شيئاً من ألم الناس».

وهذا من أجمل التحولات التي يمكن أن تصنعها المحنة.

أن ينتقل الإنسان من مركزية جرحه إلى حساسية أكبر تجاه الآخرين.

لكن المحنة قد تفعل العكس تماماً إذا بقي الإنسان يدور حول نفسه. عندئذ تتحول التجربة إلى حجة يقول بها: أنا عانيت، ومن حقي أن أكون قاسياً. أنا لم يرحمني أحد، فلماذا أرحم؟ أنا لم يساعدني أحد، فليتعلم الآخرون كما تعلمت. وهكذا يصبح الألم أصلاً لأخلاق مضادة، ويبدأ المظلوم في إعادة إنتاج ما كان يكرهه.

وهنا يكمن أحد أخطر أشكال الفشل في التحول: أن يتحول الجرح إلى فلسفة.

أن يصبح ما وقع على الإنسان مبرراً لما يوقعه بغيره.

وأن يعتقد أن العدالة تعني أن يمر الآخرون بما مر هو به.

لكن الألم لا يكتسب شرعيته لمجرد أنه تكرر.

والقهر لا يصبح تربية لأنه انتقل من جيل إلى جيل.

ومن أعظم انتصارات الإنسان على ماضيه أن يقرر أن ما آله لن يجعله سبباً لألم مشابه في حياة غيره.

وهذا يعيدنا إلى يوسف.

فالجب كان يمكن أن يصنع فيه قسوة.

والرق كان يمكن أن يملأه بشعور دائم بالمهانة.

والسجن كان يمكن أن يغذي داخله رغبة في الانتقام من عالم ظلمه.

لكنه خرج من هذه المواضع جميعاً من غير أن يجعلها أخلاقاً.

وهذه نقطة في غاية العمق: الإنسان لا يملك دائماً ما يحدث له، لكنه يملك - بدرجات واسعة - ما الذي يسمح لما حدث أن يصنعه فيه.

قد لا تستطيع منع الجرح، لكنك تستطيع أن تقاوم أن يتحول إلى هوية.
قد لا تستطيع تغيير الماضي، لكنك تستطيع أن ترفض أن يصبح الماضي دستوراً
لمستقبلك.

وهذا هو معنى السيادة على التجربة.

ليس أن تنكر أنها آلتك، بل أن تمنعها من تحديد كل ما ستكونه بعدها.
وإذا نظرنا إلى إخوة يوسف رأينا صورة أخرى للمحنة. لقد عادوا إلى مصر وهم
محتاجون، وقالوا: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرُّ﴾. هذا الموقف وحده يضعهم في جهة مختلفة من
الحياة. الرجال الذين كانوا يوماً قادرين على اتخاذ قرار مصيري بشأن أخ صغير، صاروا
الآن يقفون في موضع الطلب. وليس المقصود أن الحاجة عاقبتهم بطريقة حسائية
بسيطة، بل أن الحاجة كسرت شيئاً من وهم الاستغناء الذي كان حاضراً في بداية
القصة.

في أول المشهد قالوا: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾. في آخره يقولون: ﴿وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ﴾.

بين الجملتين تاريخ طويل من التغيير.

في الأولى حضور للقوة والعدد.

وفي الثانية اعتراف بالنقص والحاجة.

والإنسان حين ينتقل من الشعور بالكفاية إلى الشعور بالحاجة يرى العالم بطريقة أخرى.
لا لأن الحاجة فضيلة في ذاتها، بل لأنها تكشف له أن ما حسبه ثابتاً كان هشاً، وأن
قدرته محدودة، وأن الحياة لا تمنح أحداً ضماناً دائماً بالبقاء في الموقع نفسه.

وهذه المعرفة تصنع التواضع إذا استقبلها القلب بصدق.

ومن هنا فإن المحنة قد تعيد ترتيب علاقتنا بالناس. الشخص الذي كنا نراه من بعيد مجرد رقم في قصة عامة يصبح مفهوماً بصورة أعمق حين نذوق شيئاً من تجربته. قد يقرأ الإنسان عن الحزن سنوات، ثم يفقد عزيزاً فيفهم فجأة لماذا يصمت بعض الناس طويلاً. وقد يسمع عن الفقر، ثم تضيق عليه اليد فيعرف كم يكون السؤال عن المال مهنياً أحياناً، وكم يكون العطاء الذي يحفظ الكرامة مختلفاً عن العطاء الذي يجرحها.

وهكذا تضيف التجربة طبقة جديدة إلى المعرفة.

لكن النضج لا يعني أن يقول الإنسان: لأنني مررت بهذا فقد فهمت كل من يمر به. فحتى الألم نفسه يختلف من نفس إلى نفس، والسياقات لا تتطابق. ولذلك فإن التجربة ينبغي أن تجعل الإنسان أكثر تواضعاً، لا أكثر ادعاءً للفهم.

من ذاق شيئاً من الألم لا يملك كل خرائط الألم.

لكنه يملك سبباً إضافياً كي يكون أقل قسوة.

وقد يكون من أشد ما تكشفه المحنة علاقتنا بالله. ففي أوقات السعة يستطيع الإنسان أن يبني حول نفسه إحساساً بالاستقلال، وأن يتعامل مع النعم كأنها جزء طبيعي من تكوين العالم. لكنه حين تسقط بعض الوسائط، ويعجز عن إصلاح ما يريد، يدرك حدود قدرته. هنا قد تنفتح النفس على معنى الافتقار بطريقة لم تكن متاحة في الرخاء.

وليس المقصود أن الله لا يُعرف إلا في الألم، بل إن الألم يكشف أحياناً مقدار الوهم الذي كان الإنسان يعيش فيه عن قدرته واستقلاله. فجأة يعرف أن الصحة ليست ملكاً شخصياً، وأن الأحبة ليسوا مضمونين، وأن المال لا يمنع كل خسارة، وأن التخطيط مهما بلغ لا يملك الغد.

وهذا الإدراك قد يكون بداية توحيد أعمق في الوعي: أن ترى الأسباب في مواضعها من غير أن تمنحها ما ليس لها.

لكن المحنة قد تولد اعتراضاً مريراً إذا قرأها الإنسان قراءة مغلقة. قد يقول: لماذا أنا؟ لماذا حدث هذا؟ لماذا لم يُصرف عني؟ وهذه الأسئلة ليست في ذاتها دليل فساد؛ فالإنسان يتألم ويسأل، والسؤال جزء من محاولة الفهم. لكن الخطورة تبدأ حين يتحول السؤال من طلب للمعنى إلى محاكمة للوجود كله، وحين يجعل الإنسان تجربته الفردية معياراً للحكم على الحكمة.

هنا يحتاج الوعي إلى اتساع.

فالإنسان يرى فصلاً، لا الكتاب كله.

يرى لحظة، لا المسار كله.

ويرى ما وقع به، لكنه لا يحيط بكل ما صُرف عنه، ولا بكل ما سترتب على ما وقع. وهذه ليست دعوة إلى إلغاء الألم بشعار سهل، بل إلى الاعتراف بحدود الإدراك. قد تبقى بعض التجارب مؤلمة حتى بعد أن نفهم جزءاً من حكمتها، وقد لا نفهم كثيراً منها في الدنيا أصلاً. لكن الإيمان يمنح الإنسان مساحة يعيش فيها مع السؤال من غير أن يسقط في العدم.

ومن أهم ما تصنعه المحنة أنها تكشف للإنسان من يقف معه ومن يتركه. وهذه المعرفة قد تغير علاقاته كلها. ففي الرخاء تتكاثر الروابط، لكن الشدة تفرزها. ومع ذلك فهنا أيضاً ينبغي الحذر؛ لأن الألم قد يدفع الإنسان إلى أحكام قاسية وسريعة على من حوله. ليس كل من عجز عن المساعدة خائئاً، وليس كل من صمت عديم الوفاء، وليس كل من ابتعد يريد الشر.

الحنة ترفع حساسية النفس، ولذلك قد تتبالغ في قراءة المواقف.
والإنسان الناضج لا يجعل ألمه إذناً له بأن يحاكم الجميع من موضع الجرح.
هذه إحدى اختبارات التحول أيضاً: أن تبقى عادلاً وأنت متألم.
فالعدل في الراحة سهل نسبياً، أما العدل حين تكون النفس مجروحة فهو أصعب
وأصدق.

ولعل من أجهل ما يتعلمه الإنسان من الحنة أن الحياة ليست مبنية على ضمانات. نحن
نعيش طويلاً وكأن الأشياء التي معنا ستبقى لأنها بقيت حتى الآن. لكن الزمن يعلّينا
أن الاعتماد ليس عقداً مع المستقبل.

وهذا الإدراك قد يبدو مخيفاً، لكنه يستطيع أن يصنع امتناناً أعمق.

أن ترى النعمة وهي عندك بدل أن تعرف قيمتها بعد ذهابها.

أن تقول لمن تحب ما ينبغي أن يقال ما دام حاضراً.

أن تصلح ما يمكن إصلاحه قبل أن يصير الندم هو اللغة الوحيدة الممكنة.

أن تعرف أن بعض الأبواب إذا أغلقت لا تفتح بالطريقة نفسها مرة أخرى.

وهكذا تتحول هشاشة الحياة من سبب للخوف فقط إلى سبب لليقظة.

والحنة تكشف أيضاً علاقتنا بالزمن. حين نتألم نريد النهاية بسرعة، لكن بعض التحولات
تحتاج إلى نضج لا يمكن اختصاره. الجرح قد يحتاج إلى زمن، والثقة تحتاج إلى زمن،
 وإعادة بناء النفس تحتاج إلى زمن. وهذا يصطدم برغبتنا الحديثة في الحلول السريعة،
 نريد تفسيراً سريعاً، وشفاءً سريعاً، ونسياناً سريعاً.

لكن النفس لا تعمل دائماً بهذه الطريقة.

بعض الأشياء لا تُحل، بل تُحمل حتى تخف.

وبعض الأسئلة لا تجد جواباً مباشراً، بل يعيش الإنسان حتى يتغير السؤال نفسه.

وقد يكون النضج أن تتوقف عن مطالبة الزمن بأن يعيدك إلى ما كنت عليه، وأن تبدأ في السؤال: من سأصير بعد ما حدث؟

هذا سؤال مختلف.

فبعض التجارب لا تسمح بالعودة.

إنها تغير الخريطة.

وعندئذ لا يكون الهدف استعادة النسخة القديمة من الذات، بل بناء نسخة أعمق تستطيع أن تحمل ما حدث من غير أن تنهار تحته.

وهنا يمكن أن نفهم الشخصية المتحوّلة على نحو جديد: ليست شخصاً نجا من الألم كما كان قبله، بل شخصاً عبر الألم وأعاد تنظيم نفسه بعده. قد يفقد شيئاً من السذاجة، لكنه يكسب بصيرة. قد يخف صوته، لكن يزيد عمقه. قد يقل يقينه بالبشر، لكن يصبح أكثر فهماً لهم. قد يعرف أن الحياة لا تعطي ضمانات، لكنه يتعلم أن يعيش بوعي أكبر بدل أن يعيش بخوف أكبر.

الفرق دقيق.

الحنة تستطيع أن تجعل الإنسان أعمق أو أشد خوفاً.

أكثر رحمة أو أكثر قسوة.

أكثر تواضعاً أو أكثر مرارة.

وما يفصل بين هذه المسارات هو المعنى الذي يبنيه الإنسان حول ما وقع.

ولعل هذا يفسر لماذا لا ينبغي أن نجد الألم نفسه. ليس في الوجد قداسة تلقائية. بعض الألم ينبغي منعه، وبعض الظلم ينبغي مقاومته، وبعض الجروح لا ينبغي أن تقع أصلاً. والقول إن المحنة قد تنتج خيراً لا يعني أن الذي تسبب فيها بريء، ولا أن الظلم صار مشروعاً لأنه علم المظلوم شيئاً.

هذه نقطة ضرورية.

قد يستخرج الله من الشر خيراً، لكن الشر يبقى شراً.

وقد ينضج إنسان بسبب تجربة قاسية، لكن هذا لا يجعل من قسا عليه صاحب فضل. فالحير الذي خرج من الجرح هو من قدرة الله على إخراج الحياة من موضع الألم، لا من استحقاق الجرح للمدح.

وهذا المعنى يحفظ ميزاناً مهماً في الكتاب كله: لا نجد الخطيئة لأنها قد تقود إلى التوبة، ولا نجد الظلم لأنه قد يصنع وعياً، ولا نجد الألم لأنه قد ينتج حكمة. نحن نرى إمكانية التحول، لكننا لا نخلط بين إمكان استخراج الخير وبين تبرئة سبب الشر.

وهذه الدقة ضرورية حتى لا يتحول خطاب التحول إلى تزيين للهآسي.

وقد تكون أعظم هدية تمنحها المحنة للإنسان هي أن تسقط عنه وهماً عاش به طويلاً. وهم أنه لا يحتاج أحداً، أو أنه لا يخطئ، أو أنه يملك كل شيء، أو أن الحياة مدينة له بما يريد. حين تسقط هذه الأوهام قد يشعر بالضعف، لكنه يصبح أقرب إلى الحقيقة.

والحقيقة، حتى حين تكون مؤلمة، أكثر أماناً من الوهم.

فالإنسان لا يستطيع أن يبني نفسه على صورة كاذبة إلى الأبد.

وحين تنكسر الصورة يبدأ إمكان بناء صورة أصدق.

ومن هنا نعود إلى سؤال هذا الكتاب: هل الإنسان أسير خطيئته الأولى؟

الجواب لا يكون فقط في التوبة من الخطيئة، بل في الطريقة التي يتعامل بها مع كل ما جاء بعدها: الألم، والنتائج، والذاكرة، والعلاقات، والفرص الجديدة. فالخطيئة قد تكون لحظة، لكن التحول مسار. والحنّة قد تكون جزءًا من هذا المسار إذا جعلت الإنسان يرى نفسه من زاوية لم يكن يراها.

وهنا تظهر علامة أخرى على النضج: أن يتوقف الإنسان عن سؤال الحياة فقط: لماذا فعلت بي هذا؟ ويبدأ أحياناً في سؤال نفسه: ماذا سيخرج مني بعد هذا؟

ليس السؤال الأول باطلاً، لكن الثاني أكثر قدرة على البناء.

لأن الأول ينظر إلى ما وقع.

والثاني ينظر إلى ما يمكن أن يكون.

لكن هذا يفتح باباً جديداً أكثر حساسية: إذا تغير الإنسان حقاً، فكيف ينبغي للآخرين أن يتعاملوا معه؟ هل يكفي أن يقول إنه تغير؟ وهل ينبغي للمجتمع أن ينسى الماضي؟ وهل العفو يعني استعادة الثقة كاملة؟ وما الفرق بين منح الإنسان فرصة ثانية وبين السداجة التي تعرض الحقوق للأذى مرة أخرى؟

هنا نصل إلى واحدة من أعقد المسائل في موضوعنا:

كيف نعطي الإنسان فرصة جديدة من غير أن نحو المسؤولية؟

وهذا هو الفصل التالي:

الفصل الحادي عشر

الفرصة الثانية: كيف نغفر من غير أن نلغي الذاكرة؟

من السهل أن نتحدث عن الفرصة الثانية بلغة جميلة، لكن الأمر يصبح أكثر تعقيداً حين تكون الخطيئة قد تركت أثراً حقيقياً، وحين تكون الثقة قد تكسرت، وحين يكون الذي يطلب فرصة جديدة هو نفسه الذي تسبب في الجرح القديم. هنا لا يعود السؤال مجرد: هل نساح؟ بل يصبح: ما معنى المسامحة أصلاً؟ وهل تعني أن نعيد كل شيء إلى موضعه السابق؟ وهل يملك الإنسان حقاً في بداية جديدة من غير أن يدفع ثمن ما أفسده؟ وهل يكون الحذر بعد الأذى قسوة، أم أنه أحياناً جزء من الحكمة؟

إن أجمل ما في الرؤية المتوازنة أنها لا تجعل العفو ضد العدالة، ولا تجعل الذاكرة ضد الرحمة. يمكن للإنسان أن يغفر ولا ينسى، وأن يصفح من غير أن يستعيد الثقة كاملة في اللحظة نفسها، وأن يمنح فرصة جديدة من غير أن يلغي خبرته السابقة. فالعفو شيء، والثقة شيء آخر، واستعادة العلاقة كما كانت شيء ثالث. وخلط هذه المستويات هو الذي يجعل كثيراً من الناس إما قساة لا يعرفون الصفح، أو سذجاً يعيدون فتح الباب نفسه للجرح ذاته.

في قصة يوسف نجد العبارة العظيمة: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾. هذه الجملة لا تحو ما حدث، ولا تحول الجب إلى وهم، ولا تجعل الكذب القديم غير موجود. يوسف يعرف ما وقع، وإخوته يعرفون ما وقع، والقصة نفسها سجلت. لكن الماضي لم يعد أداة لإذلال. وهنا تتجلى عظمة العفو: أن تضع الخطأ في مكانه الصحيح فلا تنكره ولا تجعله حاجاً أبدياً على المستقبل.

العفو إذن ليس حذفاً للذاكرة، بل تحريراً لها من وظيفة الانتقام.

وهذا فرق جوهري.

قد نتذكر، لكنك لا تعاقب الآخر في كل مرة بالذكري نفسها.

قد تعرف أنه أخطأ، لكنك لا تجعل كل حاضره تابعاً لماضيه.

وقد تبقي مسافة تحفظ بها نفسك، من غير أن يتحول الحذر إلى كراهية.

إن بعض الناس حين يسمعون حديثاً عن الفرصة الثانية يظنون أن الرحمة تقتضي إلغاء الحدود. وهذا غير صحيح. فالحدود أحياناً هي التي تجعل الفرصة الثانية ممكنة بصورة صحية. الإنسان الذي جرحك ثم عاد صادقاً لا يحتاج منك دائماً أن تمنحه الامتيازات نفسها فوراً، بل قد يحتاج أن يقبل أن الثقة ستعود ببطء، وأن عليه أن يبرهن بسلوكة لا بكلامه، وأن الزمن جزء من الإصلاح.

وهذا مهم جداً لأن الذي يطلب الثقة كاملة فوراً بعد أن كسرها قد يكون ما زال ينظر إلى المسألة من مركز نفسه. هو يريد الراحة، ويريد أن يشعر أن الماضي انتهى، ويريد أن يرى أثر توبته سريعاً في معاملة الناس له. لكن الإصلاح الحقيقي أكثر تواضعاً، فهو يقبل أن الذين تأذوا لهم زمنهم الخاص، وأنهم لا يلتزمون بمجرد إعلان الندم.

التائب الصادق لا يطالب الآخرين أن ينسوا حتى يثبت صدقه.

بل يتحمل أن ذاكرة الجرح أبداً من رغبته في الغفران.

ومن هنا نحتاج إلى التفريق بين الغفران وإعادة الأمانة. قد أغفر لك، لكني لا أعيد إليك المسؤولية نفسها حتى أرى أنك أصبحت أهلاً لها. وقد أصفح عنك، لكني لا أضع نفسي مرة أخرى في الموضع الذي يتيح تكرار الأذى. هذا ليس انتقاماً، بل تعلم من التجربة.

فالرحمة لا تعني تعطيل الحكمة.

ومن الخطأ أن نطلب من المظلوم أن يثبت سموه الأخلاقي بأن يعرض نفسه للأذى من جديد. العفو يحمره من الماراة، لكنه لا يلزمه أن يتجاهل المعلومات التي قدمها له الماضي.

وهذا من أعمق معاني النضج: أن تكون قادراً على الرحمة من غير أن تفقد بصيرتك. وقد تكون الفرصة الثانية نفسها نوعاً من الامتحان الجديد. فالإنسان الذي عفا عنه الآخرون يُختبر: هل يفهم أن العفو هبة، أم يتعامل معه كأنه إلغاء للتاريخ؟ هل يصير أكثر تواضعاً، أم يعود سريعاً إلى النسخة القديمة من نفسه؟ هل يستعمل الفرصة ليبنى، أم يفسرها بوصفها دليلاً على أن خطأه لم يكن مهماً؟ ولهذا فإن منح الفرصة لا يكون دائماً مجرد إحسان إلى الآخر، بل قد يكون وسيلة لاختبار صدق تحوله.

فإن كان صادقاً ظهر ذلك في الطريقة التي يتعامل بها مع المساحة الجديدة. وإن لم يكن، أعاد إنتاج النمط القديم.

وهنا تظهر قيمة الزمن مرة أخرى. الثقة لا تُبنى بخطاب واحد، ولا باعتذار واحد، ولا بموقف حسن عابر. هي حصيلة تكرار. لذلك فإن أجمل ما يقدمه الإنسان الذي يريد استعادة مكانه ليس الوعد، بل الاستمرار. كل يوم جديد يمر من غير عودة إلى الخطأ يضع حجراً في جسر الثقة.

وهذا يجعل التحول الأخلاقي شأنًا يوميًا، لا حدثًا احتفاليًا.

قد تكون لحظة التوبة عظيمة، لكن ما بعدها هو الذي يبرهن عليها.

ولعل من أشد ما يفسد الفرص الثانية أن يتحول الماضي إلى سلاح دائم بيد الطرف الذي سامح. بعض الناس يقول: لقد عفوت، ثم يستدعي الخطيئة في كل خصومة،

وكل اختلاف، وكل لحظة غضب. وهنا لا يكون العفو قد اكتمل، بل يكون الماضي قد تغير من عقوبة مباشرة إلى أداة سيطرة.

العفو الحقيقي لا يعني النسيان، لكنه يعني أن الخطأ القديم لا يبقى حاضراً في كل معركة جديدة.

وإذا اختار الإنسان أن يستمر في العلاقة، فعليه أن يميز بين حقه في الحذر وحقه في الإذلال. الأول مشروع، والثاني قد يتحول إلى ظلم جديد.

وهنا يصبح قول يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ أرفع من مجرد امتناع عن العقوبة؛ إنه امتناع عن التعيير. والتثريب ليس فقط محاسبة، بل توبيخ وإدامة اللوم. ويوسف اختار أن لا يجعل تاريخهم مادة إذلال.

وهذا درس بالغ الرفعة: ليس كل ما تعرفه عن ضعف الناس ينبغي أن تستعمله ضدهم.

قد يعطيك أحدهم اعترافاً صادقاً بماضيه، فلا تجعل اعترافه سلاحاً في يدك.

وقد يكشف لك إنسان عن موضع ضعفه، فلا تستخدم ذلك في لحظة الخصومة. فهذه ليست قوة، بل خيانة لثقة جديدة.

إن الفرصة الثانية لا تعني فقط أن تمنح المخطئ مساحة جديدة، بل أن تمنحه حقاً في ألا يُختصر إلى الأبد في عنوان واحد. وهذا من أصعب ما يفعله المجتمع؛ لأنه يجب التصنيفات الثابتة. إذا عُرف شخص بخطأ، التصق به اللقب، وكأن كل ما فعله بعده مجرد هامش لا قيمة له.

لكن العدل يقتضي أن نرى الزمن.

أن نسأل: ماذا صار؟

لا فقط: ماذا كان؟

وهذا لا يعني أننا ملزمون بتصديق كل ادعاء بالتغيير. فالرحمة لا تلغي التثبت. يمكن أن نترك الباب مفتوحاً من غير أن نهدم الحذر. ويمكن أن نرى إمكان التحول من غير أن ننكر احتمال التكرار.

والميزان هنا بسيط في أصله وإن كان صعباً في التطبيق: لا تُدَن الإنسان إلى الأبد بسبب ماضٍ تجاوزَه فعلاً، ولا تمنحه ثقة كاملة بناءً على كَلَهات لم تختبرها الأيام. بين القسوة والسذاجة مساحة واسعة اسمها الحكمة.

وقد يكون من أهم ما يحتاجه الإنسان بعد الخطأ ألا يُحبس في صورة واحدة. الناس أحياناً لا يسمَحون له بالتغيير لأن تغييره يريك روايتهم عنه. إذا كانوا قد اعتادوا أن يروه ضعيفاً، لا يريدون الاعتراف بقوته. وإذا عرفوه مذنباً، يصعب عليهم قبول استقامته. وإذا حكموا عليه قديماً، يصبح الاعتراف بتغييره اعترافاً بأن حكمهم لم يعد صالحاً. وهذا يكشف أن رفضنا لتحول الآخرين قد يكون أحياناً مشكلة فينا نحن، لا فيهم.

لأننا نريد عالماً ثابتاً يسهل تصنيفه.

أما الإنسان الحي فيريك التصنيف.

ومن هنا فإن المجتمع الرحيم ليس المجتمع الذي يلغي المسؤولية، بل الذي يفتح أبواب العودة. هناك فرق بين أن تقول للإنسان: لا بأس بما فعلت، وبين أن تقول: ما فعلته كان خطأ، لكنك لست مضطراً أن تبقى فيه.

الأولى تدمر الأخلاق.

والثانية تبني الأمل.

وهذا التوازن من أجل ما يحتاجه الإنسان: معيار واضح، وباب مفتوح.

فالإنسان قد يسقط إذا ظن أن الناس لن يسمحوا له بالعودة أصلاً. وإذا شعر أن اسمه سيبقى مرتبطاً بخطيئته مهما فعل، قد يفقد جزءاً من دافعه للإصلاح. وهنا تصبح الرحمة الاجتماعية جزءاً من صناعة التوبة؛ لا بمعنى أنها شرط لصحتها، بل بمعنى أنها تجعل الطريق إلى العودة أقل وحشة.

وفي المقابل، إذا ألغى الحساب تماماً فقد يفقد التغيير جديته.

وهكذا نحن أمام ميزان دقيق: لا سجن أبدي، ولا براءة مجانية.

وهذا الميزان يظهر في الأسرة، والصدقة، والعمل، والمجتمع. الأبناء يخطئون، والأصدقاء يخطئون، والأزواج يخطئون، والقادة يخطئون. والسؤال ليس فقط كيف نحاسب، بل كيف نسمح بالحركة بعد الحساب.

فالمجتمع الذي لا يعرف إلا الإدانة ينتج اليأس.

والمجتمع الذي لا يعرف إلا التجاوز ينتج الاستهتار.

أما المجتمع الناضج فيعرف أن الإنسان قابل للسقوط وقابل للإصلاح.

وقد تكون الفرصة الثانية أحياناً أكبر من الأولى؛ لأن الإنسان يدخلها وقد عرف نفسه. في الأولى كان يتحرك ببراءة الجهل بضعفه، أما في الثانية فيتحرك بوعي أكبر. وهذا ما يجعل بعض الناس بعد خطأ كبير أكثر نضجاً ممن لم يختبروا أنفسهم أصلاً.

ليس لأن الخطأ فضل، بل لأن الاعتراف به أخرج من الإنسان معرفة لم تكن موجودة.

وهنا نعود إلى يوسف وإخوته. العفو لم يلغ التاريخ، لكنه أعاد فتح المستقبل. لم يعد الجب نهاية القصة. صار فصلاً فيها.

وهذه هي قوة الفرصة الثانية: أنها تحول الماضي من نهاية إلى فصل.

الفصل مؤلم، لكنه ليس الكتاب كله.

وهذا يفتح سؤالاً آخر أكثر عمقاً: إذا كانت الفرصة الثانية ممكنة، فهل هناك حد لعدد الفرص؟ وماذا نفعل مع الإنسان الذي يعتذر ويعود، ثم يعتذر ويعود؟ متى يكون الصبر فضيلة، ومتى يصبح تمكيناً للتكرار؟ متى تكون الرحمة فتحاً لباب الإصلاح، ومتى تتحول إلى بيئة آمنة للخطأ؟

هذه ليست أسئلة سهلة.

لكنها تقودنا إلى قلب مهم في موضوعنا:

التحول الحقيقي لا يُقاس بحسن البداية، بل بقدرته على الاستمرار.

ومن هنا يأتي الفصل التالي:

الفصل الثاني عشر

من الندم إلى الاستمرار: لماذا يفضل بعض الناس في تثبيت تحولهم؟

ليست أصعب لحظات التغيير هي لحظة البداية دائماً، بل ما يأتي بعدها. فقد يستطيع الإنسان أن يتخذ قراراً كبيراً في لحظة صفاء أو انكسار، وقد يبكي بصدق، ويعترف بصدق، ويعد نفسه بصدق، ثم يعود بعد أيام أو شهور إلى السلوك نفسه الذي ظن أنه تركه. وليس معنى ذلك أن لحظة الندم كانت كاذبة بالضرورة، بل قد تكون صادقة جداً، لكن الصدق المحطى شيء، وبناء شخصية جديدة قادرة على حمل هذا الصدق عبر الزمن شيء آخر.

الإنسان لا يتغير بمجرد أن يريد التغيير؛ لأن داخله ليس صفحة بيضاء تبدأ من اللحظة التي قرر فيها العودة. هناك عادات قديمة، وطرق تفكير متجذرة، وروابط، وبيئة، ومكافآت نفسية خفية، وصور عن الذات، ومخاوف، واحتياجات لم تُفهم، وكل هذه العناصر يمكن أن تستدعي النسخة القديمة من الإنسان بعد أن يبدأ الاندفاع الأول. ولهذا فإن التحول الحقيقي ليس مجرد قرار، بل إعادة تنظيم للحياة حول القرار الجديد.

فالذي كان يغضب ثم يؤذي الآخرين لا يكفيه أن يقول: لن أغضب بعد اليوم؛ لأنه سيغضب. والذي عاش سنوات بالمقارنة لا يكفيه أن يقرر أنه لن يحسد؛ لأن المواقف ستعود، والنجاحات ستظهر أمامه، ونقاط ضعفه ستستثار من جديد. والذي اعتاد الهروب بالكذب لا يكفيه أن يقول: سأكون صادقاً؛ لأن لحظة الخوف القادمة ستضع الصدق في مواجهة مصلحته من جديد. ولهذا فإن التغيير لا يثبت حين تختفي الظروف التي أنتجت الخطأ، بل حين تعود الظروف نفسها فيختار الإنسان هذه المرة بطريقة أخرى.

ومن هنا فإن الاختبار الحقيقي يبدأ بعد الحماس.

فالبدايات غالباً مدفوعة بطاقة شعورية قوية؛ ألم، خوف، ندم، انكشاف، خسارة، أو لحظة روحانية عميقة. وهذه الطاقة قادرة على دفع الإنسان خطوة كبيرة، لكنها لا تبقى بالقوة نفسها. وحين تخفت يبدأ السؤال: هل بنيت شيئاً مجلي بعد ذهاب الشعور، أم أن كل تغيري كان قائماً على الانفعال؟

وهذا فارق بالغ الأهمية.

فن الناس من يعتمد على مزاجه الأخلاقي، فإذا شعر بالقرب استقام، وإذا فتر عاد. ومنهم من يبني لنفسه نظاماً جديداً حتى حين تخفت المشاعر. الأول يعيش على الدفعات، والثاني يبني عادة.

والتحول الراشح يحتاج إلى العادة.

إن أكثر ما يهدد التغير أن الإنسان يبالغ في الثقة بنفسه بعد لحظة التوبة. يشعر أنه انتهى من الماضي نهائياً، وأن الخطأ صار وراءه، وأنه أصبح أقوى من العودة إليه. وهذه الثقة قد تكون أول باب الرجوع، لأن الإنسان الذي يظن أن موضع ضعفه اختفى يتوقف عن حراسته.

أما الناضج فيفهم أن بعض الأبواب لا تغلق نهائياً، بل تبقى بحاجة إلى مراقبة. ليس خوفاً مرضياً، بل معرفة بالنفس.

فالذي عرف من نفسه الحسد لا يحتقر هذه المعرفة، بل يستخدمها ليضبط قلبه عند المقارنة. والذي عرف من نفسه التهور لا يضع نفسه في الظروف نفسها ثم يقول: لقد تغيرت. والذي عرف من نفسه ضعفاً أمام صحبة أو بيئة أو عادة لا يختبر نفسه بلا داع، وكأن الاستقامة لا تثبت إلا إذا مشى على حافة السقوط.

الحكمة لا تطلب من الإنسان أن يثبت قوته باستفزاز ضعفه.

بل أن يعرف موضعه ويحسن حراسته.

ومن أسباب فشل التحول أيضاً أن الإنسان يحاول تغيير السلوك من غير أن يغير البنية التي تحته. يقطع الفعل، لكنه يحتفظ بالأسباب التي صنعتها. يترك الخطيئة، لكنه يحتفظ بالطريقة نفسها في التفكير، والعلاقات نفسها التي تغذيها، وبالمكافآت النفسية نفسها التي كان يحصل عليها منها.

وهنا يصبح الرجوع مسألة وقت.

فإذا كان الحسد ناتجاً عن شعور عميق بالنقص، ثم اكتفى الإنسان بمنع نفسه من الكلام في الآخرين من غير أن يعالج علاقته بقيمته الذاتية، بقي الجذر حياً. وإذا كان الغضب ناتجاً عن خوف دائم من الإهانة، ثم اكتفى بكم الانفجار من غير أن يعالج حساسيته المفرطة تجاه صورته، بقي السبب ينتظر ظرفاً أقوى. وإذا كان التعلق بالمدح ناتجاً عن فراغ داخلي، فإن مجرد منع النفس من طلب الثناء لا يكفي إذا لم تبني مصدراً أعمق للقيمة.

ومن هنا فإن التحول يحتاج إلى سؤال لا يحبه الإنسان دائماً: ماذا كنت آخذ من هذا الخطأ؟

فحتى السلوكيات المؤذية قد تمنح صاحبها شيئاً.

الغضب قد يمنحه شعوراً بالقوة.

الحسد قد يمنحه تفسيراً لفشله.

الكذب قد يمنحه مهرباً من الخوف.

الانتقام قد يمنحه وهم استعادة الكرامة.

التعلق قد يمنحه شعوراً مؤقتاً بالأمان.

وإذا لم يفهم الإنسان الوظيفة النفسية التي كان يؤديها السلوك القديم، فقد يترك صورته ويبحث عن بديل يؤدي الوظيفة نفسها.

وهنا لا يكون قد تغير تماماً، بل بدّل الوسيلة.

ومن أخطر ما يعرقل التغيير أيضاً أن الإنسان يريد نتائج فورية. يتوقع أنه بمجرد أن يقرر أن يصبح مختلفاً ستغير نفسه بسرعة، وحين يكتشف أن بعض المشاعر القديمة ما زالت موجودة يظن أنه فشل. لكن وجود الدافع القديم لا يعني دائماً أن التحول لم يبدأ؛ أحياناً يكون الفرق أن الدافع ما زال حاضراً لكن الاستجابة تغيرت. وهذا فرق كبير.

قد يبقى الغضب، لكنك لا تؤذي.

وقد تبقى الغيرة، لكنك لا ترجعها إلى ظلم.

وقد يبقى الخوف، لكنك لا تكذب.

وقد يبقى الحنين إلى عادة قديمة، لكنك لا تعود إليها.

هذه ليست علامات فشل، بل قد تكون علامات أن الإرادة بدأت تصبح أقوى من الاندفاع.

والتغيير لا يعني دائماً اختفاء الصراع، بل أحياناً يعني تغير نتيجته.

ولهذا فإن من الظلم أن يقيس الإنسان نفسه على صورة مثالية يتوقع أن يصل إليها فوراً. التحول الإنساني ليس محواً سحرياً للبنية القديمة، بل تدريب طويل على بناء بديل. وكل مرة يختار فيها الإنسان الجديد على القديم يقوي مساراً جديداً داخله.

ومع الزمن يصبح ما كان يحتاج إلى مجاهدة شديدة أكثر سهولة.

وهذا هو معنى أن الشخصية تُبنى بالفعل المتكرر.

نحن لا نفعل فقط ما نحن عليه، بل نصير أيضًا بما نكرهه.

ومن هنا فإن التوبة ليست لحظة واحدة فقط، بل سلسلة اختيارات تؤكد الاتجاه نفسه.

وقد يكون من أسباب العودة كذلك أن الإنسان لم يبنِ حياة جديدة، بل ترك فراغًا فقط. أوقف سلوكًا، لكنه لم يضع شيئًا مكانه. والفراغ لا يبقى فراغًا طويلًا؛ تميل النفس إلى ملئه بما تعرف.

ولهذا فإن الإصلاح أهم من المنع وحده.

من يترك صحبة فاسدة يحتاج إلى صحبة أفضل.

ومن يترك عادة تستنزفه يحتاج إلى نظام حياة يمنحه معنى.

ومن يترك طريقًا خاطئًا يحتاج إلى أن يرى طريقًا آخر يمشي فيه.

فالنفس لا تعيش بالنفي وحده.

لا يكفي أن تقول: لن أفعل.

تحتاج أيضًا إلى: ماذا سأفعل بدلًا من ذلك؟

وهذا من معاني اقتران التوبة بالإصلاح في القرآن. فالإصلاح ليس زينة بعد التوبة، بل

جزء من تثبيتها. حين يتحول الإنسان من مجرد مقاومة الشر إلى صناعة الخير، تصبح

هويته الجديدة أكثر رسوخًا.

فالذي كان يكذب ثم يبدأ في بناء حياة قائمة على الصدق لا يعود فقط تاركًا للكذب، بل يصبح شخصًا يرى الصدق جزءًا من صورته الجديدة. والذي كان يبخل ثم يتدرب على البذل لا يعود مجرد ممتنع عن البخل، بل يبني خصلة مقابلة. وهنا يصبح التغيير إيجابيًا لا دفاعيًا.

ومن الأسباب المهمة لفشل التحول أيضًا أن الإنسان يبقى محاطًا بالبيئة التي صنعت نسخته القديمة. البيئة لا تجبر دائمًا، لكنها تذكر، وتطبع، وتُسهل، وتمنح السلوك معانيه. وقد يقرر المرء أن يتغير، ثم يعود كل يوم إلى السياق نفسه الذي يكافئ عاداته القديمة. ولهذا فإن بعض التحولات تحتاج إلى إعادة ترتيب المحيط. ليس هروبًا، بل حماية للبداية.

فالبدرة الجديدة لا توضع في التربة نفسها التي خنقتها ثم نتوقع نتيجة مختلفة. ومع ذلك لا يستطيع الإنسان دائمًا تغيير بيئته، وهنا يصبح عليه أن يبني داخله ما يعوض ضعف الخارج. يختار من يسمع، وما يقرأ، ومن يصاحب قدر استطاعته، وما يكرره على نفسه، وما يسمح له بالدخول إلى وعيه. فالبيئة ليست مكانًا فقط.

إنها أيضًا ما تستهلكه النفس كل يوم.

الأفكار التي تكررهما.

والأصوات التي تستمع إليها.

والصور التي تعيد تشكيل رغباتك.

والأشخاص الذين تمنحهم حق تعريفك.

ومن أخطر ما يفشل التحول كذلك أن الإنسان يحول التعثر إلى انهيار كامل. يخطئ بعد مدة من الاستقامة فيقول: إذن لم أغير أصلاً. ثم يستخدم الخطأ الواحد حجة للعودة الكاملة.

وهذه حيلة نفسية شائعة.

كأن الإنسان لا يعترف إلا بخيارين: كمال كامل، أو فشل كامل.
لكن الواقع أكثر رحمة وتعقيداً.

قد نتقدم ثم نتعثر.

وقد تضعف دون أن تعود إلى النقطة الأولى.

وقد تسقط في موقف لكنك تقوم أسرع مما كنت تقوم قديماً.

وهذا كله جزء من مسار التغيير.

الخطر ليس في التعثر وحده، بل في تفسير التعثر بوصفه إذناً للاستسلام.

وهنا يظهر الفرق بين الإنسان الذي تعلم طريق العودة والإنسان الذي كان يعيش داخل الخطأ. الأول إذا زلّ يعود، والثاني إذا زلّ يبني مسكناً حول الزلة.

والتحول الحقيقي لا يجعل الإنسان معصوماً، لكنه يجعله أقل قابلية للإقامة داخل الخطأ.

هذه علامة مهمة.

أن تقصر المسافة بين السقوط والاعتراف.

أن تصبح المجح أضعف.

أن يصبح الرجوع أسرع.

أن يقل الوقت الذي تحتاجه النفس حتى تقول: نعم، أخطأت.

وقد يكون من أعظم ما يثبت التحول وجود معنى أكبر يحمل الإنسان. فالعادة وحدها لا تكفي دائماً، والإرادة وحدها تتعب، لكن حين يصبح التغيير مرتبطاً بمعنى عميق يستطيع أن يصمد أكثر.

لماذا أريد أن أغير؟

إذا كانت الإجابة: لكي أبدو أفضل، قد تنهار أمام أول لحظة لا يراني فيها أحد.

إذا كانت: لكي يمدحني الناس، قد أعود حين يختفي المدح.

أما إذا ارتبط التغيير بعلاقة الإنسان بالله، وبفهمه لكرامته، وبالمعنى الذي يريد أن يعيش له، صار أعمق من المزاج.

وهنا يصبح الثبات ليس فقط مقاومة عادة، بل وفاءً لمعنى.

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف تتحول اللحظة إلى سيرة. لا يحدث ذلك تلقائياً. تحتاج اللحظة إلى أن تُترجم إلى نظام، والنظام إلى عادة، والعادة إلى هوية، والهوية إلى طريقة مستقرة في الاختيار.

وهذه طبقات التحول.

وقد تبدأ كلها بجملة واحدة: لن أعود.

لكنها لا تكتمل إلا حين يصبح معنى هذه الجملة حاضراً في تفاصيل الحياة.

إن الشخصية المتحوّلة لا تعتمد على حماس البداية، بل تبني حول قرارها ما يحبه. تعرف نفسها، وتعرف مواضع ضعفها، وتغير بيئتها ما استطاعت، وتملأ الفراغ بخير، وتقبل ببطء التحول، ولا تجعل التعثر نهاية.

وهذا ما يجعلها مختلفة عن الشخصية المنفعلة.

المنفعلة تريد أن تشعر بأنها جديدة.

أما المتحوّلة فتقبل مشقة أن تصبح جديدة.

والفرق بين الشعور والصيرورة هو الفرق بين لحظة وحياة.

وهنا نصل إلى سؤال أعمق: إذا كان التحول يحتاج إلى استمرار، فما الذي يحدث للهوية نفسها؟ متى يتوقف الإنسان عن القول: أنا أحاول ألا أكون ذلك الشخص، ويبدأ في القول: أنا لم أعد ذلك الشخص بالفعل؟

متى تصبح الأفعال الجديدة جزءاً من تعريف الذات؟

ومتى يتحول الماضي من مركز للهوية إلى مجرد فصل في التاريخ؟

وهذا هو موضوع الفصل القادم:

الفصل الثالث عشر

حين نغير الهوية: من «كنت أفعل» إلى «لم أعد ذلك الإنسان»

ثمة مرحلة دقيقة في رحلة التحول لا يعود فيها السؤال متعلقاً بالفعل وحده، بل بالهوية التي تقف خلف الفعل. فالإنسان في بداية التغيير يقول عادة: أحاول ألا أفعل كذا، أحاول أن أضبط نفسي، أحاول أن أقاوم ما كنت عليه. وفي هذه المرحلة يبقى الماضي حاضراً بوصفه المركز الذي يتحرك حوله الحاضر؛ كأن الإنسان لا يزال يعرف نفسه بالنسخة القديمة، لكنه يبذل جهداً مستمراً لكيلا تعود إلى الظهور. وهذا طبيعي في البدايات، لكنه لا يمكن أن يكون الصورة النهائية للتحول؛ لأن الشخصية الجديدة لا تكتمل ما دامت حياتها كلها مشدودة إلى مقاومة الشخصية القديمة.

في مرحلة أعمق يحدث شيء مختلف: لا يعود الإنسان يقول فقط «أنا أقاوم ما كنت عليه»، بل يبدأ يشعر أنه بالفعل صار شخصاً آخر. لا بمعنى أنه محاً تاريخه، ولا بمعنى أنه أصبح معصوماً، بل بمعنى أن الماضي لم يعد هو التعريف الأقرب إلى نفسه. كان الغضب جزءاً من طريقته في إثبات ذاته، ثم صار الهدوء أقرب إلى شخصيته. كان الكذب مهربه الأول، ثم صار الصدق عادته الأقرب. كان يعيش بالمقارنة، ثم صار قادراً على رؤية خير غيره من غير أن يشعر أن ذلك يسحب شيئاً من قيمته. هنا لا يكون قد أوقف فعلاً فقط، بل أعاد تركيب معنى الذات.

وهذه نقطة فارقة؛ لأن الإنسان يتصرف غالباً بما ينسجم مع الصورة التي يحملها عن نفسه. إذا كان يرى نفسه خائناً بطبعه، فقد يستخدم هذه الصورة عذراً لتكرار الخيانة. وإذا كان يرى نفسه سريع الغضب باعتبار ذلك «طبعه الذي لا يتغير»، فقد يبرر لنفسه كل انفجار. وإذا ظل يردد: أنا هكذا، فقد يتحول الوصف إلى قيد. لكن حين نغير الصورة الداخلية، تبدأ الأفعال نفسها في اكتساب معنى مختلف.

ومن هنا فإن أخطر العبارات التي يقولها الإنسان لنفسه ليست دائماً: «لقد أخطأت»، بل أحياناً: «أنا لا أكون إلا هكذا». هذه الجملة تقتل إمكانية التحول؛ لأنها تجعل الماضي قدراً، وتجعل العادة هوية، وتجعل التاريخ حجة ضد المستقبل.

لكن الإنسان أوسع من عاداته.

وأوسع من أسوأ أفعاله.

وأوسع حتى من أفضل أفعاله؛ لأنه كائن مفتوح على الاختيار، قادر على أن يضيف إلى نفسه ما لم يكن فيها، وأن ينقص منها ما كان يظنه جزءاً أصيلاً منها.

ولهذا فإن التحول الحقيقي يحتاج في مرحلة ما إلى إعادة كتابة السيرة الداخلية. ليس المقصود اختلاق قصة جديدة، بل تصحيح طريقة قراءة القصة القديمة. فقد يعيش الإنسان طويلاً وهو يقول: أنا الذي فشلت، أنا الذي خذلت، أنا الذي سقطت، أنا الذي ضاع مني كذا. وهذه الوقائع قد تكون صحيحة، لكن المشكلة تبدأ حين تصبح كلها عناوين للهوية.

الإنسان ليس فقط ما حدث له.

وليس فقط ما فعله.

إنه أيضاً ما فهمه، وما اختاره بعد ذلك، وما بناه من جديد.

وهذا فارق كبير.

قد يكون الماضي فضلاً شديداً الظلمة، لكنه لا يملك حق كتابة عنوان الكتاب كله.

وهنا تظهر قيمة التوبة مرة أخرى، لا بوصفها مجرد نحو للذنب، بل بوصفها تحريراً للهوية من أسر الماضي. فإذا كان الله يفتح للإنسان باب العودة، فمن الخطأ أن يغلقه الإنسان على نفسه بقوله: لا أستطيع أن أكون غير الذي كنت.

إن هذا اليأس يناقض منطق التحول كله.

فالذي تاب من الكذب ليس مطلوباً منه أن يعيش عمره كله تحت اسم «الكاذب السابق». والذي عاد من الخيانة لا ينبغي أن يظل يعرف نفسه بالخيانة بعد أن تغيرت حياته فعلاً. والذي كان قاسياً ثم تعلم الرحمة لا يكون صادقاً مع تحوله إذا ظل داخله يكرر: أنا في الجوهر قاسٍ مهما فعلت.

في مرحلة ما لا بد أن يعترف الإنسان بأن الجديد أصبح حقيقياً أيضاً.

ليس توهماً.

ولا تجميلاً.

بل ثمرة لاختيارات متكررة.

لكن هذا الانتقال يحتاج إلى حذر، لأن الإنسان قد يعلن هوية جديدة أسرع مما بنى واقعها. قد يقول: لقد تغيرت، لأنه يريد الهرب من ثقل الماضي، لا لأنه بنى فعلاً شيئاً جديداً. وهنا تتحول عبارة «لم أعد ذلك الإنسان» إلى شكل آخر من الإنكار.

ولهذا فإن الهوية الجديدة لا تُعلن فقط، بل تُكتسب.

تُبنى بالمواقف.

وبالتكرار.

وبالزمن.

وبالطريقة التي يتصرف بها الإنسان حين يعود إليه الاختبار القديم.

حينئذ يصبح له الحق أن يقول: نعم، كنت هناك، لكنني لم أعد هناك.

ومن أعمق ما يحتاجه الإنسان في هذه المرحلة أن يتعلم التمييز بين التذكر والتعريف. يمكن أن يتذكر الماضي كاملاً من غير أن يعرف نفسه به. ويمكن أن يحترم الدرس الذي صنعه فيه من غير أن يبقى عالماً في صورته القديمة.

هذا يشبه الجرح بعد أن يلتئم: الندبة موجودة، لكنها لم تعد نزيفاً.

والندبة لا تنكر الجرح.

لكنها تقول إن الجسد تجاوزه.

وهكذا ينبغي أن يكون الماضي بعد التحول: علامة معرفة، لا مركز ألم دائم.

وقد يكون من أصعب العوائق أمام هذه النقلة أن الآخرين لا يزالون ينادون الإنسان باسمه القديم. المجتمع بطيء في تحديث الصور. وقد يتغير المرء فعلاً، لكن من حوله يصرون على رؤية الماضي. يذكرونه بما كان، ويشككون في كل جديد، ويعيدونه إلى الرواية التي ظن أنه تجاوزها.

وهنا يظهر اختبار آخر للنضج: هل يحتاج الإنسان إلى اعتراف الناس حتى يصدق تحوله؟

إذا كان يحتاج ذلك بإفراط، فقد يبقى أسيراً لهم.

أما إذا كان واثقاً من المسار الذي قطعه، فإنه يستطيع أن يحتمل تأخر الصورة الاجتماعية عن الحقيقة الداخلية.

ليس لأن الناس بلا قيمة، بل لأن حكمهم ليس هو المصدر الوحيد لهويته.

وهذا لا يعني أن الإنسان يطلب من الآخرين أن يثقوا فيه بلا دليل، بل يعني أنه لا يسمح لتأخر ثقتهم أن يعيده إلى النسخة القديمة. فالذي تغير حقاً لا يقول: ما داموا

يروني كما كنت، فلماذا أغير؟ بل يستمر، لأن التغيير صار جزءاً من علاقته بنفسه وبالله، لا مجرد مشروع لتحسين السمعة.

وهذه علامة نضج بالغة الأهمية.

فن يتغير ليرى مختلفاً يتعب سريعاً.

أما من يتغير لأنه اختار طريقاً جديداً، فيستطيع أن يستمر حتى حين لا يصفق له أحد. وفي قصة يوسف نرى هذا المعنى من زاوية أخرى. يوسف لم يظل يعرف نفسه بأنه «الصبي الذي ألقاه إخوته في الجب». لقد مر بهذا الحدث، لكنه لم يبق داخله. لم يجعل المظلومية مركز هويته. ومع الزمن صار عبداً صالحاً، وصاحب حكمة، وصاحب أمانة، وصاحب مسؤولية، ثم صاحب قدرة على العفو.

هذا لا يعني أنه نسي الجب.

بل يعني أن الجب لم يعد هو التعريف الأكبر له.

وهذه واحدة من أرق صور النضج: أن يكون الإنسان أكبر من الجرح الذي مر به.

وفي المقابل، قد يبقى الإنسان أسيراً لهوية الضحية حتى بعد أن تنتهي الظروف التي صنعتها. وهنا يصبح الماضي حاضراً بطريقة مختلفة. لا يعود الألم مجرد ذكرى، بل يتحول إلى مركز تفسير لكل شيء. إذا فشل، قال: لأنني ظلمت. إذا أساء، قال: لأنهم أساءوا إلي. إذا قسا، قال: لأن الحياة قست علي.

وهكذا تصبح الهوية القديمة عذراً شاملاً.

والخطر هنا أن المظلومية، وهي حقيقة أحياناً، تتحول إلى سلطة تمنع الإنسان من مراجعة نفسه.

والتحول يحتاج إلى الشجاعة التي تقول: نعم، ظلمت، لكنني لا أريد أن أبقى محكوماً بهذا الظلم.

وهذا يفتح معنى آخر للحرية: ليست الحرية أن لا يملك الآخرون عليك شيئاً فقط، بل أن لا يملك ماضيك عليك كل شيء.

قد يكون الإنسان خارج السجن منذ سنوات، لكنه ما زال يعيش داخلياً بعقلية السجن.

وقد يكون خرج من علاقة مؤذية، لكنه ما زال يسمح لها بتحديد كل علاقاته الجديدة. وقد يكون تجاوز فشلاً قديماً، لكنه ما زال يرى نفسه من خلاله.

التحرر الحقيقي يحدث حين يصبح الماضي معلومة عنك، لا أمراً يصدر لك.

ومن هنا يمكن القول إن الهوية الجديدة لا تتكون من النسيان، بل من الترتيب. بعض الأشياء تظل موجودة، لكنها تنزل من المركز إلى الهامش. وبعض القيم التي كانت ضعيفة تصعد إلى المركز. وهكذا يعاد بناء الذات من خلال إعادة ترتيب ما فيها.

كان رأي الناس في المركز، ثم صار في الهامش.

كان الانتقام في المركز، ثم صار العدل.

كانت المقارنة في المركز، ثم صار الشكر.

كانت الصورة الخارجية في المركز، ثم صار الصدق الداخلي.

وهذا هو معنى التحول في أعرق صورته: إعادة ترتيب الأولويات التي تحكم القرار.

وقد يكون من العلامات المهمة على تغير الهوية أن تتغير لغة الإنسان عن نفسه. في البداية يقول: أحاول ألا أكذب. وبعد زمن يقول: الصدق هو الأصل عندي. في البداية يقول: أحاول ألا أغضب بهذه الطريقة. ثم يقول: لم يعد هذا الأسلوب يشبهني. هذه الجملة بالذات مهمة: «لم يعد يشبهني».

حين يصل الإنسان إليها يكون التحول قد دخل مستوى الهوية. صار الفعل القديم غريباً عنه بعد أن كان مألوفاً.

وصار الجديد جزءاً من طريقته في الوجود.

لكن هذا لا يعني الغرور. بل العكس: كلها رسخت الهوية الجديدة، زادت الحاجة إلى التواضع. فالإنسان الذي يعرف أنه تغير لا ينبغي أن يتعامل مع ماضيه باحتقار، كأنه لم يكن هو. لأن هذا الماضي جزء من الطريق الذي أوصله إلى هنا.

لا يفتخر به.

ولا يكره.

ولا يعبده.

بل يفهمه.

وهنا يظهر جمال العبارة التي يمكن أن تكون مركز هذا الفصل كله:

الماضي شاهد، لا سيد.

يشهد بما كنت.

لكنه لا يملك وحده أن يقرر ما تكون.

يشهد بما فعلت.

لكنه لا يملك أن يلغي ما أصلحت.

يشهد بضعفك.

لكنه لا يملك أن ينفي قدرتك على النمو.

وقد يكون هذا المعنى ضرورياً جداً لمن عاش خطأ طويلاً. لأن بعض الناس حين يريدون التغيير يظنون أن طول الماضي أقوى من إمكان المستقبل. يقول: عشت عشرين سنة على هذه الحال، فكيف أتغير الآن؟

لكن الزمن لا يمنح الماضي حقاً مطلقاً.

قد يكون السلوك قديماً، لكن القرار الجديد يستطيع أن يبدأ اليوم.

وقد يكون البناء القديم عميقاً، لكن البناء الجديد يمكن أن يبدأ من حجر واحد.

ليس المطلوب أن تنكر طول الطريق القديم، بل أن تبدأ طريقاً آخر.

وهنا تظهر قيمة البداية المتأخرة. ليس صحيحاً أن كل تحول متأخر فاقده القيمة. قد يصل الإنسان إلى وعيه الحقيقي بعد سنوات طويلة، وهذا لا يجعل وعيه أقل صدقاً. المهم ما الذي يفعله بما تبقى.

فالعمر لا يُقاس فقط بما مضى، بل بما يمكن أن يُصنع فيما بقي.

وهذا معنى عظيم في الرجاء.

والإنسان الذي تغيرت هويته لا يعود يحتاج إلى مراقبة نفسه بالخوف نفسه الذي كان يحتاجه في البداية. ليس لأنه صار مأموناً من الخطأ، بل لأن الجديد أصبح أكثر رسوخاً. ما كان يحتاج إلى مقاومة واعية صار عادة، وما كان يحتاج إلى تذكير صار جزءاً من الطبع المكتسب.

وهنا نرى كيف تصنع الأفعال الشخصية.

نختار فعلاً.

ثم نكرره.

ثم يصبح عادة.

ثم يصبح جزءاً من تعريف الذات.

وهكذا تنتقل الأخلاق من القرار إلى الهوية.

لكن حتى في هذه المرحلة ينبغي أن يبقى باب المراجعة مفتوحاً. لأن أخطر ما قد يحدث للإنسان بعد أن يبني هوية جديدة أن يحولها إلى صنم آخر. قد يقول: أنا الآن صادق، أنا عادل، أنا متزن، ثم يبدأ من هذه الصورة الجديدة نوع آخر من العمى.

ولهذا فإن النضج الحقيقي لا يحتاج فقط إلى هوية جديدة، بل إلى هوية قابلة للمراجعة.

أن تعرف نفسك، لكن لا تقدس صورتك عن نفسك.

أن تثق في الاتجاه، لكن لا تدعي العصمة.

أن تقول: تغيرت، ومع ذلك ما زلت محتاجاً إلى نقطة.

وهنا نصل إلى نقطة شديدة الأهمية: الشخصية المتحوّلة ليست شخصية وصلت إلى محطة نهائية، بل شخصية تعلت كيف تبقى مفتوحة على التصحيح. وهذا يغير معنى النضج كله.

الناضج ليس الذي لا يتغير.

بل الذي يعرف كيف يتغير من غير أن يفقد أصله.

وليس الذي لا يخطئ.

بل الذي لا يسمح للخطأ أن يتحول إلى قدر.

وليس الذي لا يحتاج إلى مراجعة.

بل الذي جعل المراجعة جزءاً من طريقته في الحياة.

ومن هنا فإن الهوية الجديدة ليست قفصاً آخر.

إنها أرض أوسع للحركة.

هي ليست قولاً نهائياً: أنا الآن كذا إلى الأبد.

بل اتجاه مستقر: هذا هو الإنسان الذي أريد أن أكونه، وهذا هو الطريق الذي أختاره كل يوم.

وهنا يتقدم الكتاب إلى سؤال أدق: إذا كانت الهوية قابلة للتحول، فما الذي يصنعها أصلاً؟ هل نحن فقط حصيلة قراراتنا الفردية، أم أن الآخرين يشاركون في تشكيل صورتنا عن أنفسنا؟ ماذا يحدث حين يثبت المجتمع للإنسان صورة لا تسمح له بالخروج منها؟ وماذا يحدث حين يصبح القلب القديم أقوى من التغيير الجديد؟

هذه أسئلة تقودنا إلى بعد اجتماعي مهم في رحلة التحول.

فالإنسان لا يعيش وحده.

وما يفعله الآخرون بصورته قد يساعده على النهوض أو يعيده إلى السجن.

وهذا هو الفصل التالي:

الفصل الرابع عشر

المجتمع الذي لا يسمح للإنسان أن يبدأ من جديد

ليس الإنسان هو الوحيد الذي قد يحبس نفسه في ماضيه؛ المجتمع يستطيع أن يفعل ذلك أيضاً. قد يقطع المرء مسافة طويلة في التغيير، ويعيد بناء نفسه بهدوء، ويترك خلفه سلوكاً قديماً أو خاطئاً أو فشلاً أو مرحلة كاملة من حياته، ثم يكتشف أن الناس ما زالوا يتعاملون معه من خلال الصورة التي عرفوها أول مرة. وكأن الزمن تحرك فيه وحده، بينما بقيت صورته في أذهانهم جامدة عند لحظة واحدة. هنا تظهر قسوة من نوع آخر: أن يخرج الإنسان من سجنه الداخلي، ثم يجد أن الآخرين أقاموا له سجنًا خارجيًا من الذاكرة واللقب والتصنيف.

المجتمع يحب الاختصار؛ لأنه يسهّل التعامل مع الناس. فلان هو الذي فشل، وفلان هو الذي خان، وفلان هو الذي أخطأ، وفلان هو الذي سقط، وفلان هو الذي اشتهر عنه كذا. ويجرد أن يستقر اللقب، يصبح كل جديد يُقرأ من خلاله. إذا أحسن، قيل: لعله يمثل. وإذا صمت، قيل: ما زال كما كان. وإذا تغير، قيل: لن يتغير. وهكذا تتحول المعرفة القديمة إلى عدسة تمنع رؤية الحاضر بدل أن تساعد على فهمه.

هذه ليست مشكلة في الفرد وحده، بل في الذاكرة الاجتماعية التي ترفض أحياناً تحديث حكمها. فالإنسان المتغير يحتاج إلى جهد كي يغيّر نفسه، ثم يحتاج أحياناً إلى جهد آخر أشد كي يقنع الآخرين بأن النسخة القديمة لم تعد هي الحقيقة كاملة. ومع ذلك لا يملك دائماً أن يفعل ذلك؛ لأن الناس قد يتمسكون بما عرفوا عنه لأسباب تتجاوز الواقع نفسه. بعضهم لا يريد أن يعترف بالتغيير لأنه يحب بساطة التصنيف، وبعضهم لأن الاعتراف بنجاح الآخر في التغيير يزعزع حكماً قديماً أصدره بثقة، وبعضهم لأنه وجد في خطأ ذلك الإنسان مادة يمنح بها نفسه شعوراً بالتفوق.

وهنا يصبح الماضي أداة سلطة.

فمن يعرف عنك خطأ قديماً يستطيع أن يستدعيه كلما أراد أن يصغرك، ومن يحفظ زلة سابقة قد يستخدمها لإسكاتك كلما حاولت أن تتكلم من موقع جديد، ومن اعتاد رؤيتك ضعيفاً قد يضايقه أن تصبح أقوى؛ لأن تحولك يجبره على إعادة ترتيب موقعه هو منك. ولهذا فإن مقاومة تحول الآخرين ليست دائماً دفاعاً عن الحقيقة؛ قد تكون أحياناً دفاعاً عن توازن نفسي أو اجتماعي قديم.

من هنا نفهم لماذا يحتاج المجتمع إلى أخلاق في التذكر، لا إلى الذاكرة فقط. فليست المشكلة أن نتذكر ما وقع، بل كيف نتعامل مع ما نتذكر. هل نستدعي الماضي للفهم، أم للإذلال؟ هل نستخدمه لحماية الحقوق، أم لإغلاق المستقبل؟ هل نقول: لقد فعل كذا، ولذلك سنتثبت، أم نقول: فعل كذا، ولذلك لن نسمح له أبداً أن يكون شيئاً آخر؟

الفارق بين العبارتين هو الفارق بين الحكمة والقسوة.

فالحكمة تحفظ المعلومة، لكنها لا تحولها إلى حكم أبدي.

والقسوة تحول الواقعة الماضية إلى هوية مستمرة.

ولهذا فإن المجتمعات الناضجة لا تلغي المسؤولية، لكنها تؤمن بإمكان الاستعادة. تعرف أن الإنسان الذي أخطأ يحتاج إلى أن يتحمل تبعات خطئه، لكن لا ينبغي أن يتحول العقاب إلى محو لمستقبله. فإذا أدى ما عليه، وأصلح ما يستطيع، وأثبت الزمن تغيره، ثم بقيت الأبواب كلها مغلقة أمامه، فإن المجتمع لا يكون قد حمى الأخلاق، بل ربما يكون قد حوّل الخطأ إلى قدر اجتماعي لا خلاص منه.

وهذا خطر؛ لأن النظام الأخلاقي الذي لا يفتح باب العودة قد يدفع بعض الناس إلى اليأس بدل الإصلاح. فإذا كان الذي أخطأ يعلم أنه مهما تغير سيظل محكوماً بالصورة القديمة، فقد يقول في نفسه: وما جدوى التغير إذن؟

وهنا يصبح المجتمع، من حيث لا يشعر، شريكاً في تثبيت الهوية القديمة التي يزعم أنه يريد تجاوزها.

ولذلك فإن من أعظم أشكال الرحمة أن تسمح للإنسان بأن يبرهن على نفسه من جديد. لا أن تمنحه ثقة عمياء، ولا أن تحو التاريخ، بل أن تترك له مساحة يمكن فيها للحاضر أن يتكلم.

أن تقول: أعرف ما كان، وسأرى ما صار.

هذه الجملة وحدها تفتح نافذة.

أما الجملة القائلة فهي: أعرف ما كان، ولذلك أعرف إلى الأبد ما سيكون.

فهذه ليست معرفة، بل مصادرة للمستقبل.

والحقيقة أن بعض الناس يتغيرون حين يجدون من يؤمن بإمكان تغييرهم. ليس لأن التغير يأتي من الخارج، بل لأن الثقة تمنحهم مساحة نفسية لينبؤوا صورة جديدة عن أنفسهم. الإنسان الذي لا يسمع إلا أنه فاشل قد يبدأ في تصديق الفشل بوصفه هويته، والذي لا يرى إلا من خلال خطئه قد يجد صعوبة في تخيل نفسه خارجه.

وهنا تصبح كلمة واحدة أحياناً أداة تحرير: أنت أخطأت، لكنك لست مضطراً أن تبقى كذلك.

هذه العبارة لا تبرئ.

لكنها تفتح.

ولا تلغي المسؤولية.

لكنها تمنح اتجاهًا.

وفي المقابل، قد يكون المجتمع نفسه أسيراً لفكرة نقاء مستحيل. يريد من الناس أن يكونوا بلا ماضي، بلا زلات، بلا تعقيد. وهذه صورة غير واقعية عن البشر. فالإنسان يتعلم غالباً من طريق غير مستقيم تماماً؛ يجرب، يخطئ، يعود، يتغير. وإذا لم تُمنح هذه الحركة مكاناً في تصورنا الأخلاقي، سننني مجتمعاً لا يثق إلا بمن لم يكشف خطؤه بعد. وهنا تظهر مفارقة خطيرة: قد يُقصى من اعتراف وتغير، بينما يبقى في المكان من لم تُكشف خطاياه أصلاً.

وهذا يربي الناس على الإخفاء لا على الصدق.

فإذا كان الاعتراف يؤدي إلى وصمة لا تنتهي، سيصبح الإنكار أكثر جاذبية.

وإذا كان الصدق مع الماضي يكلف الإنسان مستقبله كله، فقد يختار كثيرون التستر بدل الإصلاح.

وهكذا يصبح المجتمع الذي يبالغ في العقوبة الأخلاقية على الاعتراف مجتمعاً يعلم الناس الكذب على أنفسهم وعلى الآخرين.

ولهذا فإن ثقافة الإصلاح تحتاج إلى فرق واضح بين من يعترف ويغير ومن يكرر ويدافع. لا يجوز أن يوضع الاثنان في موضع واحد. الذي يواصل الخطأ ويطلب أن يُعامل كمن تجاوز ماضيه لم يتغير. والذي قطع مسافة واضحة في الإصلاح لا يصح أن يُحاكم كما لو أن الزمن لم يتحرك.

العدل نفسه يقتضي التمييز.

فليس من العدل أن نجعل التائب والمصر سواء، كما ليس من الرحمة أن نجعل المخطئ المتكرر والمصلح في موضع واحد.

والذي يؤلم أن المجتمع قد يكون أكثر قسوة على من عرف خطؤه علناً من قسوته على من يخفي خطأه جيداً. وهنا تنقلب القيم؛ يصبح من حسن إخفاء صورته أفضل حالاً من الذي واجه نفسه بشجاعة.

وهذا خلل عميق.

فالإصلاح يحتاج إلى بيئة لا تجعل الاعتراف انتحاراً اجتماعياً.

ويحتاج إلى ثقافة تعرف أن ستر الماضي بعد الإصلاح ليس تزويراً، بل قد يكون جزءاً من احترام إنسان تجاوز ما كان.

ومن هنا نفهم جمال الستر بوصفه خلقاً اجتماعياً. ليس كل ما عرفته عن إنسان ينبغي أن ترويه، وليس كل خطأ قديم صار مادة عامة. قد يكون تذكير الناس بماضي إنسان تغير نوعاً من إعادة إنتاج الأذى، خصوصاً حين لا يترتب على الكشف مصلحة حقيقية.

وهذا لا يعني إخفاء ما يهدد الحقوق أو سلامة الآخرين، لكن الفرق كبير بين حماية الناس وبين التلذذ بفضح ماضٍ لم يعد يحكم صاحبه.

الستر هنا ليس تزويراً للواقع، بل احترام لحق الإنسان في ألا يختزل في لحظة تجاوزها. وقد يكون من أشد صور السجن الاجتماعي أن يتحول الخطأ إلى لقب. فاللقب أخطر من الوصف؛ لأنه يجعل الفعل اسماً دائماً. فعل كذا، ثم صار «هو الذي فعل كذا». ومع التكرار يخفي الإنسان خلف الواقعة.

وهذه آلية قاسية في اللغة؛ لأننا حين نحول الفعل إلى اسم، نغلق الحركة.

الفعل حدث.

أما الاسم فيبدو كأنه جوهر.

وهنا ينبغي أن نحذر من اللغة التي نحبس بها الناس.

نستطيع أن نقول: أخطأ.

ولا نضطر دائماً إلى أن نقول: هو الخطأ نفسه.

وهذا لا يخص الخطايا الأخلاقية فقط، بل يشمل الفشل الاجتماعي والمهني والعلمي. قد يفشل الإنسان في مشروع، ثم يبقى في نظر الناس فاشلاً، حتى لو تعلم وأنجز بعد ذلك. وقد يمر بمرحلة ضعف في شبابه، ثم لا يسمح له أحد أن يتجاوزها. وقد يُعرف بقرار خاطئ واحد فيظل كل ما يأتي بعده تابعاً له.

وهنا يصبح المجتمع نفسه مقاوماً للنمو.

فإذا كان لا يترك للناس مجالاً لتعديل صورتهم، فهو يقتل الدافعية إلى التجريب والتعلم. والإنسان الناضج في مثل هذا المجتمع يحتاج إلى نوع مضاعف من الصبر. عليه أن يستمر حتى حين لا تُعرف تحولاته سريعاً. لا يجعل تقييم الناس سبباً للتراجع. ولا يسمح للوصم أن يعيده إلى الهوية القديمة.

هذا صعب، لكنه جزء من الحرية.

أن تعرف أنك تغيرت، حتى لو لم يفهم الجميع بعد.

أن تستمر في بناء نفسك، لا لكي تقنعهم، بل لأن هذا هو الطريق الذي اخترته.

وفي هذا السياق يظهر معنى مهم: ليس كل من لم يثق بك ظالماً. بعض الناس يحتاج إلى زمن، وبعضهم لديه حق مشروع في الحذر إذا كان قد تأذى منك. والإنسان المتغير ينبغي أن يميز بين الوصم غير العادل وبين الحذر المشروع.

هذه دقة ضرورية.

فإذا طالب الجميع أن يصدقوه فوراً، فقد يكون ما زال يضع نفسه في مركز الحكاية.

أما إذا قال: سأستمر، ومن حقهم أن يروا، فقد نضج.

والأمر نفسه ينطبق على المجتمع: من حقه أن يتثبت، لكن ليس من حقه أن يغلق الباب قبل أن ينظر.

هذه هي المعادلة السليمة.

لا سداجة.

ولا إدانة أبدية.

وقد تكون قصة يوسف مثلاً رائعاً على كيف يمكن أن يتعامل الإنسان مع الآخر بعد تغييره. يوسف يعرف ماضي إخوته أكثر من أي أحد، ومع ذلك لم يجعل ذلك الماضي يمنعه من إعادة فتح العلاقة. لم يطلب منهم أن ينسوا ما فعلوا، ولم ينس هو، لكنه سمح للأسرة أن تتشكل من جديد.

وهذا معنى بالغ الأهمية: العلاقة بعد الخطأ لا تعود دائماً كما كانت، لكنها يمكن أن تصبح شيئاً جديداً.

ليس رجوعاً إلى نقطة البداية، بل تأسيساً على وعي جديد.

والأسرة التي مرت بأزمة ثم صلحت قد لا تعود الأسرة نفسها، لكنها قد تصبح أكثر صدقاً.

والصدافة التي مرت بخيانة ثم أصلحت قد لا تستعيد براءتها القديمة، لكنها قد تبني نضجاً لم يكن موجوداً.

والإنسان الذي فقد الثقة ثم استعادها قد لا يعود ساذجاً، لكنه قد يصير أكثر فهماً. وهذا ليس نقصاً.

أحياناً لا يعيدنا الإصلاح إلى ما كنا، بل يأخذنا إلى شيء أعمق.

ومن هنا فإن البداية الجديدة لا تعني محو الصفحة القديمة. بل تعني أن الصفحة القديمة لم تعد آخر صفحة.

وهذا هو المعنى الذي يحتاجه كل إنسان يحمل تاريخاً لا يحبه. الماضي موجود.

لكن الكتاب لم ينته.

ولعل أكثر المجتمعات رحمة ليست التي تنسى كل شيء، بل التي تعرف متى يجب أن تتذكر، ومتى يجب أن تتوقف عن الاستعمال العقابي للذاكرة.

فالتذكر يحمي من تكرار الخطأ.

لكن الإفراط فيه قد يمنع التغير.

والنسيان الكامل قد يعرض الناس للأذى.

لكن الذاكرة المطلقة قد تحول الحياة إلى محكمة لا تنتهي.

الحكمة هي أن نعرف وظيفة الذاكرة، لا أن نعبدها.

وهذا يقودنا إلى مستوى أشد عمقًا: ما الذي يحدث للإنسان حين لا يسمح له المجتمع أن يتغير؟ هل يقاوم، أم ينهار، أم يبدأ في تبني الصورة التي فرضت عليه؟ وكيف يتحول الوصم الخارجي بمرور الزمن إلى هوية داخلية؟

هنا ندخل منطقة دقيقة من تكوين الشخصية: الإنسان الذي يصدق القلب الذي أطلقه عليه الآخرون.

وهذا هو الفصل التالي:

الفصل الخامس عشر
حين يصدق الإنسان الصورة التي صنعها الآخرون عنه

ليست كل السجون خارجية. أخطرها أحياناً ذلك الذي ينتقل من كلام الناس إلى داخل الإنسان، فيصير الصوت الذي كان يسمعه من الآخرين هو صوته هو. يقال له طويلاً: أنت ضعيف، أنت فاشل، أنت لا تتغير، أنت لا تصلح لهذا، أنت الذي أخطأت، أنت الذي سقطت، ثم تمضي الأيام حتى لا يحتاج أحد إلى تكرار العبارة، لأنه صار يرددها بنفسه. وهنا يتحول الحكم الخارجي إلى هوية داخلية، ويتحول الوصف إلى قدر نفسي، ويبدأ الإنسان في تنظيم أفعاله واختياراته على أساس الصورة التي لم يصنعها بنفسه ابتداءً لكنه صدقها مع كثرة التكرار.

وهذه واحدة من أخطر صور فقدان الحرية. فالإنسان قد يخرج من سلطة من حكموا عليه، لكنه يبقى يحلهم في داخله. قد يتعد عنهم جغرافياً، وقد ينقطع عنهم اجتماعياً، لكن عباراتهم تظل حاضرة في كل موقف جديد. فإذا حاول أن ينبج، سمع في داخله: أنت لا تستطيع. وإذا اقترب من فرصة، سمع: ستفشل كما فشلت من قبل. وإذا بدأ في بناء علاقة جديدة، سمع: أنت لا تستحق الثقة. وهكذا يصبح الماضي صوتاً مستمراً يعلق على الحاضر.

المشكلة هنا ليست أن آراء الناس لا قيمة لها؛ فقد تكون بعض أحكامهم صحيحة جزئياً، وقد يكون الإنسان أخطأ فعلاً، أو فشل، أو أضاع فرصاً، أو أضر بغيره. لكن الخطورة تبدأ حين ينتقل الحكم من الفعل إلى الجوهر: من «فشلت في هذا» إلى «أنت فاشل»، ومن «كذبت» إلى «أنت لا تستطيع أن تكون صادقاً»، ومن «أسأت» إلى «أنت شر لا يتغير». في هذه النقلة اللغوية الصغيرة تُغلق أبواب كثيرة، لأن الإنسان يبدأ في التعامل مع الصفة كأنها طبيعة ثابتة لا فعل قابل للتعديل.

ولهذا فإن من أهم مهام التحول أن يستعيد الإنسان حقه في التفريق بين ما فعل ومن يكون. ليس ليتصل من المسؤولية، بل لكي لا يجعل المسؤولية سجنًا. يمكن أن يقول: نعم، أخطأت، من غير أن يقول: الخطأ هو ماهيتي. ويمكن أن يقول: نعم، فشلت، من غير أن يجعل الفشل تعريفه النهائي. ويمكن أن يعترف بأنه ظلم، من غير أن يقرر أنه عاجز عن العدل إلى الأبد.

وهنا تظهر أهمية اللغة التي يخاطب بها الإنسان نفسه؛ لأن الكلمات التي نكرها ليست بريئة تمامًا. هي تبني توقعات، والتوقعات توجه الأفعال، والأفعال المتكررة تعود فتقوي الصورة الأصلية. فإذا قال الإنسان لنفسه: أنا لا أستطيع التغير، فسيتوقف عن بذل الجهد، ثم يصبح توقفه عن الجهد دليلًا جديدًا - في نظره - على أنه لا يتغير. وهكذا تكون دائرة مغلقة من الاعتقاد والسلوك.

والخروج منها يبدأ أحيانًا بجملة أصغر مما نتوقع: ما حدث ليس كل ما أنا.

هذه ليست جملة تجميلية، بل قاعدة ضرورية للنجاة.

وقد يكون من أكثر ما يرسخ الصورة الخارجية أن الإنسان يبحث باستمرار عن تأكيدها من الناس. فإذا عُرف مثلاً بأنه ضعيف، صار يلتقط كل موقف يثبت ضعفه ويتجاهل ما يخالفه. وإذا عرف بأنه فاشل، صار يرى النجاحات مصادفات والفشل حقيقة. وهنا تتحول الهوية القديمة إلى مرشح للإدراك؛ لا يرى الإنسان الواقع كما هو، بل كما يسمح له تعريفه السابق عن نفسه.

وهذا يفسر لماذا قد يصعب على بعض الناس تصديق الخير حين يحدث لهم. إذا اعتاد الإنسان أنه لا يستحق، فقد يشك في المحبة. وإذا اعتاد أنه لا ينجح، فقد يخاف من النجاح أكثر مما يفرح به، لأنه يهدد الصورة التي ألفها. وإذا اعتاد أن يكون ضحية، فقد

يجد صعوبة في العيش خارج هذا الدور، لأن المسؤولية التي تأتي مع الحرية أثقل من المظلومية أحياناً.

وهنا يصبح التحول مخيفاً؛ لأنه لا يطلب من الإنسان فقط أن يترك أماً، بل أن يترك هوية بناها حول الألم.

إن بعض الناس يعيشون طويلاً في تعريف أنفسهم من خلال ما صنعه بهم الآخرون. يقول: أنا الذي ظُلم، أنا الذي خُذل، أنا الذي أُقصي، أنا الذي لم يُفهم. وهذه كلها قد تكون حقائق، لكن الخطر أن تتحول إلى المركز الوحيد للهوية. عندئذ يصبح الآخرون، حتى بعد غيابهم، أصحاب سلطة على تعريف الذات؛ لأن الإنسان يظل يرى نفسه عبر أفعالهم.

وهذه مفارقة قاسية: أن تكره ما فعلوه بك، ثم تمنحهم حقاً دائماً في تحديد من تكون. والتحرر الحقيقي يبدأ حين تقول: ما فعلوه جزء من قصتي، لكنه ليس الاسم الذي سأعيش تحته.

وهذا لا يعني تجاهل الظلم أو إنكار أثره. فالإنسان قد يحمل جراحاً حقيقية، وبعضها يعيد تشكيل طريقة رؤيته للعالم. لكن المطلوب ألا يتحول الاعتراف بالأثر إلى تنازل عن المستقبل. يمكنك أن تقول: نعم، هذا جرحي، لكنني لن أجعله خريطة كلها.

وهذه إحدى أشد صور النضج صعوبة: أن تحترم أملك من غير أن تقدسه.

أن تعترف به من غير أن تجعله مرجعاً لكل اختيار.

أن تمنحه مكاناً في التاريخ، لا عرشاً في الحاضر.

وقد يكون من المؤلم أن يكتشف الإنسان أن بعض الناس يحتاجون بقاءه في صورته القديمة. فطالما كان ضعيفاً، شعروا بقوتهم. وطالما كان مذنباً، شعروا ببراءتهم. وطالما

بقي في الدور الذي اعتادوه، لم يضطروا إلى مراجعة علاقتهم به. فإذا تغير، اختل ترتيب قديم.

وهنا يواجه المتحول امتحاناً جديداً: هل يعود إلى نسخته القديمة حتى لا يربك الآخرين؟ كثير من الناس يفعلون ذلك من غير وعي. يكبرون، لكنهم حين يعودون إلى بيئة قديمة يتصرفون بالطريقة القديمة نفسها، لأن كل شخص هناك يذكرهم بالدور الذي كانوا يلعبونه. وقد يكون هذا من أصعب آثار العلاقات الطويلة: أنها لا تعرفنا فقط، بل قد تعيد استدعاء نسخ قديمة منا.

ولهذا فإن التحول يحتاج أحياناً إلى شجاعة أن تبقى جديداً في المكان الذي عرفك قديماً. وفي هذه النقطة يبرز سؤال مهم: من يملك حق تعريف الإنسان؟

الناس يملكون أن يصفوا سلوكه، وأن يحكموا على أفعاله، وأن يضعوا حدوداً في علاقاتهم به، لكنهم لا يملكون وحدهم كتابة المعنى النهائي لوجوده. الإنسان نفسه مسؤول عن الاستجابة للحق، وعن بناء شخصيته، وعن مراجعة صورته أمام الله. وإذا جعل رأي الناس المصدر الأعلى لهويته، عاش متقلباً بتقلبهم.

فإن مدحوه ارتفع.

وإن ذموه انهار.

وإن قبلوه شعر بالقيمة.

وإن رفضوه شك في نفسه.

وهكذا لا يعيش من داخله، بل من مرايا موزعة على وجوه الآخرين.

وهذا شكل من أشكال العبودية النفسية.

أن تحتاج إلى أعين الناس لكي تعرف نفسك.

لا يعني هذا أن الإنسان يستطيع الاستغناء عن المجتمع تماماً؛ نحن نتعلم عن أنفسنا من خلال العلاقات، وتكشف لنا آراء الآخرين جوانب لا نراها. لكن الفرق كبير بين أن تستفيد من المرأة وبين أن تعطيها حق تعريفك كاملاً.

المرأة تخبرك كيف تبدو.

لكنها لا تقرر من تكون.

والشخصية المتحوّلة تتعلم أن تستقبل النقد من غير أن تُسلم للنقد هويتها. تسمع، تراجع، تأخذ ما فيه من حق، وتترك ما فيه من ظلم. وهذه قدرة نادرة؛ لأن الإنسان يميل إلى أحد طرفين: إما رفض كل نقد دفاعاً عن الذات، أو ابتلاع كل نقد حتى يذوب فيه. أما النضج فهو أن تملك مسافة.

أن تقول: قد يكون في كلامك شيء صحيح، وسأراجع.

لكن ليس كل ما تقوله عني هو حقيقي الكاملة.

وهذا يعيدنا إلى بناء الهوية على أساس أكثر ثباتاً. إذا كان الإنسان لا يريد أن يعيش أسيراً لنظرات الناس، فعليه أن يعرف ما الذي يريد أن يكونه فعلاً. ما القيم التي يختارها؟ ما المبادئ التي يريد أن يقيس نفسه بها؟ ما علاقته بالله؟ ما الصورة التي يرضى أن يحيا عليها حتى لو لم يصفق لها الآخرون؟

من لا يبني مركزاً داخلياً يظل معرضاً للاختطاف من كل رأي خارجي.

وهنا يصبح الإيمان بالله تحريراً للهوية أيضاً؛ لأن الإنسان حين يعرف نفسه عبداً لله لا يعود مضطراً إلى أن يستمد قيمته النهائية من قبول الناس. الناس مهمون، لكنهم ليسوا المصدر الأخير للمعنى. وقد يخطئون فيك، وقد يصيبون، وقد يمدحونك بما ليس فيك،

وقد يذمونك بما ليس فيك، لكنك تظل مسؤولاً عن حقيقتك أمام الله وعن العمل على إصلاحها.

وهذا يمنح الإنسان قدرة عجيبة على التوازن: لا يتكبر على النقد، ولا ينهار تحته. ومن أخطر آثار الصورة التي يصنعها الآخرون أن الإنسان قد يبدأ في لعب الدور المتوقع منه. إذا قيل عنه طويلاً إنه المشاغب، يتصرف كمشاغب. وإذا قيل له إنه لا يصلح للعلم، يقل اجتهاده. وإذا كان في الأسرة هو الذي يحمل دوماً لقب المخطئ، قد يتحول اللقب إلى جزء من سلوكه.

وهذا يجعل الكلمات التي نطلقها على الناس مسؤولية أخلاقية. قد تكون الكلمة وصفاً لحظة، لكنها تتحول عند صاحبها إلى نبوءة يحققها بنفسه. ولهذا ينبغي أن نتعلم أن نفرق بين تصحيح الخطأ وثبتت الخطأ في هوية صاحبه. نقول للطفل: هذا الفعل غير مقبول، لا: أنت سيئ. ونقول للإنسان: أخطأت هنا، لا: لا خير فيك. الفرق ليس لغوياً فقط؛ إنه يحفظ له مساحة التغيير. وقد يكون هذا من أعظم ما يمنحه المربي أو الأب أو الصديق لإنسان أخطأ: أن يرفض فعله بوضوح، لكنه لا يسلبه إمكانية أن يكون أفضل. هذه معادلة شديدة القوة.

وضوح بلا سحق.

رحمة بلا تمييع.

مسؤولية بلا يأس.

ومن هنا فإن استعادة الهوية تمر بثلاث خطوات مترابطة: أن يعرف الإنسان ما الذي قيل عنه، وأن يختبر صدقه بإنصاف، ثم أن يقرر ما الذي سيبنيه بالفعل. لا يكفي أن يقول: سأرفض كل ما قاله الناس. قد يكون بعضه صحيحاً ويحتاج إلى إصلاح. ولا يكفي أن يقبل كل شيء. المطلوب أن يحول الصورة من حكم إلى سؤال.

هل هذا صحيح؟

ما الجزء الصحيح فيه؟

ما الذي تغير؟

ما الذي لم يتغير بعد؟

ماذا أريد أن أصنع من الآن؟

وهكذا يتحول الوصف الخارجي إلى مادة للوعي لا إلى سجن.

وحين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة، يبدأ في شيء مهم: استعادة حقه في السرد. كل إنسان يروي قصة حياته لنفسه بطريقة ما. بعضهم يرويها كقصة هزائم، وبعضهم كقصة ظلم، وبعضهم كقصة كفاح، وبعضهم كقصة أخطاء وتعلم. والوقائع قد تكون متشابهة، لكن طريقة ترتيبها تصنع معنى مختلفاً.

ولا يعني هذا اختلاق بطولات أو تزييف الألم، بل اختيار الإطار الذي يسمح للحياة أن تتحرك.

إذا قلت: كل ما حدث يثبت أنني لا أصلح، أغلقت الطريق.

وإذا قلت: حدث ما حدث، وبعضه كان بسببي وبعضه وقع علي، لكنني ما زلت قادراً على اختيار ما يأتي، فتحت الطريق.

وهنا يصبح السرد أداة أخلاقية. القصة التي ترويها عن نفسك تستطيع أن تحبسك أو تحررك.

لكن ينبغي أن تكون صادقة.

فالتحرر لا يبني على الوهم.

لا تقل: لم أخطئ إذا أخطأت.

ولا تقل: لم أتألم إذا تألمت.

بل قل: أخطأت، وتعلمت. تألمت، ولم أته. سقطت، وقت. ظلمت، لكنني لن أتحوّل إلى ظلم.

هذه لغة أكثر نضجاً.

ويمكننا أن نرى هذا المعنى في قصة يوسف نفسها. يوسف لم يرو حياته عند النهاية بوصفها سلسلة مظالم فقط، مع أن المظالم كانت حقيقية، بل رأى فيها لطف الله وتدييره ومساراً أكبر من الجب والسجن. هذا لا يلغي الظلم، لكنه يعيد وضعه داخل قصة أوسع.

وهذه قدرة عظيمة: أن تستطيع أن ترى حياتك في ضوء أوسع من أكثر لحظاتها ألماً.

وهنا يصل الإنسان إلى صورة من الحرية الداخلية: لا ينكر ما قاله الآخرون، لكنه لا يعيش به. لا ينسى ما كان، لكنه لا يتقيد به. لا يدّعي الكمال، لكنه يرفض اليأس.

ويبدأ في قول جملة جديدة:

أنا مسؤول عما سأصير.

هذه الجملة هي انتقال من الهوية الموروثة إلى الهوية المختارة.

لكن هذا يفتح سؤالاً أكثر عمقاً: إذا كان الإنسان يستطيع أن يعيد تعريف نفسه، فهل يستطيع أيضاً أن يعيد بناء معنى ماضيه؟ هل يمكن أن تتحول الخطيئة نفسها، بعد التوبة، من مصدر عار إلى مصدر بصيرة؟ وهل يمكن أن يصبح الجرح معرفة، والفشل حكمة، والسقوط تواضعاً؟

هنا ندخل إلى مرحلة أكثر نضجاً من مجرد النجاة من الماضي: تحويل الماضي إلى مورد للوعي.

وهذا هو الفصل التالي:

ليس النضج أن ينسى الإنسان ما مر به، ولا أن ينجح في دفعه بعيداً عن وعيه، بل أن يتعلم كيف يضعه في موضع يمكن أن يستخرج منه معنى. فالماضي لا يتغير، لكن علاقتنا به تتغير. قد يبقى الحدث نفسه، وتبقى الخطيئة نفسها، ويبقى الجرح نفسه، لكن الإنسان الذي يعود إليه بعد سنوات قد يراه بعين أخرى، وقد يكتشف أن ما كان في البداية مجرد ألم صار الآن معرفة، وأن ما كان مصدر نجل أصبح موضعاً لفهم النفس، وأن السقوط الذي كان يظنه نهاية صار فيما بعد أحد الأسباب التي جعلته أكثر تواضعاً ووعياً.

وهذه من أعقد التحولات؛ لأن الإنسان لا يصل إليها وهو ما يزال في قلب الجرح. ففي البداية تكون التجربة أقرب إلى الألم منها إلى الفهم. المشاعر ساخنة، والأسئلة كثيرة، والنفس مشغولة بالنجاة أكثر من التأمل. لكن مع مرور الزمن، وبعد أن تخف حدة الصدمة، يصبح ممكناً أن يسأل الإنسان: ماذا عرفت عن نفسي من خلال ما حدث؟ ما الذي كان غائباً عني؟ ما الذي كنت أتوهمه؟ ما الذي كنت أظنه قوة فإذا هو ضعف؟ وما الذي كنت أظنه نهاية فإذا به باب إلى فهم أعمق؟

هنا يبدأ الماضي في الانتقال من كونه مجرد شيء وقع إلى كونه معرفة مكتسبة.

وهذا لا يعني تبرير الخطأ، ولا تجميل المعاناة، بل يعني رفض أن يكون الألم بلا ثمرة.

قد يكتشف الإنسان بعد سنوات أن خطيئة ما كشفت له موضعاً في نفسه لم يكن يعرفه. كان يظن أنه لا يحسد، حتى وجد قلبه يضيق من نجاح شخص قريب. وكان

يظن أنه لا يكذب، حتى وجد نفسه تحت ضغط حقيقي فاختر النجاة بالكذب. وكان يظن أنه متسامح، حتى جرح في موضع عميق فظهر فيه ما لم يكن يتوقعه.

في هذه اللحظة يكون أمام خيارين: أن ينجل من نفسه فقط، أو أن يتعلم منها. النجل قد يكون بداية، لكنه لا يكفي.

أما التعلم فيحتاج إلى شجاعة أن تسأل: ما الذي حدث داخلي؟ لماذا حدث؟ وما الذي ينبغي أن أبنيه حتى لا يتكرر؟

وهنا يتحول الخطأ من واقعة إلى درس.

ومن أعمق صور البصيرة أن يكتشف الإنسان أن ضعفه لم يكن في الموضع الذي كان يظنه. قد يظن أنه سقط بسبب شخص ما، ثم يرى لاحقاً أن المشكلة كانت في حاجته المفرطة إلى القبول. وقد يظن أن سبب غضبه هو إساءة الآخرين، ثم يكتشف أن جرحاً قديماً كان يجعل كل نقد يبدو له إهانة. وقد يظن أن حسده سببه تفوق الآخر، ثم يرى أنه كان يعاني من صورة هشة عن نفسه.

هذه الاكتشافات لا تأتي بسهولة؛ لأنها تهدد التفسير الذي عاش به الإنسان طويلاً. لكنها من أثمن ما يمكن أن يمنحه الماضي.

فالخطأ الذي لا يفهم قد يتكرر.

أما الخطأ الذي يتحول إلى معرفة فقد يصبح جزءاً من الحماية.

وهذا يجعل الذاكرة أداة بناء. بدل أن تقول: لماذا أتذكر هذا؟ يمكن أن يصبح السؤال: ماذا أفعل بهذه الذكري؟

هل أستخدمها لأعاقب نفسي؟

أم لأفهمها؟

هل أعيد فتح الجرح كل مرة؟

أم أجعل ما تعلمته منه جزءاً من حكمتي؟

وهذا فرق كبير.

فالذاكرة التي تعيد الألم وحده تستنزف الإنسان، أما الذاكرة التي تستخرج المعنى فتضيف إليه شيئاً.

ومن هنا يمكن أن نفهم كيف يصبح الماضي أحياناً مصدر رحمة. من أخطأ وعرف ألم الخطأ لا يعود ينظر إلى الآخرين بالطريقة نفسها. ليس لأنه يبرهم، بل لأنه يعرف أن الإنسان أعقد من الفعل الذي يظهر منه. يعرف أن وراء بعض القسوة خوفاً، ووراء بعض الكذب ضعفاً، ووراء بعض الحسد شعوراً بالنقص. وهذه المعرفة لا تلغي الحكم الأخلاقي، لكنها تجعل الموقف أقل سطحية.

فالذي لم يعرف من نفسه شيئاً من الضعف قد يكون سريعاً في الحكم.

أما الذي رأى نفسه في مواضع لم يكن يتوقعها، فيصبح أكثر حذراً.

وهذا الحذر ليس نسبية أخلاقية. لا يعني أن كل شيء معذور، بل يعني أن الإنسان يميز بين رفض الفعل واحتقار الفاعل. يستطيع أن يقول: هذا خطأ، ومع ذلك لا يلغي إنسانية صاحبه. يستطيع أن يحاسب، لكنه لا يحتاج أن يتعالى.

وهذه واحدة من ثمار البصيرة الحقيقية.

أن تصبح أكثر وضوحاً في الحق، وأقل قسوة على البشر.

وفي قصة يوسف يظهر هذا المعنى على نحو بديع. لقد مر بإخوة، وبالجب، وبالرق، وبالمراودة، وبالسجن، ثم بالقوة والملك. كل مرحلة أضافت إلى معرفته بالإنسان. ولذلك حين صار قادراً على إخوته لم يتصرف كمن يرى العالم من زاوية واحدة. كان يعرف الضعف لأنه عاشه، ويعرف القوة لأنه صار يملكها، ويعرف الخيانة لأنه ذاقها، ويعرف معنى الصفح لأنه احتاج إلى أن يكون أكبر من الجرح.

هذه الخبرة المتراكمة صنعت شخصية لا تختزل الناس في لحظة واحدة.

وهذا هو المعنى الذي نريد أن نصل إليه: أن الماضي، إذا فهم، قد يوسع الإنسان بدل أن يضيقه.

لكن هذا التحول يحتاج إلى شيء بالغ الأهمية: أن يتوقف الإنسان عن الرغبة في محو ماضيه. فبعض الناس يكرهون أجزاء من حياتهم إلى درجة أنهم يريدون لو لم توجد. وهذه رغبة مفهومة، لكنها مستحيلة. ما وقع لا يمكن إلغاؤه، وكل محاولة للعيش وكأنه لم يحدث تجعل الإنسان في صراع دائم مع حقيقة حياته.

النضج يبدأ حين يقول: هذا وقع.

لم أختر بعضه.

واخترت بعضه خطأ.

وتأذيت.

وأذيت.

لكنني لن أبدد بقية عمري في محاولة حذف ما لا يمكن حذفه.

سأتعلم كيف أضعه في مكانه.

وهذا القبول ليس استسلاماً، بل تحرير للطاقة. فالإنسان الذي يقضي عمره في معركة مع الماضي لا يبقى لديه الكثير ليبني به المستقبل. أما حين يقبل الحقيقة كما هي، يبدأ في استخدام جهده في شيء آخر: ماذا أفعل الآن؟

وهنا تنتقل الحياة من سؤال لا يملك تغييره إلى سؤال يملك جزءاً من إجابته.

ومن علامات تحوّل الجرح إلى بصيرة أن الإنسان لا يعود محتاجاً إلى رواية التجربة في كل مرة بالطريقة نفسها. في البداية قد يرويها لأنه يحاول فهمها، ثم يرويها لأنه يريد إنصافه، ثم يرويها لأنه يبحث عن من يصدقّه. لكن مع الزمن، إذا شُفي، يقل احتياجه إلى إثبات ألمه.

لا لأنه صار أقل حقيقة، بل لأنه لم يعد يحتاج إلى شهادة خارجية حتى يعرف أنه وقع.

وهذا نوع من السلام.

وقد يحدث الأمر نفسه مع الخطيئة. في البداية يكون الإنسان أسيراً لشعور الذنب، ثم إذا تاب وأصلح وتعلم، يصبح قادراً على تذكر ما فعل من غير أن ينهار. يعرف أن ذلك كان جزءاً من حياته، لكنه لا يسمح له أن يبتلع ما جاء بعده.

وهنا يصير الماضي حقيقة بلا سطوة.

ومن أجهل ما يمكن أن يصنعه الإنسان بماضيه أن يحوله إلى حماية لغيره. قد يصبح أقدر على تحذير شاب من خطأ لأنه يعرف الطريق إليه. وقد يكون أقدر على مساعدة من يمر بتجربة مشابهة لأنه لا يتحدث من الكتب فقط، بل من موضع عرف شيئاً من الداخل.

وهنا يتحول الجرح من شيء أخذ من الإنسان إلى شيء يمكن أن يعطي من خلاله.

لكن هذا لا يكون صحيحاً إلا إذا شُفي بدرجة كافية. فالإنسان الذي ما زال ينزف قد يخلط بين مساعدة الآخرين وبين إعادة عيش تجربته فيهم.

ولهذا يحتاج أن يعرف: هل أنا أعطي من الحكمة، أم من الألم؟

البصيرة الحقيقية لا تجعل الإنسان مهووساً بماضيه، بل أقل استعباداً له. يستخدمه حين يحتاج، ويتركه حين لا يحتاج. لا يبني كل حديثه عليه، ولا يستمد قيمته منه.

وهذا فرق مهم.

فن الناس من يصنع هويته الجديدة كلها من قصة الشفاء. يبقى أسيراً للماضي بشكل مختلف؛ كان أولاً أسيراً للجرح، ثم صار أسيراً لرواية التعافي منه.

أما النضج الأعمق فيسمح للإنسان أن يتجاوز حتى هذا.

أن يصبح ماضيه جزءاً من الحكمة، لا محور الشخصية كلها.

وهنا نستطيع أن نقول إن الإنسان لا يشفى فقط حين يقل الألم، بل حين يتغير معنى الألم.

قد يبقى الحزن، لكن لا يبقى عبثاً.

وقد تبقى الندبة، لكنها لا تبقى عاراً.

وقد تبقى الخسارة، لكنها تفتح باباً لفهم ما كان غائباً.

وهذه ليست محاولة لإجبار كل تجربة على إنتاج معنى فوري؛ بعض الأشياء تبقى عصية على الفهم طويلاً. لكن الإنسان يستطيع مع الزمن أن يضعها داخل رؤية أوسع للحياة.

ومن هنا نعود إلى سؤال العمر نفسه. ما قيمة السنوات إذا كانت تمر من غير أن تتحول إلى معرفة؟ قد يعيش إنسان أحداثاً كثيرة ولا يخرج منها بشيء، وقد يمر آخر بتجارب أقل لكنه يعرف كيف يقرأها.

والخبرة ليست كثرة ما حدث لك.

بل ما فهمته مما حدث.

ولهذا فإن بعض الناس يكبرون في السن ولا يكبرون في الوعي. يكررون النمط نفسه في علاقات مختلفة، ويعيدون الخطأ نفسه بأسماء جديدة، ثم يشتكون من تكرار النتائج. لم يتحول الماضي إلى بصيرة؛ بقي مجرد أرشيف.

أما الإنسان الذي يتعلم، فإنه يبدأ في رؤية الأنماط.

يقول: هنا بدأت المشكلة من قبل.

هنا كنت أهر.

هنا كنت أهرب.

هنا كنت أستجيب بالطريقة نفسها.

وهذه القدرة على رؤية النمط من أقوى علامات النضج.

فالخطأ الواحد قد يكون حادثة، لكن تكراره قد يكشف بنية.

والتحول الحقيقي لا يقف عند الحادثة، بل يذهب إلى البنية.

لماذا يتكرر؟

ما الذي أستفيد منه سرّاً؟

ما الخوف الذي يغذيه؟

ما الاحتياج الذي لم أفهمه؟

ما الفكرة التي تسمح له بالعودة؟

وهنا يصبح الماضي مادة تحليل لا مادة جلد.

ومن أعمق صور البصيرة أيضاً أن يتعلم الإنسان التمييز بين ما هو مسؤوليته وما ليس مسؤوليته. فقد يحمل بعض الناس ذنباً لا يخصهم، كما يهرب آخرون من ذنب يخصهم. الأول يحتاج إلى أن يخفف عن نفسه ما لا يملك، والثاني يحتاج أن يحمل ما تهرب منه. والنضج هو معرفة الحدود.

هذا كان خطئي.

وهذا لم يكن.

هذا كان في قدرتي.

وهذا لم يكن.

هذا ينبغي أن أصلحه.

وهذا ينبغي أن أقبله.

هذه الدقة تمنع الإنسان من الغرق في لوم شامل لا ينتهي.

وهنا تظهر أهمية الرحمة بالنفس، لا بمعنى التبرير، بل بمعنى الإنصاف. الإنسان الذي لا يرحم نفسه قد يصبح عاجزاً عن الإصلاح؛ لأنه يستهلك طاقته في العقاب الداخلي. والإنسان الذي يبرر لنفسه كل شيء لا يتغير. وبينهما منطقة صحية: أن أرى خطئي بوضوح، وأرفضه، وأتحمل مسؤوليته، ثم أسمح لنفسي بأن أبدأ من جديد.

هذه ليست مجاملة.

إنها شرط للاستمرار.

ولعل أعظم تحول يحدث للماضي هو حين يفقد قدرته على إنتاج الخوف. كان الإنسان يخشى تذكره، ثم صار قادراً على النظر إليه. كان يتجنب الحديث عنه، ثم صار يستطيع ذكره بلا انقياد. كان يشعر أن الحقيقة ستسحقه، ثم اكتشف أن مواجهتها حرته. حينها يعرف أن شيئاً جوهرياً قد تغير.

وهنا يمكن أن نرى أن الماضي ليس عدواً دائماً. أحياناً يكون مخزناً للعلامات التي تدلنا على الطريق. فيه مواضع ضعفنا، ومواضع قوتنا، والأشخاص الذين أحسنوا إلينا، والقرارات التي أتقنتها، والأوهام التي خدعتنا. إذا قرأناه جيداً، يصبح نوعاً من الخرائط.

لكن الخريطة لا تُعبد.

نستخدمها، ثم نواصل السير.

وهذا هو الفرق بين الإنسان الذي يعيش من الماضي والإنسان الذي يتعلم منه. الأول يرجع إليه ليقيم فيه، والثاني يرجع إليه ليأخذ ما يحتاجه ثم يعود إلى الحاضر. والشخصية المتحوّلة تنتمي إلى النوع الثاني.

وقد يكون من أجمل ما يحدث في نهاية هذا المسار أن يستطيع الإنسان أن يشكر بعض ما تعلمه من غير أن يشكر الشر نفسه. يشكر الله على ما أخرجه من التجربة، لا على الخطأ بوصفه خطأ، ولا على الظلم بوصفه ظلماً. وهذه دقة مهمة تحفظ المعنى.

فالتحير الذي خرج لا يغير طبيعة الشر الذي وقع، لكنه يكشف أن الإنسان ليس مضطراً أن يترك الشر يملك الكلمة الأخيرة.

وهنا تكمن قوة التحول.

أن لا تكون الكلمة الأخيرة للجب.

ولا للخيانة.

ولا للفشل.

ولا للذنب.

ولا للوصمة.

بل لما صار إليه الإنسان بعد ذلك.

ومن هنا نصل إلى سؤال أكثر دقة: إذا تحول الماضي إلى بصيرة، فكيف تتغير علاقة الإنسان بنفسه؟ هل يظل مراقباً لها بالخوف، أم يبدأ في بناء ثقة جديدة؟ وكيف يوازن بين التواضع وعدم احتقار الذات، وبين الحذر وعدم العيش في الشك الدائم؟

هذا هو الباب التالي:

الفصل السابع عشر

الثقة الجديدة: كيف يثق الإنسان بنفسه بعد أن عرف ضعفها؟

من أصعب ما يواجه الإنسان بعد السقوط أنه لا يعود يثق بنفسه كما كان. وقد يكون هذا في جانب منه صحيحاً؛ لأن التجربة كشفت له أنه ليس محصناً من الخطأ، وأن الصورة المطمئنة التي كان يحملها عن نفسه لم تكن دقيقة. لكنه إذا بالغ في هذا الأثر، انتقل من الغرور إلى الشك الدائم، ومن الثقة الزائدة إلى فقدان الثقة كلياً. وهنا يصبح الماضي حاضراً مرة أخرى، لا بوصفه ذنباً فقط، بل بوصفه حجة على أن الإنسان لا ينبغي أن يطمئن إلى نفسه أبداً.

لكن النضج لا يكون في الثقة المطلقة، ولا في الارتياح المطلق. هو في ثقة جديدة أكثر تواضعاً، تعرف الضعف ولا تستسلم له، وتعرف القدرة على السقوط من غير أن تنفي القدرة على النهوض. هذه الثقة لا تقول: لن أخطئ أبداً، بل تقول: أعرف مواضع ضعفي، وأعرف أنني أستطيع أن أختار على نحو أفضل. وهي بهذا المعنى أصدق من الثقة القديمة؛ لأنها لم تعد قائمة على الجهل بالنفس، بل على معرفتها.

الإنسان قبل التجربة قد يثق بنفسه لأنه لم يُختبر. وبعد التجربة يمكن أن يثق بنفسه بطريقة أعمق لأنه اختبر، وفشل، وتعلم، وبنى أدوات جديدة. الأولى ثقة بريئة، والثانية ثقة مكتسبة.

وهذا الفارق مهم؛ لأن من عرف ضعفه قد يصبح أقوى إذا لم يحول المعرفة إلى يأس. فالذي يعرف أنه سريع الغضب يستطيع أن يبني مسافة قبل الرد. والذي عرف من نفسه قابلية للحسد يستطيع أن يراقب المقارنة قبل أن تتحول إلى خصومة. والذي عرف أنه يهرب من الحقيقة عند الخوف يستطيع أن يجعل الصدق قراراً سابقاً على الموقف.

وهكذا تصبح معرفة الضعف جزءاً من القوة.

فالضعف المجهول أخطر من الضعف المعروف.

وما لا نراه في أنفسنا يتحكم فينا أكثر مما نراه.

ومن هنا فإن الثقة الجديدة لا تقوم على فكرة أن الإنسان صار كاملاً، بل على أنه صار أكثر وعياً. وهذه نقطة جوهرية؛ لأن بعض الناس بعد خطأ كبير يطلبون من أنفسهم نوعاً من العصمة حتى يطمئنوا من جديد. فإذا شعروا بدافع قديم أو فكرة سلبية أو ضعف عابر قالوا: لم أتغير. وهذا ظلم للنفس.

فالتحول لا يعني اختفاء كل أثر للقديم، بل أن القديم لم يعد صاحب القرار.

قد تأتي الفكرة، لكنك لا تتبعها.

قد يعود الخوف، لكنك لا تدعه يقودك.

وقد يظهر الغضب، لكنك لا تتحول إلى أذى.

هنا يكون الإنسان قد تغير فعلاً، حتى لو لم يصبح ساكن الداخل تماماً.

الثقة الصحية إذن لا تعتمد على غياب الصراع، بل على معرفة أن الإنسان يستطيع أن يديره. وهذا فرق كبير. من ينتظر أن يعيش بلا صراع قد ينتظر طويلاً، أما من يتعلم كيف يتعامل مع الصراع يصبح أقدر على الحياة.

وهذا يشبه من تعلّم السباحة بعد أن عرف الماء. لم يعد يثق بأنه لن يغرق لأنه أقوى من البحر، بل يثق بأنه يعرف كيف يتحرك فيه، ومتى يحذر، ومتى يبتعد، ومتى يطلب النجدة.

وهذه صورة مناسبة للثقة بعد التجربة: ليست استهانة بالخطر، بل قدرة أفضل على التعامل معه.

وقد يكون من أسباب صعوبة استعادة الثقة أن الإنسان يخلط بين الثقة بالنفس والثقة بالعصمة. فإذا كان يظن أنه لا يستطيع أن يثق بنفسه إلا إذا ضمن أنه لن يخطئ، فلن يثق بها أبداً. أما إذا فهم أن الثقة تعني القدرة على التعلم والتصحيح، صار المجال أوسع. أنا لا أثق بنفسي لأنني لا أخطئ.

بل أثق بأنني إذا أخطأت أستطيع أن أرى وأعترف وأعود. وهذه ثقة أكثر واقعية.

وفي هذا المعنى يصبح الاعتراف بالضعف مصدر طمأنينة، لا مصدر خوف فقط. فالإنسان الذي يعرف أنه قابل للسقوط يبني حماية، أما الذي يعتقد أنه فوق السقوط فيسير بلا حراسة.

ولهذا فإن التواضع يحمي الثقة بدل أن يهدمها.

إنه يمنع الثقة من أن تتحول إلى غرور.

وهنا يظهر فرق آخر بين الثقة الجديدة والثقة القديمة: الأولى لا تحتاج إلى إثبات نفسها باستمرار. فالإنسان الذي ما زال هشاً قد يدخل مواقف خطيرة ليبرهن أنه تغير، وقد يعرض نفسه لاختبارات غير ضرورية فقط لكي يقول: انظروا، أنا أقوى الآن. لكن هذا السلوك يكشف أنه ما زال يحتاج إلى تصديق خارجي.

أما الواثق فعلاً فلا يحتاج إلى تعريض نفسه للسقوط لكي يثبت أنه لم يعد كما كان. يعرف حدوده.

ويحترمها.

ولا يرى الاحتياط ضعفاً.

وهذه نقطة مهمة جداً؛ لأن بعض الناس يظنون أن النجاة الحقيقية تعني العودة إلى المكان القديم نفسه من دون أثر. كأن الذي خرج من تجربة مؤذية يجب أن يعود إلى الظروف نفسها ويثبت أنه لم يعد يتأثر. لكن الحكمة قد تكون في الابتعاد.

ليس كل ابتعاد خوفاً.

أحياناً هو وعي.

والإنسان الذي تعلم لا يكرر الموقف نفسه لمجرد اختبار ذاته. من عرف أن بيئة ما تُضعفه لا يحتاج إلى أن يبقى فيها حتى يثبت شجاعته. ومن عرف أن علاقة ما تستنزفه لا يحتاج إلى العودة إليها ليؤكد أنه سُفي. قد تكون علامة الشفاء أنه لم يعد محتاجاً أصلاً إلى العودة.

ومن ناحية أخرى، ينبغي ألا يتحول الحذر إلى تجنب للحياة كلها. فبعض الناس بعد الخيانة مثلاً يصيرون غير قادرين على الثقة بأحد. وبعد فشل واحد يتوقفون عن المحاولة. وبعد خطأ أخلاقي يعيشون في مراقبة مرضية لكل خطوة.

وهنا يصبح الماضي قد انتصر بطريقة أخرى.

فالذي منعك من الغرور لا ينبغي أن يمنعك من الحياة.

والذي علمك الحذر لا ينبغي أن يحولك إلى خائف دائم.

النضج هو أن تبقى مفتوحاً للحياة مع قدر أفضل من البصيرة. لا تعود ساذجاً، لكنك لا تصبح مغلقاً. لا تثق بلا حدود، لكنك لا تلغي الثقة. لا تندفع بلا حساب، لكنك لا تتوقف.

هذا التوازن هو الثقة الجديدة.

وقد يكون من أهم مصادرها أن يراجع الإنسان سجل تحوله نفسه. فهو أحياناً يتذكر الفشل وينسى النجاح. يتذكر لحظة السقوط، ولا يتذكر عشرات المواقف التي اختار فيها على نحو أفضل بعد ذلك.

وهذا تحيز ضد الذات.

لكي تكون صادقاً، عليك أن ترى الصورة كاملة.

نعم، سقطت.

لكن نعم أيضاً، قمت.

نعم، أخطأت.

لكن نعم أيضاً، غيرت أشياء.

نعم، لديك ضعف.

لكن لديك كذلك قدرة على المجاهدة والتعلم.

والثقة الجديدة لا تأتي من الكلمات الإيجابية وحدها، بل من الأدلة التي يصنعها الإنسان بسلوكه. كل موقف يختار فيه الحق على الهوى يضيف دليلاً جديداً. وكل مرة يقول فيها الحقيقة مع وجود كلفة يبني أساساً أعمق. وكل مرة ينجح فيها في ضبط نفسه يثبت لنفسه أنه ليس أسيراً للنسخة القديمة.

وهكذا تستعاد الثقة بالفعل، لا بالشعار.

ومن هنا فإن أفضل علاج للشك في الذات ليس دائماً كثرة التفكير، بل أحياناً كثرة الاختيارات الصغيرة الصحيحة. فالإنسان يتعلم نفسه من أفعاله. إذا أراد أن يعرف هل تغير، فليُنظر إلى ما صار يفعله عندما لا يراه أحد. هناك تظهر الحقيقة.

وهذه الثقة ينبغي أن تظل مرتبطة بالله، لا بالذات وحدها. لأن الإنسان إذا جعل نفسه المصدر النهائي لقوته قد يعود إلى الغرور. أما إذا فهم أن القدرة على الثبات توفيق، وأنه يحتاج إلى الله في كل مرحلة، بقيت ثقته متوازنة. لا احتقار للنفس. ولا تأليه لها.

بل معرفة بحدودها واستمداد للعون من الله. وهنا تصبح الدعوات القرآنية إلى التوبة والهداية والثبات ذات معنى متصل بهذا الباب. فالإنسان لا يقول: تغيرت وانتهى الأمر، بل يظل محتاجاً إلى الثبات. وهذه الحاجة لا تنقص من قيمة التحول، بل تحميه. وقد يكون من أجمل علامات الثقة الجديدة أن الإنسان لا يعود مرعوباً من رؤية خطئه. قبل ذلك كان كل نقد يهدد هويته، وكل ملاحظة توقف دفاعه. أما الآن فيستطيع أن يسمع: هنا أخطأت، من غير أن ينهار. وهذه قوة.

الإنسان الواثق لا يحتاج أن يكون مصيباً دائماً. يستطيع أن يقول: نعم، هذه ملاحظة صحيحة.

وهذا يعني أن هويته صارت أوسع من خطأ عابر.

ومن هنا نرى أن الثقة الجديدة مرتبطة مباشرة بالمرونة. الإنسان الصلب جداً قد يبدو واثقاً، لكنه أحياناً هش؛ لأنه يخشى كل تغيير. أما المرن فيعرف أنه يستطيع أن يعدل نفسه من غير أن يفقدها.

وهذه الثقة الأعمق.

ولعل هذا يعيدنا مرة أخرى إلى بلقيس؛ فقدرتها على المراجعة لم تكن ضعفاً في شخصيتها، بل علامة على قوة داخلية. الإنسان الذي يملك نفسه يستطيع أن يغير رأيه. أما الذي يعتمد على رأيه ليحفظ صورته فقد يخاف التغيير.

وهكذا نرى أن الثقة لا تعني الثبات على كل شيء، بل القدرة على التحرك من غير انهيار.

وقد يكون من أصعب الاختبارات حين يعود شخص من الماضي ليعامل الإنسان بصورته القديمة. هنا تظهر الثقة الجديدة: هل ينهار أمام ذلك الحكم؟ هل يعود فعلاً إلى الدور القديم؟ أم يحتفظ بهدوئه؟

المتحول حقاً يستطيع أن يقول في داخله: أنت ترى ما كنت، وأنا أعرف ما صرت. ليس بغرور.

بل يقيّن هادئ.

وهذه الجملة تمنح الإنسان مساحة عظيمة من الحرية. فهو لا يحتاج إلى خوض كل معركة لإثبات نفسه. ليس كل سوء فهم يحتاج إلى تصحيح، ولا كل حكم قديم يحتاج إلى رد.

أحياناً يكفي أن تستمر.

والزمن يتكلم.

وهنا نصل إلى مرحلة جديدة: إذا استعاد الإنسان ثقته بنفسه، فكيف تتحول علاقته بالآخرين؟ هل يصبح أكثر قدرة على الثقة بهم؟ وهل من الممكن أن تكون التجربة قد جعلته أكثر رحمة لا أكثر حذراً فقط؟

هذا السؤال مهم؛ لأن التحول الكامل لا يحدث داخل الذات وحدها، بل يظهر أيضاً في طريقة العودة إلى العالم.
ومن هنا يأتي الفصل التالي:

الفصل الثامن عشر

من الحذر إلى الرحمة: كيف يعود الإنسان إلى الناس بعد أن عرف ضعفهم وضعفه؟

قد يخرج الإنسان من التجربة أكثر حكمة، لكنه قد يخرج منها أيضاً أكثر خوفاً. وهذه واحدة من أكثر نتائج الألم التباساً؛ لأن الحذر يشبه الحكمة في ظاهره، وقد يختلط بها حتى لا يعود الإنسان قادراً على التمييز بينهما. يقول لنفسه: لقد تعلمت، وهو في الحقيقة قد أغلق قلبه. يقول: صرت أكثر فهماً للناس، وهو في الحقيقة صار يتوقع منهم الشر قبل أن يفعلوه. يقول: لن أكون ساذجاً مرة أخرى، ثم يكتشف بعد سنوات أنه لم يحم نفسه فقط، بل منع عنها إمكان القرب والمحبة والثقة.

وهنا يصبح السؤال مهماً: كيف يستفيد الإنسان من التجربة من غير أن يسمح لها بأن تحوله إلى نسخة أكثر قسوة؟ كيف يعود إلى الناس بعدما عرف أن فيهم ضعفاً وخيانة وأثانية، وبعدها عرف أيضاً أن هذه القابلية نفسها موجودة بدرجات مختلفة في نفسه؟ وهل يمكن للوعي بضعف الإنسان أن يقود إلى الرحمة بدل أن يقود إلى سوء الظن؟ هذا هو النضج الحقيقي: أن تعرف الناس أكثر، ولا تحبهم أقل.

إن المعرفة الساذجة بالبشر تقول: الناس طيبون، ولن يؤذوني. أما المعرفة المصدومة فتقول: الناس خطر، ولا ينبغي الوثوق بأحد. وكلاهما معرفة ناقصة. الأولى لا ترى الشر الممكن، والثانية لا ترى الخير الممكن. أما المعرفة الناضجة فتقول: الإنسان قادر على الوفاء والخيانة، وعلى الرحمة والقسوة، وعلى الصدق والكذب، وقد تتجاوز هذه الإمكانات في الشخص نفسه؛ ولذلك أحتاج إلى بصيرة وحدود، لكنني لا أملك الحق في أن أحكم على الجميع بأسوأ ما رأيت في بعضهم.

وهذا فرق عميق.

فالتجربة الواحدة قد تكشف لك شيئاً حقيقياً عن البشر، لكنها لا تمنحك حق تحويل هذا الشيء إلى قانون شامل.

من خانك كشف لك أن الخيانة ممكنة.

لكنه لم يثبت أن الجميع خائنون.

ومن ظلمك كشف لك أن القوة قد تفسد.

لكنه لم يثبت أن كل قوي ظالم.

ومن خذلك كشف لك أن بعض الوعود لا تصمد.

لكنه لم يثبت أن الوفاء وهم.

والشخصية المتحوّلة تعرف كيف تستخرج المعرفة من التجربة من غير أن تبالغ في تعميمها.

ومن هنا فإن الحذر الناضج مختلف عن الارتياح. الحذر يقول: سأراقب الأفعال، وأمنح الثقة بالتدرج، وأعرف حدودي. أما الارتياح فيقول: سأفترض الشر حتى يثبت العكس، وربما لن أسمح لأحد أصلاً بأن يثبت العكس.

الأول يحمي العلاقة.

والثاني يخنقها قبل أن تبدأ.

فالإنسان لا يستطيع أن يعيش بلا قدر من المخاطرة العاطفية. كل ثقة تحمل احتمال الخذلان، وكل محبة تحمل احتمال الفقد، وكل علاقة تحمل احتمال سوء الفهم. وإذا اشتربنا الأمان الكامل قبل أن نقرب من أحد، فلن نقرب أبداً.

الحياة الإنسانية لا تقدم ضمانات كاملة.

بل تقدم قرائن، واختيارات، وتجارب، ثم تترك مساحة للثقة.

والإنسان الذي عرف ضعفه يصبح أقدر على الرحمة إذا فهم تجربته جيداً. فقد رأى بنفسه أن الشخص قد يفعل ما لا يظن أنه قادر عليه، وأن الضغط قد يكشف مناطق لم تكن ظاهرة، وأن الخوف والغيرة والحاجة تستطيع أن تدفع الإنسان إلى سلوك يناقض صورته عن نفسه. وهذه المعرفة ينبغي أن تجعله أبطأ في تحويل أخطاء الناس إلى أحكام نهائية عليهم.

ليس لأنه يبرر.

بل لأنه يعرف تعقيد النفس.

وهذا ما يجعل الرحمة أكثر نضجاً حين تأتي بعد معرفة الضعف؛ لأنها لم تعد رحمة الساذج الذي لا يعرف الشر، بل رحمة من عرف إمكان الشر ولم يفقد إيمانه بإمكان الخير.

ومن أعمق ما يمكن أن يتعلمه الإنسان بعد التجربة أن الناس لا يحتاجون دائماً إلى محكمة، بل إلى مساحة يستطيعون فيها أن يعترفوا من غير أن يُسحقوا. كثير من الأخطاء يستمر لأن صاحبها يخشى ما سيحدث لو قال الحقيقة. يخشى أن يتحول الاعتراف إلى إعدام اجتماعي أو عاطفي، فيفضل الدفاع والإنكار.

وهنا يكون للرحمة وظيفة أخلاقية مهمة: أن تجعل الصدق ممكناً.

فالإنسان الذي يعرف أنه سيهان مهما قال قد يتمسك بكذبه.

أما إذا وجد أمامه شخصاً يستطيع أن يرفض خطأه من غير أن يلقي إنسانيته، فقد يصبح الاعتراف أقل استحالة.

وهذا لا يعني أن المظلوم مطالب بأن يتحمل ما لا يطيق، لكنه يبين قيمة البيئة التي تسمح للناس بأن يعودوا.

وفي قصة يوسف نرى هذا المعنى بأوضح صورة. كان يوسف في موضع يسمح له بتحويل لحظة الاعتراف إلى إذلال كامل، لكنه لم يفعل. وحين قال: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ﴾ لم يكن يحو الحقيقة، بل كان يغلق باب الإذلال بعد أن فُتح باب الاعتراف.

وهذه واحدة من أجمل العلاقات بين العدالة والرحمة: العدالة تقول الحقيقة، والرحمة تمنع الحقيقة من أن تتحول إلى سلاح لا ينتهي.

وقد يحتاج الإنسان بعد الألم إلى أن يعيد تعلم الفرق بين حماية نفسه ومعاينة العالم. أحياناً يضع حدوداً واسعة لا لأنها ضرورية، بل لأنه يريد أن يضمن ألا يقترب أحد منه بما يكفي ليؤذيه. وقد يبدو هذا معقولاً في البداية، لكنه مع الزمن قد يتحول إلى عزلة مقنعة بالحكمة.

وهنا ينبغي أن يسأل نفسه: هل هذه الحدود تحمي، أم تمنعني من الحياة؟
السؤال دقيق.

لأن الحد الصحي يمنع الأذى من غير أن يمنع القرب.
أما الجدار فيمنع الاثنين.

وقد يكون من علامات الشفاء أن يصبح الإنسان قادراً على الاقتراب مع الاحتفاظ بحدوده. لا يدخل العلاقات كما كان يدخلها قبل الخبرة، لكنه لا يقف خارجها أيضاً. يثق بالتدريج، ويراقب الاتساق بين الكلام والفعل، ويحترم الإشارات التي كان يتجاهلها سابقاً، لكنه لا يبني حكمه على الخوف وحده.
وهذا توازن صعب.

لكنه ممكن.

ومن أهم ما يتعلمه المتحول أنه ليس مسؤولاً عن إنقاذ الجميع. الرحمة لا تعني أن تبقى في كل علاقة مؤذية لأنك تفهم ضعف الطرف الآخر. قد تفهمه، وتسامحه، وتدعوله، وتبتعد.

هذه أيضاً رحمة.

فالرحمة لا تشترط القرب.

وقد يكون الابتعاد أحياناً أرحم من الاستمرار في علاقة يتحول فيها الطرفان إلى أسوأ نسخة من نفسيهما.

وهذا مهم جداً؛ لأن بعض الناس يخلطون بين التسامح وإتاحة الوصول الدائم. لكن الإنسان يستطيع أن يغفر ولا يعيد العلاقة. يستطيع أن يترك الكراهية ولا يستعيد الثقة. يستطيع أن يحترم إنسانية الآخر من بعيد.

وهذه ليست قسوة.

بل قد تكون حكمة.

وفي المقابل، قد يكتشف الإنسان أن بعض العلاقات تستحق إعادة البناء. هنا يحتاج إلى شيء آخر: الصبر على بطء العودة. فالقرب بعد الجرح ليس كما كان قبله، ولا ينبغي أن يكون. هناك معرفة جديدة دخلت العلاقة، وتجربة لا يمكن حذفها. لكن هذا لا يعني أن العلاقة محكوم عليها بالموت.

قد تصبح أصدق.

لأنها لم تعد قائمة على الوهم.

والعلاقة التي مرت بخطأ ثم صمدت بعد إصلاحه قد تكتسب عمقاً لا تملكه العلاقة التي لم تُختبر. لا لأن الخطأ كان ضرورياً، بل لأن التعامل الصادق معه كشف قدرة الطرفين على الاعتراف والإصلاح والرحمة.

وهذا يغير معنى الثقة نفسها.

الثقة قبل الاختبار تقول: أظنك لن تخطئ.

أما الثقة بعد الإصلاح فتقول: عرفت أنك تستطيع أن تخطئ، لكنني رأيت أيضاً أنك تستطيع أن تعترف وتصالح.

والثانية في بعض الوجوه أكثر واقعية.

ومن هنا فإن معرفة ضعف الناس لا ينبغي أن تقود إلى الاحتقار، بل إلى توقعات أكثر إنسانية. نحن كثيراً ما نؤذي علاقاتنا لأننا نطلب من الناس صورة لا يستطيع بشر تحقيقها. نريد وفاءً بلا ضعف، وفهماً بلا سوء تقدير، ومحبة بلا أنانية عابرة، وصبراً لا ينفد.

ثم نصدم حين يظهر البشر بشراً.

النضج لا يعني خفض المعايير الأخلاقية، بل خفض الأوهام عن طبيعة البشر.

نطلب الصدق، لكننا نعرف أن الإنسان قد يضعف.

نطلب الوفاء، لكننا نعرف أنه يحتاج إلى مجاهدة.

نطلب الاعتذار، لكننا لا نتوقع أن يكون البشر بلا أخطاء.

وهكذا تصبح العلاقة أكثر واقعية من غير أن تصبح أقل قيمة.

وقد يكون من أجمل ثمار معرفة الإنسان بضعفه أن يقل احتياجه إلى إدانة الآخرين كي يشعر بأنه أفضل. ففي المراحل الأولى من الوعي قد يبني الإنسان نقاءه على مقارنة نفسه بمن هو أسوأ. يقول: على الأقل أنا لم أفعل كذا. لكن بعد أن يرى تعقيد نفسه، يصبح أقل حاجة إلى هذه المقارنات.

لا يفرح بسقوط الآخر لأنه لا يحتاج سقوطه كي يثبت استقامته.

وهذه علامة رحمة ونضج في آن.

ومن هنا يصبح الستر خلقة أعمق. فحين تعرف أن الإنسان يمكن أن يتغير، لا تسارع إلى تثبيت خطئه في الذاكرة العامة. وإذا لم تكن هناك مصلحة حقيقية في نشره، فلا تجعل ماضيه مادة لتغذية شعورك بالتفوق أو تسلية الآخرين.

ليس كل ما نعرفه ينبغي أن نقوله.

وهذا من أخلاق من فهم هشاشة البشر.

وثمة رحمة أخرى أكثر خفاء: أن تسمح للإنسان بأن يختلف عن صورتك عنه. بعض العلاقات تحتق لأننا لا نرى الشخص كما هو الآن، بل كما اعتدناه. الطفل يكبر لكن أسرته تظل تخاطبه بعقيلة الصغير. الخطيء يصلح لكن المحيط يظل يعامله كمذنب. الضعيف يقوى لكن بعضهم يستمر في معاملته بمنطق الشفقة.

والرحمة هنا أن تحدث صورتك.

أن تقول: ربما لم يعد كما كان.

وهذه ليست مجاملة، بل عدل.

كما أنك لا تريد من أحد أن يحكم عليك بنسختك القديمة، لا تحكم أنت على الناس بنسخهم القديمة.

ومع ذلك فإن الرحمة لا تعني التغافل عن العلامات المتكررة. فإذا ظل الإنسان يكذب، فليس من الرحمة أن نسمي الحذر ظلمًا. وإذا ظل يؤذي، فليس من الحكمة أن نعطيه الثقة نفسها في كل مرة. هناك فرق بين الإيمان بإمكان التحول وبين ادعاء أن التحول حدث فعلاً بلا دليل.

وهذا يعيدنا إلى الميزان نفسه: الرحمة لا تلغي البصيرة.

والشخصية المتحوّلة تعرف هذا الميزان لأنها اختبرته في نفسها. تعلم أن النية الصادقة لا تكفي وحدها، وأن التغيير يحتاج إلى زمن وفعل. ولذلك لا تطالب الآخرين بالكمال، لكنها لا تصدق الوعود وحدها أيضًا.

تراقب المسار.

وهذه واحدة من ثمار التجربة.

ولعل من أعظم أشكال الرحمة أن تعرف متى تتدخل ومتى تترك الإنسان يتعلم. فبعضنا حين يرى شخصًا يسير إلى خطأ يشبه خطأ قديمًا عنده يريد أن ينقذه بالقوة. يفرط في النصيحة، ويسيطر، ويضغط، لأن تجربته تصرخ في داخله: لا تذهب إلى حيث ذهبت. لكن الآخر ليس أنت.

وقد يحتاج إلى طريق مختلف.

وهنا تكون الرحمة في النصيحة من غير استحواذ.

أن تقول ما تعرف، ثم تترك له مسؤوليته.

فالتجربة لا تمنحنا حق إدارة حياة الآخرين.

تعطينا فقط قدرة أفضل على الفهم.

وهذا فرق مهم.

وقد يصبح الإنسان بعد التحول أكثر قدرة على رؤية الخير المخفي في الآخرين. لأنه عرف بنفسه أن لحظة سيئة لا تعني أن كل شيء سيئ. قد يرى شخصاً في بداية طريقه، فيعرف أن النهاية ليست مكتوبة بعد. وقد يرى في المخطئ قابلية لم يرها آخرون.

وهذه بصيرة جميلة، بشرط ألا تتحول إلى إنكار للواقع.

أن ترى الإمكان، لا أن تتوهمه.

وفي هذا المعنى يصبح الرجاء خلقاً اجتماعياً أيضاً. أن لا تيأس من الناس بسرعة. أن تعرف أن بعضهم يحتاج وقتاً، وبعضهم يحتاج صدمة، وبعضهم يحتاج كلمة، وبعضهم قد لا يتغير أصلاً. لكنك لا تصدر الحكم النهائي قبل اكتمال الطريق.

هذه الرحابة مهمة.

فالإنسان ليس مشروعاً بسيطاً.

وهكذا يعود المتحول إلى الناس بطريقة مختلفة. لا يعود ساذجاً، ولا متعالياً، ولا مغلقاً. يعرف أن كل إنسان يحمل معركة لا يراها الآخرون، وأن بعض القسوة تأتي من جرح، وبعض الغضب من خوف، وبعض الصمت من عجز، وبعض التكبر من هشاشة.

لكن الفهم لا يعني الإعفاء.

يظل الإنسان مسؤولاً عن أفعاله.

وهذا التوازن هو الرحمة الناضجة: أن ترى الأسباب ولا تجعلها أعداءً مطلقة.

ومن هنا يمكننا أن نفهم قول يوسف لإخوته في خاتمة القصة بطريقة أوسع: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾. لم يحوهم إلى «أشرار» نهائين، ولم يبن قصة العائلة

كلها على الجريمة القديمة. رأى ما هو أوسع من الفعل، وأفسح للعلاقة أن تبدأ من جديد تحت معنى آخر.

وهذه واحدة من أعظم صور الرحمة: أن لا تجعل أسوأ فصل هو اسم الكتاب كله. لكن الرحمة بالآخرين تفتح سؤالاً أشد دقة: ماذا عن الإنسان الذي لا يتغير؟ ماذا نفعل حين نعطي الفرص ولا نجد إلا التكرار؟ هل الرحمة تقتضي الاستمرار في الصبر، أم أن بعض الرحمة تحتاج إلى حسم؟

هنا نصل إلى باب لا بد منه حتى يكتمل الكتاب:

الفصل التاسع عشر

حين لا تكفي الفرصة: الرحمة التي تعرف متى تقول «لا»

ليست الرحمة أن نقول نعم دائماً، كما أن الحزم ليس قسوة دائماً. أحياناً تكون أكثر الإجابات رحمة هي «لا»، حين تكون «نعم» إعادة فتح للطريق نفسه الذي أفسد الإنسان من قبل. وهذه من أكثر النقاط التي يختلط فيها الفهم الأخلاقي؛ لأننا نميل إلى تصور الرحمة في صورة لين دائم، بينما قد تكون الرحمة الحقيقية أحياناً في المنع، وفي وضع الحد، وفي وقف التكرار قبل أن يتحول إلى نمط يستنزف الطرفين.

فالإنسان الذي يطلب فرصة ثانية ينبغي أن يُنظر إلى مساره، لا إلى كلماته وحدها. هناك فرق بين من زل ثم عاد، ومن جعل الاعتذار جزءاً من دورة ثابتة: يخطئ، ثم يندم، ثم يعد، ثم يعود. في الحالة الأولى تكون الرحمة عوناً على التحول، أما في الثانية فقد تتحول إلى بيئة آمنة لاستمرار الخطأ.

وهذا فارق بالغ الأهمية.

فالفرصة ليست حقاً مطلقاً بلا شروط.

هي مساحة مشروطة بالصدق، والمسؤولية، والتغيير.

من هنا فإن قول «لا» قد يكون حماية للإنسان من نفسه. الشخص الذي اعتاد أن تغفر له كل مرة بلا أثر، قد لا يتعلم أن لأفعاله نتائج. وإذا كان يعرف أن كل باب سيظل مفتوحاً مهما فعل، فقد يفقد الدافع الحقيقي للتغيير.

الحدود تعلّم أحياناً ما لا تعلمه الكلمات.

والمسافة قد تفعل ما لا يفعله النقاش.

وهذا لا يعني العقوبة من أجل العقوبة، بل إعادة الربط بين الفعل ونتيجته. فالإنسان يحتاج إلى أن يعرف أن الاختيارات ليست محايدة، وأن بعض الأبواب إذا أساء استخدامها تُغلق، وأن الثقة إذا تحطمت لا تُعاد تلقائياً.

وهذا جزء من التربية الأخلاقية.

وقد يكون من الظلم أحياناً أن نستمر في إعطاء الفرصة لمن يكرر الأذى على حساب طرف آخر. فالرحمة بالمسيء لا ينبغي أن تعني ظلم المتضرر. وإذا أصبحت العلاقة ميداناً يتكرر فيه الأذى باسم التسامح، فقد اختل الميزان.

الرحمة ينبغي أن تشمل الجميع.

ومنها رحمة الإنسان بنفسه.

فليس مطلوباً من المظلوم أن يتحول إلى مختبر دائم لإثبات أن الآخر قد يتغير. هذا عبء غير عادل. قد يقول: أتمنى لك الخير، لكنني لن أبقى في الموضع نفسه.

وهذه جملة ناضجة.

لا كراهية فيها.

ولا سداجة.

ومن هنا تظهر أهمية الفصل بين الغفران وإعادة الوصول. قد أغفر، لكن لا أسمح بالاقتراب نفسه. وقد أصفح، لكن لا أعيد الصلاحيات نفسها. وقد أتوقف عن حمل المرارة، لكنني لا أعرض نفسي للخطر مجدداً.

هذا ليس تناقضاً.

بل توازن.

وقد يكون بعض الناس بحاجة إلى أن يتعلموا أن «لا» ليست حكمًا نهائيًا على إنسانيتهم، بل على سلوكهم الحالي. حين تقول: لا أستطيع أن أثق الآن، فأنت لا تقول: لن تتغير أبدًا. أنت تقول: التغيير لم يثبت بعد.

وهذا فرق عادل.

ولذلك فإن الرحمة الناضجة لا تتعامل مع الأمل بوصفه دليلًا. يمكن أن نرجو تغيير الإنسان، لكننا لا نبني القرارات المهمة على الرجاء وحده. القرارات تحتاج إلى شواهد. نرجو الخير.

لكن نقرأ الواقع.

وهذا من أصعب ما يحتاجه القلب؛ لأننا أحيانًا نحب شخصًا ونرى فيه إمكانًا عظيمًا، فنقع في فخ التعامل مع الإمكان كأنه حقيقة. نقول: هو قادر أن يكون أفضل، إذن سأعامله كما لو أنه صار أفضل.

لكن القدرة ليست الإنجاز.

والاستعداد ليس التغيير.

والنية ليست السلوك.

الشخصية المتحوّلة حقًا تُعرف بالمسار، لا بالوعود.

والمسار يظهر في تكرار مختلف.

في تحمل المسؤولية.

في اختفاء التبرير.

في قبول النتائج.

في بناء الثقة ببطء.

أما الذي يريد العودة فوراً إلى كل شيء بعد الاعتذار، فقد يكون ما زال يريد التخلص من ألم الذنب أكثر من إصلاح أثره.

وهنا ينبغي أن نكون حذرين.

فالتوبة الصادقة تحتل الزمن.

ومن أرق صور الحزم أن يكون بلا تشفٍ. أن تضع الحد من غير أن تحول الطرف الآخر إلى عدو. أن تقول: هذا لا أقبله، من غير أن تقول: أنت لا قيمة لك.

الفعل مرفوض.

والإنسان لم يُلغَ.

وهذا امتداد للقاعدة التي سار عليها الكتاب كله.

وقد يكون الحزم أحياناً ضرورة لحماية التحول نفسه. فالإنسان الذي بدأ يتغير قد يحتاج إلى من يمنعه من الرجوع إلى بيئة أو علاقة أو نمط يعيده إلى القديم.

وهنا تصبح «لا» سياجاً للنمو.

لكن الحزم قد يفسد أيضاً إذا تحول إلى قسوة متسترة. بعض الناس يستخدمون كلمة «حدود» لتبرير الانتقام، أو البرود، أو إذلال الآخر.

وهنا لا بد من فحص الدافع.

هل أضع هذا الحد لأحبي نفسي؟

أم لأؤلمه؟

هل أحتاج المسافة؟

أم أستمع برؤيته خارج الباب؟

هذه أسئلة تكشف الفرق بين الحزم والانتقام.

الحزم الناضج هادئ.

لا يحتاج إلى خطب طويلة.

ولا إلى تهديد مستمر.

هو قرار واضح.

ولعل من أصدق علامات الشفاء أن يستطيع الإنسان قول «لا» من غير غضب. حين لا يحتاج إلى ثورة داخلية كي يحمي حدوده، يكون قد استعاد شيئاً من سيادته.

أما إذا كانت كل «لا» معركة، فربما الجرح ما زال حاضراً بقوة.

ومن هنا فإن الرحمة التي تعرف متى تقول لا، هي رحمة تحترم الحرية والمسؤولية معاً. لا تسحق الآخر، ولا تحمل عنه نتيجة أفعاله.

تتركه يختار.

لكنها لا تمنع النتائج من الوصول إليه.

وهذا مهم جداً في بناء الشخصية؛ لأن الإنسان لا ينضج إذا كان دائماً محمياً من آثار اختياراته. بعض الوعي لا يتكون إلا حين يواجه النتيجة.

وهنا يصبح الألم التربوي مختلفاً عن الإيذاء. ليس المقصود إحداث الألم، بل عدم منع كل ألم ناتج طبيعياً عن الاختيار.

وقد يكون من الرحمة أن تقول لمن تحب: لن أستمع معك بهذه الصورة.

هذه الجملة قد تكون أقوى من مئة نصيحة.

لأنها تنقل الرسالة من الكلمات إلى الواقع.

وفي المقابل، ينبغي ألا نجعل الخطأ الواحد سبباً لإغلاق كل باب. كما قلنا سابقاً، الإنسان قابل للتحول. ولهذا فإن الحزم لا يعني الحكم النهائي، بل الاستجابة المناسبة للحاضر.

إذا تغير الواقع، يمكن أن يتغير الموقف.

وهذه مرونة ضرورية.

فالخزم الذي لا يقبل أي دليل جديد يتحول إلى قسوة.

كما أن الرحمة التي تتجاهل كل دليل قد تتحول إلى سذاجة. والنضج بينهما.

ومن هنا يمكننا صياغة قاعدة مهمة:

امنح الإنسان فرصة تتناسب مع صدق تغيره، لا مع جمال كلامه.

هذه قاعدة تحفظ الرحمة والعدل معاً.

وقد يكون من أصعب الحالات حين يكون الإنسان الذي يكرر الأذى قريباً جداً: أباً، أو أخاً، أو صديقاً، أو شريكاً. هنا تتشابك المحبة بالذاكرة، ويصعب الحسم.

لكن القاعدة تبقى نفسها: القرب لا يلغي الحق في الأمان.

والمحبة لا تلغي المسؤولية.

الإنسان قد يحب ويبتعد.

وقد يغفر ولا يعود.

وقد يتمنى الخير ولا يستأنف العلاقة.

وهذه إمكانيات أخلاقية ينبغي أن نعترف بها.

وفي هذا كله، لا ينبغي أن ننسى أن الهدف ليس الانتصار على الشخص الآخر، بل حماية الحق. متى صار الحزم وسيلة لإثبات القوة، انحرف.

الحزم الصحيح لا يقول: سأريك.

بل يقول: هذا ما أحجته كي لا يتكرر الخطأ.

وهذا الفرق في النية يصنع فرقاً كبيراً في النتيجة.

وهنا نصل إلى معنى أخير في هذا الفصل: بعض الناس لا يبدأون التغيير إلا حين يواجهون باباً مغلقاً. ليس لأن الإغلاق سحري، بل لأنه يزيل الوهم القديم بأن كل شيء سيعود كما كان مهما حدث.

والواقع أحياناً هو المعلم الأخير.

ومع ذلك يجب ألا نبالغ؛ فليس كل من وُضع له حد سيتغير. بعضهم يزداد غضباً، وبعضهم يبحث عن مكان آخر يكرر فيه النمط. نحن لا نملك نتيجة تحول الآخر.

ثملك فقط مسؤولية موقفنا.

وهذه حرية مهمة.

فالرحمة لا تعني أن تنقذ الجميع.

والحزم لا يعني أن تدن الجميع.

بل أن تعرف أين تنتهي مسؤوليتك وتبدأ مسؤولية الآخر.

ومن هنا يصبح قول «لا» جزءاً من نضج الشخصية المتحوّلة، لا ضد رحمتها. لأنها تعلمت من الماضي أن الخير لا يُبنى على إنكار الواقع، وأن المحبة من غير بصيرة قد تكرر الألم بدل أن تشفيه.

وهنا يقترب الكتاب من سؤال جامع لما سبق: إذا كانت الشخصية المتحوّلة تعرف كيف تعترف، وكيف تعفو، وكيف تضع الحدود، فماذا يحدث لعلاقتها بالزمن نفسه؟ هل تبقى معلقة بما كان، أم تبدأ في العيش بما يمكن أن يكون؟ هذا هو الفصل القادم:

الفصل العشرون

المستقبل المفتوح: حين لا تكون النهاية قد كُتبت بعد

من أكثر الأوهام قسوة أن يتعامل الإنسان مع ماضيه كأنه حكم نهائي على مستقبله، وأن يقرأ ما جرى له أو ما صنعه هو نفسه بوصفه النص الأخير الذي لن يتغير بعده شيء.. يحدث ذلك حين تتراكم الخيبات، أو تتكرر الأخطاء، أو يطول الإخفاق حتى يبدأ الإنسان في الاعتقاد أن القادم ليس إلا إعادة لما مضى. وهنا يتحول الزمن من مساحة مفتوحة إلى ممر ضيق، وتصبح الأيام القادمة مجرد نسخ مؤجلة من تاريخ سابق. لكن هذا التصور يظلم حقيقة الإنسان؛ لأنه يتجاهل أهم ما فيه: أنه كائن يختار، وأن الاختيار يستطيع، ما دام الباب مفتوحاً، أن يصنع امتداداً مختلفاً.

المستقبل ليس صفحة بيضاء بالكامل، لأننا ندخله محملين بما مضى. ندخله بعاداتنا، وآثار تجاربنا، وبما تعلمناه وبما لم نتعلمه بعد، وبجراحنا، وبنقاط قوتنا وضعفنا. لكنه مع ذلك ليس نسخة مغلقة من الماضي. الماضي يؤثر، لكنه لا يحكم وحده. وهذه المسافة بين التأثير والحكم هي المساحة التي يسكن فيها الرجاء.

فالإنسان الذي يقول: «هكذا كنت، ولذلك هكذا سأبقى»، يسلم قيادته لماضي انتهى. أما الذي يقول: «هكذا كنت، لكن ما سأكونه ما يزال متعلقاً بما أختاره الآن»، فقد استعاد جزءاً من حريته.

وهذا هو المستقبل المفتوح.

ليست الحرية أن تبدأ بلا تاريخ، بل أن لا تجعل التاريخ هو صاحب القرار الوحيد. كل إنسان يبدأ من مكان ما، وليس من العدل أن نتخيل أن الجميع يقفون في النقطة نفسها. بعضهم يبدأ من بيئة ساعدته، وبعضهم من بيئة أضعفته، وبعضهم يحمل جراحاً قديمة،

وبعضهم يحمل امتيازات لم يشعر بها. لكن داخل هذه التفاوتات تبقى مساحة للمسؤولية. قد لا نختار نقطة البداية، لكننا نشارك في اختيار الاتجاه.

وهذا المعنى يحفظ أمرين معاً: يحمينا من القسوة على من بدأ من ظروف شاقة، ويحمينا كذلك من تحويل الظروف إلى قدر يلغي الإرادة.

فالإنسان لا يفهم خارج سياقه، لكنه لا يُختزل فيه.

ومن هنا فإن الرجاء ليس تفاؤلاً ساذجاً. ليس أن يقول الإنسان لنفسه إن كل شيء سيكون بخير لمجرد أنه يتنى ذلك. الرجاء أعمق: أن يعرف أن الطريق قد يكون صعباً، وأن الماضي قد يترك آثاراً، وأن بعض الخسائر لا تُسترد، ومع ذلك يظل هناك شيء يمكن فعله.

الرجاء لا ينكر الكلفة.

لكنه يرفض اليأس.

وهذا فارق جوهري.

اليأس يقول: لا جدوى.

أما الرجاء فيقول: ربما لا أستطيع تغيير ما كان، لكن ما يزال لي عمل فيما يأتي.

وفي هذا المعنى تكون التوبة فعلاً موجّهاً إلى المستقبل بقدر ما هي اعتراف بالماضي. فهي لا تقول فقط: كنت مخطئاً، بل تقول: لا أريد أن أستمّر في الطريق نفسه. ومن هنا فإن التوبة الحقيقية تحمل داخلها تصوراً للغد.

فالماضي فيها لا يُمحى، لكنه يفقد احتكاره للمسار.

وهذا يجعل السؤال الأخلاقي الأكثر أهمية ليس: ماذا فعلت سابقاً؟ بل: ماذا تفعل

الآن بما عرفته عن نفسك؟

قد تكون قد فشلت مرات.

لكن ماذا تعلمت؟

قد تكون قد خنت ثقة.

لكن ماذا تبني الآن؟

قد تكون قد ضيعت سنوات.

لكن ماذا ستفعل بما بقي؟

هذه الأسئلة لا تقلل من ثقل الماضي، لكنها تعيد توزيع المسؤولية.

ومن الأخطاء الشائعة أن الإنسان ينتظر لحظة مثالية ليبدأ من جديد. يقول: حين تهدأ الظروف، حين ينساني الناس، حين أستعيد ثقتي، حين أشعر بالقوة، سأبدأ. لكن البداية الحقيقية كثيراً ما تأتي قبل شعور الاستعداد الكامل. تأتي حين يقرر الإنسان أن يتحرك وهو ما يزال يحمل شيئاً من الخوف والشك.

فلا أحد يدخل المستقبل خالياً من الماضي.

نحن نحمّله معنا، ثم نتعلم كيف نجعله أخف.

وقد تكون أقوى البدايات تلك التي لا تعلن نفسها بصخب. لا تحتاج إلى وعود كبيرة ولا قرارات مسرحية. قد تبدأ باختيار صغير: اعتذار، توقف عن عادة، كلمة صدق، عودة إلى واجب، قطع مع بيئة، فتح باب تعلم، إصلاح علاقة، أو حتى مجرد قرار بأن لا تكرر اليوم ما فعلته أمس.

هذه الاختيارات الصغيرة هي التي تصنع المستقبل الفعلي.

فالمستقبل لا يأتي دفعة واحدة.

يأتي يوماً يوماً.

وهذا يحرر الإنسان من ضغط الفكرة الكبيرة: «كيف سأغيّر حياتي كلها؟». لا أحد يغير حياته كلها في لحظة. التغيير الكبير نتيجة تراكم اختيارات صغيرة حافظت على اتجاه واحد.

ومن هنا فإن سؤال اليوم أحياناً أكثر نفعاً من سؤال العمر.

ما الذي أستطيع أن أفعله اليوم بطريقة مختلفة؟

هذا السؤال البسيط يحمل قوة كبيرة لأنه يعيد المستقبل إلى مجال الفعل.

وقد يكون من أعظم ما يمنع الإنسان من الانفتاح على المستقبل خوفه من الفشل مرة أخرى. يقول: حاولت من قبل، فلماذا أعيد المحاولة؟ لكن المحاولة الثانية ليست تكراراً للأولى إذا دخلها الإنسان بمعرفة جديدة. قد تكون الظروف نفسها، لكنك لست الشخص نفسه تماماً.

أنت تدخل ومعك تجربة.

وهذا يغيّر المعادلة.

الفشل السابق لا يثبت أن المحاولة مستحيلة. يثبت فقط أن تلك المحاولة، بتلك الأدوات، وفي تلك الظروف، لم تنجح. وهذه صياغة أدق وأكثر عدلاً.

أما تحويل الفشل إلى هوية فهو قفزة لا يبررها الحدث نفسه.

ومن هنا فإن من علامات النضج أن يتعلم الإنسان كيف يفصل بين النتيجة والقيمة. قد يفشل مشروع ولا يكون الإنسان فاشلاً. قد تخفق علاقة ولا يعني ذلك أن صاحبها لا يصلح أن يكون له علاقة. قد يخسر معركة ولا يكون مهزوماً في الحياة كلها. التعميم أحد أبواب اليأس.

أما الدقة فتفتح باب المستقبل.

وفي قصة يوسف نجد المستقبل المفتوح واضحاً جداً. لو حُكم على يوسف من لحظة الحب لكنت القصة مأساة. ولو حُكم عليه من السجن لقلنا إن الظلم أغلق الطريق. لكن القصة تتجاوز كل لحظة لأنها لا تجعل المرحلة الأخيرة هي النهاية. وهذا درس عميق في النظر إلى الحياة: ما تراه الآن قد يكون فصلاً لا خاتمة.

لكن ينبغي أن ننتبه إلى شيء مهم: ليس معنى هذا أن كل قصة ستنتهي في الدنيا بنهاية ظاهرة سعيدة. ليست كل المظالم ستُرد أمام أعيننا، ولا كل خسارة ستُعوّض بالشكل الذي نريده، ولا كل مجروح سيرى معنى جرحه كاملاً. الرجاء أعمق من هذا؛ لأنه لا يقوم على ضمان نتيجة دنيوية محددة.

هو يقوم على أن العمل الصادق لا يفقد معناه عند الله، وأن الإنسان لا يُقاس فقط بما حصله من نتائج ظاهرة.

وهذا يحرر الرجاء من الابتزاز بالنتيجة.

قد تعمل ولا ترى الثمرة.

وقد تصلح ولا يستعيد الناس ثقتهم سريعاً.

وقد نتغير ولا يصدقك الجميع.

ومع ذلك يبقى للتغيير معنى.

لأن قيمته ليست متوقفة على تصفيق الخارج.

وهذا مهم جداً؛ فالإنسان إذا ربط التغيير بمكافأة فورية قد يعود حين لا تأتي المكافأة.

أما إذا ربطه بالحق، صار أقدر على الاستمرار.

فالصدق لا يصبح أقل قيمة لأن أحداً لم يمدحه.

والعفو لا يصبح بلا معنى لأن الطرف الآخر لم يفهمه.

والتوبة لا تفقد حقيقتها لأن الناس ما زالوا يتذكرون الماضي.

ومن هنا يصبح المستقبل المفتوح مساحة للعمل لا مساحة للتوقعات فقط. بعض الناس

يعيشون المستقبل في الخيال أكثر مما يعيشونه في الفعل. يتصورون نسخة أجمل من

أنفسهم، لكنهم لا يبنونها.

والفرق بين الأمنية والتحول هو العمل المتكرر.

وقد يكون من أجمل ما يمنحه المستقبل للإنسان أنه يسمح بإعادة تعريف العلاقة

بالماضي. مع كل يوم جديد يعيشه بطريقة مختلفة، تقل سلطة الماضي قليلاً. ليس لأنه

يختفي، بل لأن الحاضر يضيف دليلاً جديداً على أن الإنسان ليس محكوماً به.

وهكذا يكتب التاريخ الجديد.

لا بجوه.

بل بإضافة فصول أخرى.

وهذا هو معنى أن البداية الجديدة لا تحتاج إلى إنكار ما سبق. لا تقل: سأصرف كأن

شيئاً لم يحدث. بل قل: حدث، وأنا الآن أكتب ما بعده.

الجملة الثانية أكثر صدقاً، وأكثر قوة.

ومن أعظم ما يحتاجه الإنسان في هذه المرحلة الصبر على بطء النتائج. لأن المستقبل المفتوح لا يعني المستقبل السريع. قد تستغرق إعادة بناء الثقة سنوات. وقد يحتاج الإنسان إلى وقت طويل حتى تتغير عاداته. وقد يبقى بعض أثر الألم رغم كل تقدم. لكن البطء لا يعني غياب الحركة.

وهذا فرق مهم.

قد تكون لتغير، لكنك لا ترى ذلك يومياً.

كما لا يرى الإنسان الشجرة وهي تنمو لحظة بلحظة، ثم يكتشف بعد مدة أنها لم تعد كما كانت.

ولهذا ينبغي أن يقيس الإنسان نفسه بمسار، لا بلحظة. إذا نظر إلى يوم ضعيف واحد قد يئس، لكن إذا نظر إلى سنة كاملة ربما رأى فرقاً واضحاً.

وهنا يكون الإنصاف مع الذات ضرورياً.

لا تبالغ في جلدتها عند التعثر.

ولا تبالغ في الثناء عليها عند النجاح.

انظر إلى الاتجاه.

وهذا يقود إلى معنى أعمق: المستقبل لا يبني فقط بما نفعله، بل بما نتوقف عن فعله. بعض أعظم التحولات تبدأ من امتناع: لن أكرر هذه الكلمة، لن أعود إلى هذا الباب، لن أسمح لهذا الغضب أن يحكم قراري، لن أبرر لنفسي بالطريقة القديمة. أحياناً يكون التوقف نفسه بناءً.

وبالمقابل، هناك أشياء لا يكفي التوقف عنها؛ يجب أن يستبدل الإنسان بها شيئاً. فالفراغ يظل خطراً. إذا ترك الكذب، فليبن الصدق. وإذا ترك الحسد، فليبن الشكر. وإذا ترك الانغلاق، فليبن علاقة صحية. وإذا ترك التسويف، فليبن عادة عمل. المستقبل لا يتكون من النفي وحده.

بل من البدائل.

ومن هنا فإن أفضل سؤال عن المستقبل ليس: ماذا لا أريد أن أكون؟ بل: ماذا أريد أن أصبح؟

السؤال الأول مهم، لكنه دفاعي.

أما الثاني فبنائي.

والإنسان الذي يعيش فقط هارباً من ماضيه قد يظل مربوطاً به. أما الذي يبدأ بالسير نحو معنى جديد فيتحرك تدريجياً حتى من الحاجة إلى الهرب.

فالهرب يبقي الماضي خلفك.

أما البناء فيضع المستقبل أمامك.

وهنا يصبح الأمل متعلقاً بالهوية أيضاً. الإنسان الذي يرى نفسه مشروعاً منتهاً لا يتغير، أما الذي يرى نفسه قابلاً للنمو يظل مفتوحاً.

وهذه القابلية نفسها نعمة.

ومن أكثر ما يفتح المستقبل أن يتعلم الإنسان كيف يساح نفسه بعد التوبة والإصلاح. ليس بمعنى إسقاط المسؤولية، بل بمعنى التوقف عن استخدام الماضي كسوط دائم.

إذا كان قد أصلح ما يستطيع، وتاب بصدق، واستقام على الجديد، فما وظيفة جلد النفس بعد ذلك؟

إذا لم يعد يقود إلى إصلاح، فقد يتحول إلى شكل آخر من أسر الماضي.

وفي هذا الموضع يحتاج الإنسان إلى أن يفرق بين التواضع والإهانة الذاتية. التواضع يقول: كنت ضعيفاً وأحتاج إلى الله. أما الإهانة الذاتية فتقول: لا خير فيّ ولا أستحق بداية.

الأول يفتح المستقبل.

والثاني يغلقه.

وهذا هو أحد المعاني العميقة في الرجاء بالله: أن الإنسان لا يعتمد على تاريخه وحده في تقدير ما يمكن أن يكون. لو كان الماضي هو المعيار الوحيد، لضاق الباب على كثير من الناس. لكن باب التوبة نفسه إعلان أن المستقبل الأخلاقي للإنسان لا يُستنفد بما مضى.

ومن هنا فإن الشخصية المتحوّلة لا تنظر إلى المستقبل باستخفاف، بل بمسؤولية. تعلم أن كل يوم جديد فرصة، لكنه أيضاً تكليف. وأن البداية الجديدة ليست هدية للاستهلاك، بل مساحة ينبغي أن تُملأ بما يليق بها.

وقد يكون أعظم ما يمنحه المستقبل هو إمكان المفاجأة. كثير من الناس صاروا في نهاية حياتهم أشخاصاً لم يكن من حولهم يتوقعونهم في البداية. وبعض التحولات لا تظهر إلا متأخرة. وهذا وحده سبب كافٍ للحد من الأحكام النهائية على الأحياء.

ما دام الإنسان في الطريق، فالصورة لم تكتمل.

وهذا لا يعني أن كل أحد سيتغير، بل أن إمكانية التغيير تظل قائمة ما دام باب الاختيار مفتوحاً.

والفرق كبير بين الاحتمال والضمان.

نحن لا نضمن.

لكننا لا نغلق.

وفي هذا المعنى تصبح الرحمة بالحاضر أيضاً رحمة بالمستقبل. حين تمنح إنساناً مساحة ليتغير، فأنت لا تبرر خطأه، بل تعترف بأن النسخة الحالية ليست بالضرورة آخر نسخة.

وحين تمنح نفسك الفرصة نفسها، فأنت لا تنكر الماضي، بل ترفض أن تجعله قدراً.

وقد يكون من أجمل ما يفعله الإنسان أن يخطط للمستقبل من موقع المعرفة، لا من موقع الخوف. يقول: أعرف ما يضعفني، ولذلك سأبني حوله حماية. أعرف ما أريده، ولذلك سأرتب حياتي نحوه.

هنا يتحول الوعي من دفاع إلى بناء.

وكلما تقدم الإنسان في هذا الطريق، قل انشغاله بالسؤال: هل أنا تغيرت؟ وازداد انشغاله بالسؤال: ماذا أفعل الآن؟

وهذه علامة صحة.

فالتحول الذي ينضج لا يبقى مهووساً بذاته.

يبدأ في العمل.

وهنا تخرج الشخصية المتحوّلة من مركبتها. في البداية يكون كل تركيزها على النجاة من الماضي، ثم على فهم النفس، ثم على بناء الهوية الجديدة. لكن في مرحلة أعمق تبدأ في السؤال: ماذا يمكن أن أقدم؟

وهذا انتقال بالغ الأهمية.

من إصلاح الذات إلى أثرها.

فالتحول الذي لا يتجاوز صاحبه يبقى ناقصاً في وجه من الوجه. الإنسان الذي عرف الرحمة يستطيع أن يكون أكثر رحمة. والذي عرف معنى الفرصة الثانية يستطيع أن يمنح فرصاً أعدل. والذي خرج من الجرح يستطيع أن يصير سبباً في تقليل جراح الآخرين. وهنا يصبح الماضي جزءاً من الرسالة.

وفي هذا الموضع يقترب الكتاب من خاتمته الطبيعية. لقد بدأنا بسؤال: هل الإنسان أسير خطيئته الأولى؟ ثم رأينا الخطيئة، والاعتراف، والمحنة، والتحول، والهوية، والمجتمع، والرحمة، والحدود، والرجاء. وبقي السؤال الأخير:

ما الذي يصير إليه الإنسان حين يكتمل فيه هذا كله؟

ليس إنساناً بلا خطأ.

ولا بلا ماضٍ.

ولا بلا جرح.

بل إنساناً صار قادراً على أن يحمل تاريخه من غير أن يحمله التاريخ.

وهذا هو الباب الختامي:

الفصل الحادي والعشرون

الإنسان الذي لا تحكمه نسخته الأولى

ليس أعظم ما يمكن أن يحدث للإنسان أن ينجو من خطأ، ولا أن يخرج من محنة، ولا أن يستعيد ثقة فقدها، بل أن يصل بعد كل ذلك إلى درجة من النضج لا تعود فيها نسخته الأولى هي الحاكم الخفي لحياته. أن يعرف من كان، ولا ينكره، لكنه لا يسمح لذلك الماضي بأن يكتب له كل قرار جديد؛ أن يحمل ذاكرته من غير أن تحمل هي يده؛ أن يستطيع النظر إلى نفسه القديمة لا باحتقار ولا بحنين، وإنما بفهم هادئ يقول: كنت ذلك الإنسان، لكنني لم أعد مضطراً لأن أبقى هو.

وهذه هي المسافة التي قطعناها منذ أول صفحات هذا الكتاب. بدأنا من إخوة يوسف وهم يرون أن المشكلة خارجهم: في يوسف، وفي قربه من أبيه، وفي ترتيب المحبة داخل البيت. ثم رأينا كيف استطاع الشعور الصغير أن يتحول إلى تفسير، والتفسير إلى تبرير، والتبرير إلى خطية، والخطية إلى جريمة. ورأينا بعد ذلك أن الإنسان الذي صنع خطاه لا يبقى بالضرورة كما كان ساعة صنعه؛ فالزمن يعمل، والحنّة تكشف، والعواقب تتكلم، والوقائع التي حاول الإنسان دفنها قد تعود إليه في صورة لا يتوقعها، حتى يجد نفسه يوماً واقفاً أمام حقيقة طالما تجنّبها.

لكن التحول لم يكن أن يحى الجب من القصة.
لم يُمَحَّ.

ولم تُمَحَّ خيانة الإخوة.

ولم يُمَحَّ حزن يعقوب.

ولم يُمَحَّ السجن.

ولم يُحَ ما صنعت امرأة العزيز.

كل شيء بقي جزءاً من التاريخ، لكن التاريخ نفسه لم يبق جامداً. دخلت عليه أفعال جديدة، واعترافات جديدة، واختيارات جديدة، فعاد الماضي من كونه حكماً نهائياً إلى كونه فصلاً ضمن قصة أوسع.

وهنا تكمن الفكرة المركزية لهذا الكتاب كله: الإنسان لا يملك تغيير ما وقع، لكنه يستطيع أن يغير موقع ما وقع داخل حياته. قد يكون الحدث في البداية هو المركز الذي يدور حوله كل شيء، ثم يصبح بعد سنوات جزءاً من الذاكرة، ثم قد يتحول إلى معرفة، ثم إلى بصيرة، ثم إلى تحذير، ثم إلى رحمة، حتى يبقى موجوداً من غير أن يبقى صاحب السيادة.

وهذا هو معنى التحرر من النسخة الأولى.

فالإنسان لا يولد في كل صباح بلا تاريخ. نحن نأتي إلى اليوم الجديد حاملين معنا ما تراكم فينا من اختيارات وعادات وتجارب وصور عن الذات. ولهذا فإن التحول لا يعني القدرة على القفز خارج النفس دفعة واحدة، بل إعادة تشكيلها من الداخل. كل اختيار جديد يضيف شيئاً، وكل امتناع عن الاستجابة القديمة يسحب شيئاً، حتى تبدأ الشخصية نفسها في التغير.

ومن هنا قد يبدو التحول بطيئاً في بدايته. الإنسان نفسه قد لا يراه، لأنه يعيش التفاصيل يوماً يوماً. لكنه بعد زمن يلتفت فيجد أن الشيء الذي كان يثيره لم يعد يملك التأثير نفسه، وأن الموقف الذي كان يسقط فيه لم يعد يسقطه بسهولة نفسها، وأن الكلمة التي كان يحتاج إلى مجاهدة شديدة حتى يقولها صارت جزءاً طبيعياً من سلوكه.

هنا يصبح الجديد طبعاً مكتسباً.

وهذا مهم؛ لأن الإنسان لا يبقى طوال حياته في حالة حرب مع الماضي. في بدايات التغيير يكون الصراع ظاهراً، أما إذا ثبت المسار فإن بعض ما كان صعباً يصبح أسهل. والفضيلة التي بدأت قراراً قد تصبح خلقاً، والخلق الذي بدأ تكلفاً قد يصبح سجية. وهكذا تتغير الشخصية.

لكن الإنسان الذي لا تحكمه نسخته الأولى ليس إنساناً قطع علاقته بماضيه. على العكس، قد يكون أكثر تصالحاً معه من غيره. فالذي ما يزال خائفاً من الماضي يحتاج إلى دفنه، والذي ما يزال متعلقاً به يحتاج إلى تكراره، أما الذي تجاوزه فعلاً فيستطيع أن ينظر إليه بلا هلع.

يقول: نعم، كنت هناك.

ولا يحتاج إلى أن يضيف فوراً عشرات الأعذار.

ويقول: نعم، أخطأت.

ولا يشعر أن هذه الجملة تهدم كل ما بناه بعد ذلك.

ويقول: نعم، مررت بهذا.

ولا يعتقد أن الاعتراف بالجرح يعيده إلى النزيه.

هذه قدرة لا يملكها إلا من اتسعت هويته حتى صار الماضي جزءاً منها لا كلها.

ولعل هذا يفسر لماذا يصبح المتحول الحقيقي أهدأ في حديثه عن نفسه. في مراحل مبكرة يحتاج الإنسان إلى أن يثبت للناس أنه تغير، فيشرح كثيراً، ويدافع كثيراً، ويروي تفاصيل كثيرة. لكن حين يستقر الجديد داخله يقل احتياجه إلى البرهنة. الأفعال تتكلم.

والزمن يتكلم.

والسيرة الجديدة تصبح حجة.

وهذه إحدى علامات النضج: أن لا تحتاج إلى إعلان نفسك في كل مرة.

والأمر نفسه في علاقته بمن أساء إليه. الإنسان الذي ما زال أسيراً للجرح يحتاج إلى استعادة القصة في كل مواجهة. أما الذي تجاوزها فيستطيع أن يتذكر من غير أن يستخدم الذاكرة كسلاح.

وهذا ما يجعل يوسف نموذجاً مركزياً في هذا الكتاب؛ لأنه لم يكن ضحية تحولت إلى جلاّد حين صارت قادرة. الحب لم يكتب له أخلاق الحب، والسجن لم يكتب له أخلاق السجن، والخيانة لم تجعله خائناً، والقوة لم تحوله إلى منتقم.

وهذه عظمة لا تظهر في مجرد نجاته من الأحداث، بل في نجاته من أن تتحول الأحداث إلى طبيعته.

إن بعض الانتصارات الخارجية صغيرة أمام هذا الانتصار الداخلي. قد يخرج الإنسان من السجن ويبقى السجن فيه. وقد ينتصر على خصمه لكنه يصبح شبيهاً به. وقد يحصل على القوة التي حُرّم منها ثم يستعملها بالطريقة نفسها التي كان يكرهها حين كانت في يد غيره.

عندئذ يكون قد تغير موقعه، ولم يتغير شخصيته.

أما التحول الحقيقي فهو أن تتغير الشخصية نفسها.

أن لا يكون هدفك أن تنتقل من المظلوم إلى القادر على الظلم، بل أن تخرج من المنطق كله.

ومن هنا فإن أرق صور التحرر ليست أن تمتلك ما كان يمتلكه خصمك، بل أن لا تصبح محتاجاً إلى تقليده حين تمتلكه. أن تصل إلى موقع القوة فلا تستدعي أخلاق الضعف القديم لتصفية الحسابات. أن تدخل فرصة النجاح من غير أن تجعل كل نجاح رداً على من احتقرك. أن تصبح معروفاً من غير أن تقضي عمرك في إثبات شيء للذين لم يعرفوا قيمتك.

حينئذ تكون قد خرجت حقاً.

أما إذا ظل خصمك القديم هو الجمهور الخفي لكل إنجاز جديد، فإنه ما يزال يسكن جزءاً من حياتك.

والإنسان الذي لا تحكمه نسخته الأولى يتحرر كذلك من حاجته إلى الانتقام من نفسه. بعض الناس يتغيرون، لكنهم يظلون يعاقبون أنفسهم على ما كانوا، وكأنهم يخشون أن يكون الصفح عن الذات خيانة للمسؤولية. وهذا خلط.

يمكنك أن تتحمل مسؤوليتك كاملة، وأن تندم بصدق، وأن تصلح ما تستطيع، ثم تسمح لنفسك بأن تعيش.

ليس مطلوباً أن تجعل كل يوم جديد جلسة محاكمة لما فعلته منذ سنوات.

إذا كان الندم قد أدى وظيفته، وأنتج تغييراً، فلماذا يتحول إلى عقوبة مفتوحة لا نهاية لها؟

إن جلد الذات لا يصبح فضيلة لمجرد أنه يبدو صارماً. أحياناً يكون صورة أخرى من التمرکز حول النفس. يبقى الإنسان مشغولاً بذاته القديمة بدل أن يخرج إلى العمل الجديد.

أما التوبة الناجحة فتقول: أصلحت ما أستطيع، وأستغفر الله مما لا أستطيع رده،
وسأجعل بقية عمري شهادة عملية على أنني فهمت الدرس.

وهذا أنفع من ألف ساعة من لوم لا ينتج فعلاً.

ومن هنا فإن الشخصية المتحوّلة لا تنكر الماضي، لكنها لا تنفق الحاضر كله في خدمته.
تعرف أن للحاضر حقاً، وأن للمستقبل حقاً، وأن الإنسان الذي لا يفعل سوى تفسير ما
مضى قد يضع ما بقي.

وهذا أيضاً من مسؤولية التغيير: أن تعرف متى يكفي النظر إلى الوراء.

فالمرأة الخلفية ضرورية في الطريق، لكن لا يمكن أن تقود السيارة وأنت تنظر إليها
وحدها.

ولعل هذا من أبلغ ما يمكن أن يقال عن الماضي: ينبغي أن يدلنا، لا أن يقودنا.

نرجع إليه كي نفهم.

لا لكي نقيم فيه.

والإنسان الذي وصل إلى هذه الدرجة يبدأ في النظر إلى أخطاء الآخرين بطريقة مختلفة.
لا يختزلهم بسرعة، ولا يعتقد أن لحظة سقوط تكشف كل ما سيكونون عليه، لأنه
يعرف من تجربته أن الشخصية تتحرك.

لكنه، في الوقت نفسه، لا يصبح ساذجاً.

يعرف أن بعض الناس يتغيرون وبعضهم يصرون.

يعرف أن الرحمة لا تعني إعادة الثقة قبل أوانها.

ويعرف أن العفو شيء، والحدود شيء.

وهذا هو جمال النضج: أنه يحفظ حقائق تبدو متعارضة من غير أن يلغي بعضها بعضاً.

يمكن أن تكون رحيماً وحازماً.

متفائلاً وحذراً.

عارفاً بضعف الإنسان ومؤمناً بقدرته على التغيير.

والذي لا تحكمه نسخته الأولى لا يسمح كذلك لصور الناس عنه أن تحكمه. لقد تعلم أن الآخرين قد يتأخرون في تحديث صورتهم، وأن بعضهم قد لا يفعل أبداً. لكنه لم يعد يحتاج موافقتهم الكاملة حتى يعرف أن شيئاً حقيقياً تغير.

ليس معنى هذا أنه لا يهتم بالنقد.

بل صار أقدر على تلقيه؛ لأن النقد لم يعد تهديداً لهويته كلها.

إذا كان صحيحاً، انتفع.

وإذا كان خاطئاً، تجاوزه.

وهذه حرية هادئة.

وفي هذه المرحلة يصبح الإنسان أكثر قدرة على أن يقول: لا أعلم. وهذه علامة مهمة جداً؛ لأن النسخة القديمة ربما كانت تحتاج دائماً إلى الظهور بمظهر الواثق أو المصيب. أما الجديد فقد تعلم أن النقص لا يهدمه، وأن الاعتراف بالجهل أفضل من صناعة يقين زائف.

وهكذا يتسع الوعي.

فالتحول الأخلاقي الحقيقي ينعكس على الطريقة التي يعرف بها الإنسان العالم، لا على طريقة سلوكه فقط.

ومن أعمق ثمار هذا التحول أن يتوقف الإنسان عن الحرب الدائمة مع نفسه. ليس معنى هذا أن المجاهدة تنتهي، بل تتغير طبيعتها. في البداية تكون النفس ساحة صراع مشحونة بالخوف والذنب، ثم مع النضج تصبح العلاقة أكثر هدوءاً: أعرف مواضع ضعفي، وأعرف ماذا ينبغي أن أفعل معها.

لم تعد كل رغبة قديمة كارثة.

ولا كل فكرة عابرة تهديداً.

هناك مسافة بين ما يخطر وما أختار.

وهذه المسافة هي موضع الحرية.

فالإنسان ليس كل ما يخطر في نفسه.

ولا كل ما يشعر به.

ولا كل ما يريده لحظة.

إنما يظهر الإنسان الأخلاقي أكثر في ما يفعله بما يخطر ويشعر ويريد.

وهنا يعود الاختيار إلى مركز القضية.

من أجل ذلك فإن الشخصية المتحوّلة ليست شخصية نزعَت منها إمكانية الخطأ. لو كان الأمر كذلك لخرجنا من طبيعة الإنسان نفسها. لكنها شخصية تعلمت أن لا تجعل الخطأ سيّداً، وأن لا تجعل الشعور قرّاراً، وأن لا تجعل الضعف عذراً دائماً.

وقد يكون هذا هو أقرب تعريف عملي للنضج: أن تكبر المسافة بين اندفاعك وقرارك.

كلما كبرت هذه المسافة، صار للوعي مكان أكبر.

وفي قصة إخوة يوسف بدأ كل شيء تقريباً من غياب هذه المسافة. شعور بالغيرة، ثم انتقال سريع إلى حكم، ثم خطوة. أما في نهاية القصة فقد تراكت خبرة طويلة جعلتهم قادرين على الاعتراف بمسافة أوسع بين ما أرادوه قديماً وما صاروا يرونه الآن.

وهكذا يصبح الزمن، حين نتعلم منه، توسيعاً للمسافة بين الانفعال والفعل.

والشخصية التي لا تحكمها نسختها الأولى تعيش كذلك علاقة مختلفة بالندم. لا تتنى لو أنها تستطيع تغيير الماضي كل يوم، بل تستخدم الندم فيما بقي. تعرف أن بعض الأشياء لا تصلح إلا في شكل واحد: أن لا نتكرر.

وهذا يكفي أحياناً.

فليست كل انخسائر قابلة للاسترداد، لكن كل خسارة تقريباً تستطيع أن تصبح معلماً إذا صدق الإنسان.

ومن هنا تظهر عظمة الفرصة الثانية. ليست لأنها تعيدنا إلى الصفر، بل لأنها تسمح لنا بأن نبدأ من حيث وصلنا، بكل ما فينا من معرفة وثقل وتجربة.

البداية الثانية ليست بريئة مثل الأولى.

لكنها قد تكون أعمق.

والإنسان الذي وصل إلى هذا المعنى لا يحتقر نسخته الأولى كذلك؛ لأنه يعرف أن احتقارها نوع من الإنكار. تلك النسخة كانت هو فعلاً. أخطأت وتعثرت، وربما كانت جاهلة أو ضعيفة أو مملوءة بالهوى، لكنها جزء من تاريخه.

والتعامل الناضج معها ليس بالكراهية، بل بالفهم.

أن تقول لنفسك القديمة: أعرف كيف وصلت إلى هناك، وأعرف الآن الطريق الذي لا أريد أن أعود إليه.

هذا أهذا، وأصدق.

بل قد يصل الإنسان إلى درجة من النضج يرى فيها أن بعض ما عرفه عن نفسه بسبب السقوط لم يكن ليعرفه بسهولة من غير تلك التجربة. لا يعني هذا أن يتنى الخطيئة أو يمجدها، بل أن يعترف بأن الله أخرج له من موضع ضعفه معرفة ونضجاً لم يكن يملكهما.

وهنا يعود المعنى الذي تكرر في هذا الكتاب: الخير الذي يُستخرج من الشر لا يجعل الشر خيراً، لكنه يمنع الشر من أن يحتكر النتيجة.

وهذه واحدة من أعظم صور الرجاء.

أن لا تترك أسوأ ما حدث لك يملك الكلمة الأخيرة.

وأن لا تترك أسوأ ما فعلته يملك الكلمة الأخيرة.

فالكلمة الأخيرة ليست دائماً للجب، بل لما حدث بعده.

وليست للسجن، بل لما صار إليه السجين.

وليست للحسد، بل لما وصل إليه الحاسد حين رأى نفسه.

وليست للمراودة، بل للحظة قول الحقيقة.

وليست للخطأ الأول، بل للموقف الأخير الذي اختاره الإنسان بعد أن عرف.

وهذا لا يعني أن نهاية كل إنسان ستكون حسنة تلقائياً. فالكتاب كله قائم على الاختيار،

والاختيار يمكن أن يذهب في الاتجاهين. بعض الناس يرون الحقيقة ثم يزدادون بعدها

بعداً، كما رأينا في فرعون. وبعضهم يتقون أسرى لأنفسهم حتى النهاية.

لكن هذا لا ينفي إمكان التحول.

بل يجعل مسؤوليته أعظم.

فالإنسان ليس محكوماً أن يتغير.

لكنه ليس محكوماً ألا يتغير.

وبين الإمكانين تقع حياته.

وهنا نصل إلى جوهر العنوان الذي حمل هذا الكتاب:

«الشخصية المتحوّلة: حين لا يكون الإنسان أسير خطيئته الأولى».

الخطيئة الأولى قد تفتح باباً طويلاً من السقوط إذا دافع الإنسان عنها، وقد تصبح بداية طريق مختلف إذا اعترف بها وتعلم منها. ليست المسألة في أن الخطأ صغير أو غير مهم، بل في أن الإنسان أكبر من أن يحكم عليه فعل واحد إلى الأبد إذا تغير فعلاً.

فالإنسان ليست له عصمة من السقوط.

لكن له باب رجوع.

وليس له حق في محو تبعات أفعاله بجملة اعتذار.

لكن له حق في أن لا يُحكم عليه بما تجاوزه إلى الأبد.

وليس للآخرين أن يكونوا سذجاً في الثقة به.

لكن ليس لهم أيضاً أن يصادروا إمكان أن يصبح أفضل.

وهكذا تحفظ الرؤية المتوازنة المسؤولية والرجاء معاً.

نقول للمخطئ: فعلتك مهمة.

ونقول له أيضاً: ليست هي كل ما أنت.

نقول للمظلوم: لك حق في الحذر.
ونقول له أيضاً: لا تجعل الجرح يحكم بقية حياتك.
نقول للمجتمع: تذكر.
لكن لا تجعل الذاكرة سجنًا.
ونقول للإنسان: راجع نفسك.
لكن لا تجعل المراجعة تتحول إلى إلغاء للذات.
والشخصية المتحوّلة هي التي تعيش في هذا الميزان.
لا تحتمي وراء الماضي.
ولا تنكره.
لا تنكبر على ضعفها.
ولا تُذل نفسها به.
لا تثق بنفسها ثقة عمياء.
ولا تشك فيها حتى العجز.
لا تفتح الباب لكل أحد.
ولا تبني حول قلبها جداراً لا باب فيه.
تتعلم.
وتراجع.
وتعتذر.

وتصلح.

وتضع الحدود.

وتسامح.

وتعود إن أخطأت.

وكل هذا ليس بطولة استثنائية لا يقدر عليها إلا القليل، بل هو المعنى العميق للتكليف الإنساني نفسه. نحن مخلوقات قابلة للحركة، ولهذا نحاسب. ولو كنا محكومين بأول خطأ، لما كان للتوبة معنى، ولا للندم، ولا للإصلاح، ولا للمجاهدة، ولا للعودة.

إن فتح باب التوبة في ذاته إعلان عن طبيعة الإنسان: أن صورته الأخلاقية ليست مغلقة ما دام حياً.

ولعل من أكثر المعاني رجاءً أن الإنسان قد لا يعرف أي نسخة منه ستكون هي الأقرب إلى خاتمته. قد تبدأ حياة مضطربة، ثم تستقيم. وقد يبدأ إنسان بخير ثم يتغير إلى غيره. ولذلك فإن الغرور بالماضي مثل اليأس منه: كلاهما ينسى أن الطريق ما زال مفتوحاً.

فالذي كان صالحاً بالأمس يحتاج إلى الثبات اليوم.

والذي كان مخطئاً بالأمس يستطيع أن يبدأ اليوم.

ومن هنا يصبح الحاضر أثقل لحظات الزمن أخلاقياً.

الماضي انتهى.

والمستقبل لم يأت.

أما الحاضر فهو الموضع الذي يمكن فيه الاختيار.

وهذا سر قيمته.

في هذه اللحظة تحديداً يستطيع الإنسان أن يفعل شيئاً يغيّر اتجاه السيرة.

قد يكون صغيراً.

لكنه حقيقي.

قد يقول الحقيقة بعد سنوات من الحرب.

وقد يعتذر.

وقد يقطع عادة.

وقد يرد حقاً.

وقد يفتح كتاباً.

وقد يصلي بعد انقطاع.

وقد يخرج من علاقة تُفسده.

وقد يمنح شخصاً فرصة عادلة.

وقد يغلق باباً كان ينبغي أن يغلقه منذ زمن.

هذه الأفعال الصغيرة هي مواضع ولادة النسخة الجديدة.

ولذلك فإن الإنسان الذي لا تحكمه نسخته الأولى لا ينتظر أن يشعر بأنه أصبح شخصاً

جديداً تماماً قبل أن يتصرف كشخص جديد. يفعل الجديد أولاً، ثم يتكرر، ثم يصبح

جزءاً منه.

وهذه من أسرار الصيرورة.

نحن لا ننتظر الشخصية الجديدة دائماً لكي نتصرف بها.

أحياناً نتصرف بها حتى نصبحها.

وهنا، بعد هذه الرحلة الطويلة، يظهر يوسف مرة أخيرة في قلب الفكرة. صبي رأى رؤيا، ثم جب، ثم سوق، ثم بيت، ثم فتنة، ثم سجن، ثم ملك، ثم لقاء. وكل موضع كان يمكن أن يصنع له هوية نهائية.

لكنه لم يسمح لأي مرحلة أن تكون النهاية.

ولذلك لم يكن يوسف في آخر السورة هو مجرد «الصبي الذي نجا»، بل إنساناً مرت به المراحل كلها ولم تفقده مركزه الأخلاقي.

وهذا هو النصر الحقيقي في القصة.

ليس أن خرج من الجب فقط.

بل أن الجب لم يخرج منه رجلاً ممتلئاً بالجب.

وليس أن خرج من السجن فقط.

بل أن السجن لم يجعل روحه سجيناً.

وليس أنه غلب إخوته.

بل أنه، حين صار قادراً عليهم، غلب ما كان يمكن أن يصير إليه بسببهم.

وهنا تبلغ الشخصية المتحوّلة أرفع صورها: لا حين تنجو من الآخرين فقط، بل حين تنجو من النسخة التي كان يمكن أن يصنعها أذاهم فيك.

وهذه حرية عظيمة.

أن لا يصبح ظلمهم أخلاقك.

ولا خيانتهم طريقتك.

ولا قسوتهم جنتك.

ولا احتقارهم لك تعريفك لنفسك.

عندها تستطيع أن تقول للماضي كله:

لقد مررت بك.

لكنك لست أنا كلي.

تعلمت منك.

لكنك لست سيدي.

أحملك في ذاكرتي.

لكنني لن أسلمك بقية الطريق.

وهذا هو الإنسان الذي لا تحكمه نسخته الأولى.

ليس إنساناً بلا ماضٍ.

بل إنساناً صار للمستقبل فيه صوت.

الخلاصة

ما دامت النهاية لم تُكتب

ليس الإنسان صفحةً واحدة، ولا لحظةً واحدة، ولا خطيئةً واحدة، ولا حتى فضيلةً واحدة. إنه مسار. يتقدّم ويتراجع، يصيب ويخطئ، يضعف ثم يقوى، يضلّ عن نفسه ثم يعود إليها، وقد يقضي سنوات وهو يبني صورة خاطئة عن ذاته قبل أن تأتي لحظة واحدة تكشف له ما لم يكن يريد أن يراه.

ولهذا كان من الظلم أن نأخذ الإنسان عند أسوأ نقطة في حياته، ثم نقول: هذا هو.

كما أنه من السذاجة أن نأخذه عند أفضل لحظة ونقول: لن يسقط بعد اليوم.

فالإنسان أعمق من الصورتين.

إنه الكائن الذي وُضع بين إمكانيين، وأُعطي الاختيار، ولذلك بقيت حياته مفتوحة على الصعود والهبوط ما دام حياً.

ومن هنا كانت قيمة التوبة.

وقيمة المراجعة.

وقيمة الندم.

وقيمة الاعتذار.

وقيمة الفرصة الثانية.

فهذه كلها لا معنى لها لو كان الإنسان محكوماً بأول نسخة ظهر بها في الحياة.

بدأنا هذه الرحلة من إخوة يوسف.

من تلك الجملة التي اختلط فيها الألم بالحسد، ثم تحولت إلى اتهام، ثم إلى خطة:

﴿يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى آبَيْنَا مِنْ﴾.

ثم مضينا معهم حتى وصلوا إلى الجب، ورأينا كيف يستطيع الإنسان أن يقنع نفسه أن الظلم إصلاح، وأن يجعل الجريمة خطوة مؤقتة في طريق الإصلاح: ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾.

ثم مرت السنوات.

ولم يبق شيء كما كان.

لا يوسف بقي صبي الجب.

ولا الإخوة ظلوا رجال اللحظة الأولى.

ولا يعقوب نسي.

ولا الحقيقة ماتت.

وعندما دارت القصة دورتها الطويلة وقف أولئك الذين اتهموا أباهم يوماً بالضلال يقولون:

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾.

بين الجملتين عمر كامل من التحول.

بين «أبانا لفي ضلال مبين» و«إنا لخاطئون» انتقل الإنسان من محاكمة الآخر إلى محاكمة نفسه.

وهذه هي الرحلة الحقيقية.

ليس أصعب ما في الخطيئة أن يرتكبها الإنسان.

بل أن يراها بعد أن يرتكبها.

أن ينظر إليها من خارج رغبته.

أن يسحب منها اللغة التي زينها بها.

أن يعيد الأشياء إلى أسمائها.

هذا حسد.

وهذا ظلم.

وهذا كذب.

وهذا هروب.

وهذا خوف.

وهذا أنا الذي فعلت.

في تلك اللحظة يبدأ الانعتاق.

فالإنسان لا يتحرر من الماضي بإنكاره، بل بمواجهته.

ولا يخرج من الخطيئة حين يثبت أنه لم يكن مسؤولاً، بل حين يتحمل من المسؤولية ما

هو له، ثم يرفض أن يظل في الموضع نفسه.

لكن الكتاب لم يكن عن المذنب وحده.

كان أيضاً عن المظلوم.

عن يوسف الذي كان يمكن أن تجعل منه الخيانة رجلاً آخر.

كان يمكن للجب أن يسكن فيه.

وكان يمكن للسجن أن يتحول إلى مرارة.

وكان يمكن للقدرة، حين جاءت، أن تصبح فرصة لتسوية حساب قديم.
لكن شيئاً أكبر حدث.

حين وقف الذين ظلموه بين يديه، لم يسمح للماضي أن يتكلم وحده.
قال:

﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾.

وهنا لا يظهر فقط تغير الإخوة.

بل يظهر انتصار يوسف على احتمال آخر كان يمكن أن يصير إليه.

فليس أعظم انتصار للمظلوم أن يصبح أقوى من ظالمه.

بل أن يصبح أقوى من الرغبة في أن يشبهه.

وهذه ربما إحدى أضمن أفكار هذا الكتاب:

أن الذي يؤذيك لا ينبغي أن يملك حق تحديد الشخص الذي ستصبحه.
لقد آذاك مرة.

فلا تمنحه، من حيث لا تشعر، فرصة أن يصنع أخلاقك أيضاً.

لا تجعل خيانتته سبباً لتصبح خائناً.

ولا قسوته حجة لقسوتك.

ولا ظلمه ترخيصاً لظلمك.

فإذا فعلت، يكون قد دخل حياتك مرتين: مرة حين ظلمك، ومرة حين جعلك صورة أخرى منه.

أما التحرر الحقيقي فهو أن تقول: ما فعلته بي يخلصك، وما سأصير إليه بعده يخلصني. ورأينا في السحرة أن الإنسان قد يحتاج سنوات حتى يتغير، وقد تكفيه لحظة.

دخلوا يطلبون أجر فرعون، ثم خرجوا من المشهد لا يخافون سلطانه. لم يتغير فرعون في الخارج.

لكن موقعه داخل نفوسهم تغير.

وهذه هي الحرية في واحدة من أنقى صورها: أن يفقد الشيء الذي كان يتحكم بك سلطته عليك.

ورأينا في بلقيس نوعاً آخر من التحول؛ عقلاً لا يخشى المراجعة، وشخصيةً تعرف أن تعديل الموقف عند ظهور الحقيقة ليس هزيمة، بل قوة.

فليس كل تغيير توبةً من جريمة.

بعض التغيير توبة من ضيق الرؤية.

ورأينا أن المحنة لا تجعل الإنسان أفضل تلقائياً.

فالوجع ليس معلماً مضمون النتائج.

يمكن أن يخرج منه الإنسان أكثر رحمة، ويمكن أن يخرج أكثر قسوة.

يمكن أن يقول: ذقت الألم، ولذلك لن أذيق غيري مثله.

ويمكن أن يقول: ذقت الألم، فليذقه الآخرون.

وفي المسافة بين الجملتين يصنع الإنسان نفسه.

وتعلمنا أن الفرصة الثانية ليست محوً للتاريخ.

العفو لا يعني استعادة الثقة فوراً.

والرحمة لا تعني السذاجة.

والحدود لا تعني الكراهية.

يمكن أن نغفر ونختاط.

وأن نصفح ونبتعد.

وأن نرجو تغيير إنسان من غير أن نسله مرة أخرى ما لم يثبت أنه أصبح أهلاً له.

فالرحمة التي لا ترى الواقع قد تصبح مشاركة في تكرار الخطأ.

والخزم الذي لا يعرف الرحمة قد يتحول إلى عقوبة بلا نهاية.

والحكمة هي أن يبقى الباب موجوداً، لكن لا يُفتح إلا بما يناسب الحقيقة.

وتعلمنا كذلك أن المجتمع يستطيع أن يمنح الإنسان فرصة للحياة، كما يستطيع أن يحوله إلى

أسير للقب قديم.

كم من إنسان تغير، لكن الناس لم يسمحوا لصورته أن تتغير.

وكم من شخص خرج من خطئه، لكن الخطأ لم يخرج من السنة الآخرين.

وهنا ينبغي أن نتذكر دائماً:

الناس ليسوا ملفات مغلقة.

ومن العدل أن نرى ما صاروا إليه، لا أن نكتفي بما كانوا عليه.

لكن هذا الحق ليس ذريعة ليطالب الإنسان العالم بأن يصدق فوراً.

فالثقة التي كُسرت تحتاج إلى زمن.
والتحول الذي حدث في الداخل يحتاج إلى أن يصنع لنفسه شهادة في الخارج.
وهذه الشهادة ليست الكلام.
إنها الاستمرار.

فالتغيير لا يثبت بجمال الاعتذار، بل بطريقة العيش بعد الاعتذار.
ورأينا أن الإنسان قد ينجو من حكم الناس ثم يبقى أسيراً لحكمه على نفسه.
وقد تكون هذه أقصى المحاكم.
أن يقول له الجميع: لقد تغيرت، بينما يظل صوت داخلي يهمس: أنت ما فعلته يوماً.
لكن هذا أيضاً يحتاج إلى تصحيح.
فالذي اعترف، وتاب، وأصلح، ثم أمضى سنوات يبني غير ما كان، ليس صادقاً مع الحقيقة إذا أصر على تعريف نفسه بالنسخة القديمة وحدها.
كما أن إنكار الخطأ كذب، فإن إنكار التحول بعد وقوعه نوع آخر من عدم الإنصاف.
ولهذا كان الماضي شاهداً، لا سيّداً.
يشهد بما حدث.

لكن لا يملك وحده كناية ما سيحدث.
وها هنا نصل إلى لبّ المسألة كلها:
ليس السؤال الأخطر في الحياة: هل أخطأت؟
فنحن بشر، واخلطاً وارد في طبيعة التكليف.

وليس السؤال: هل تأملت؟

فلا تكاد حياة تخلو من الألم.

السؤال الأشد حسماً هو:

ماذا فعل بك الخطأ؟

وماذا فعل بك الألم؟

هل جعلك أكثر صدقاً؟

أم أكثر مراوغة؟

أكثر تواضعاً؟

أم أكثر مرارة؟

هل تعلبت؟

أم كررت؟

هل عدت؟

أم صنعت فلسفة كاملة لتثبت أنك لم تكن بحاجة إلى العودة؟

فالإنسان لا يُعرف فقط بما يقع له.

بل بما يصنعه بما وقع له.

قد يكون بينك وبين النسخة التي تريد أن تكونها قرار واحد يتكرر بما يكفي حتى يصير حياة.

اعتذار لا تؤجله.

حق ترده.

عادة تقطعها.

باباً تغلقه.

باباً آخر تفتحه.

كلمة صدق تقولها بعدما اعتدت الهرب.

أو ظلماً تستطيع فعله ثم تمتنع عنه لأنك لم تعد الرجل الذي كان سيفعله.

هكذا يولد الإنسان الجديد.

لا في الخيال.

بل في الاختيار.

وربما كانت هذه أجمل بشارة يحملها معنى التوبة للإنسان:

أن ماضيك لا يملك حق الاستبداد بمستقبلك.

لقد وقع ما وقع.

لكنه لم يأخذ منك كل شيء..

ما تزال لديك هذه اللحظة.

وهذه اللحظة يمكن أن تحمل اختياراً آخر.

فلا تقل: لقد تأخرت.

ما دام لك يوم، فثمة شيء يمكن أن يكتب فيه.

ولا تقل: عرفت نفسي، ولن أغير.

فعرفتك بضعفك قد تكون أول أسباب تغيرك.

ولا تقل: الناس لن ينسوا.

ليس مطلوباً منك أن تعيش كي تحو ذاكرتهم، بل أن تعيش بما يرضي الله ويصدق تحوّلك.

ولا تقل: لا أستحق البداية.

فالبداية الثانية لا تُعطى لمن لم يخطئ، بل لمن عرف أنه أخطأ وأراد أن لا يبقى حيث أخطأ.

وربما لهذا كانت قصة يوسف «أحسن القصص».

ليس فقط لأن أحداثها محكمة، وشخصياتها غنية، ومفارقاتها مدهشة، بل لأنها تفتح للإنسان نافذةً واسعة على نفسه.

فيها الصبي الذي يتغير موقعه ولا تتغير طهارة قلبه.

وفيها الإخوة الذين تبدأ قصتهم بالجريمة ولا تنتهي بها.

وفيها امرأة تخفي الحقيقة ثم تقول يوماً: ﴿الآن حَصَّصَ الحقُّ﴾.

وفيها أب لا يفقد الرجاء رغم امتداد الحزن.

وفيها زمن طويل يغيّر المواقع ويكشف الخفايا حتى تلتقي القصة كلها عند الحقيقة.

وكان السورة تقول لنا من أولها إلى آخرها:

لا تتعجلوا الحكم على الطريق من مشهده الأول.

فالجلب ليس خاتمة يوسف.

والسجن ليس خاتمته.

والقميص الملطخ بالدم ليس خاتمة الإخوة.
والخطيئة ليست بالضرورة خاتمة الإنسان.
الخاتمة تُكتب عند النهاية.
وما دمت حياً، فلم تأت النهاية بعد.
ولذلك لا تحبس إنساناً في لحظة تاب منها.
ولا تحبس نفسك في سقوط نهضت منه.
ولا تجعل جرحاً واحداً اسماً لحياتك كلها.
ولا تجعل فشلاً قديماً نبوءةً لمستقبلك.
ولا تجعل خيراً فعلته يوماً يمنحك أماناً من السقوط غداً.
ابقَ يقظاً.
فالذي يمكنه أن يصعد يمكنه أن يهبط.
والذي هبط يمكنه أن يعود.
وهذه هي مهابة الحرية الإنسانية وجمالها في آن.
أنت لست الصفحة الأولى وحدها.
ولا الصفحة الأسوأ.
ولا الصفحة الأجل.
أنت الكتاب الذي ما يزال يُكتب.
وكل يوم يضع في يدك سطرًا جديدًا.

فاختر جيداً ما تكتبه.

لأن أعظم ما في الإنسان ليس أنه لم يخطئ قط.

بل أنه، حين عرف خطأه، لم يرض أن تكون تلك هي كلمته الأخيرة.

فما دامت النهاية لم تُكتب،

فإن الإنسان لم يصبح بعد كل ما يستطيع أن يكونه.